القسم الثاني

فقه الأدعية والأذكار

بقلم
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

طبع على نفقة بعض المحسنين
جزاهم الله خيراً وأعظم لهم المثوبة

دار ابن القيم

دار ابن عفان

[القسم الثاني]

فقه الأدعية والأذكار

بقلم

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

طُبع على نفقة بعض المحسنين

جزاهم الله خيراً وأعظَم لهم المثوب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على إمام المرسَلين وخيرةِ ربِّ العالمين، نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فهذا القسم الثاني من كتاب **فقه الأدعية والأذكار**، وهو خاصٌّ بالدعاء، احتوى على جُملةٍ من الموضوعات المفيدة، والأبحاث النافعة والمسائل المهمَّة التي تَمسُّ الحاجةُ إليها لدى كلِّ مسلمٍ ومسلمة، ومِن أبرَزِ الموضوعات التي اشتمل عليها هذا القسم ما يلي:

• بيانُ فضل الدُّعاء وأهميَّته ومكانتِه من الدِّين الإسلاميِّ الحنيف.

• الشروط التي ينبغي أن تتوافر في الدعاء ليكون مقبولاً عند الله عزَّ وجلَّ.

• الآدابُ التي ينبغي أن يتحَلَّى بها مَن يدعو اللهَ عزَّ وجلَّ؛ ليكمل دعاؤُه، وليتحقَّق رجاؤُه، ولينال سؤلَه.

• فضلُ الأدعيَّة المأثورةِ وكمالها في مبانيها ومعانيها، وبيان اشتمالِها على غاية المطالب العالية، وكمال المقاصد النبيلة.

• خطورة الأدعيَّة المنحرفة والأوراد المخترعة، وبيان عِظم جنايتِها على أهلها المستمسكين بها المحافظين عليها.

• التحذير من الشِّرك في الدُّعاء، وبيان أنَّه أعظم انحرافٍ وقع في هذا الباب.

• بيان أنواع التوسُّل المشروع، والتحذيرُ من جملةٍ من الانحرافات التي

وقعت في الدُّعاء تُسمَّى توسُّلاً، وهي في الحقيقة انحرافٌ وضلال.

• بيان أوقات وأحوال للمسلم تكون فيها الإجابةُ لدعائِه أحرى من غيرها.

• فضلُ الدُّعاء للمسلمين والاستغفار لهم، وبيان ما يترتَّب عليه من أجورٍ عظيمة وخيرات عميمة.

• بيانُ أهميَّة تبصُّر المسلم فيما يدعو به، والحذر من الاستعجال بالدعاء على نفسِه أو غيره من المسلمين بالهلاك أو العذاب أو نحو ذلك.

إلى غير ذلك من الموضوعات النافعة المتعلِّقة بالدُّعاء، وقد جعلته كالقسم الأول من حيث حجمُه وعددُ موضوعاته، فهذا القسم يشتمل على خمسة وخمسين موضوعاً متناسبة من حيث الحجم، وجعلتُ لكلٍّ منها عنواناً خاصًّا يُرشد إلى مضمونه.

وهي في الأصل حلقات إذاعيةٌ قُدِّمت عبر إذاعة القرآن الكريم بالمملكة العربية السعودية، تلك الإذاعة المباركة التي يُقدم فيها من الجهود العظيمة والمساعي الحثيثة والأعمال المشكورة في سبيل نشر دين الله في أنحاء المعمورة ما لا يخفى عظم نفعه وكبر فائدته على كلِّ مسلم، فنسأل الله أن يَجزيَ القائمين عليها خير الجزاء، وأن يُسدِّدهم في أقوالهم وأعمالهم وأن يُبارك في جهودهم وأن يُوفِّقهم لكلِّ خير، وأسأله سبحانه أن يتقبَّل منِّي عملي هذا وسائر أعمالي وأن ينفع به ويُبارك فيه، إنَّه سميع مجيب.

وكتبه: عبد الرزاق البدر

٥٦ ـ فضل الدعاء

الدعاءُ شأنه في الإسلام عظيمٌ، ومكانتُه فيه ساميةٌ، ومنزلتُه منه عالية؛ إذ هو أجلُّ العبادات وأعظمُ الطاعات وأنفعُ القربات، ولهذا جاءت النصوصُ الكثيرةُ في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ المبيِّنةُ لفضله والمُنوِّهةُ بمكانته وعظم شأنه، والمرغِّبةُ فيه والحاثَّةُ عليه، وقد تنوَّعت دلالاتُ هذه النصوص المبيِّنة لفضل الدعاء، فجاء في بعضها الأمرُ به والحثُّ عليه، وفي بعضها التحذير من تركه والاستكبار عنه، وفي بعضها ذكرُ عِظم ثوابه وكبر أجره عند الله، وفي بعضها مدحُ المؤمنين لقيامهم به، والثناءُ عليهم بتكميله، وغيرُ ذلك من أنواع الدلالات في القرآن الكريم على عظم فضل الدعاء.

بل إنَّ الله سبحانه قد افتتح كتابه الكريم بالدعاء واختممه به، فسورة « الحمد » التي هي فاتحة القرآن الكريم مشتملةٌ على دعاء الله بأجلِّ المطالب وأكمل المقاصد، ألا وهو سؤال الله عزَّ وجلَّ الهدايةَ إلى الصراط المستقيم والإعانةَ على عبادته، والقيامَ بطاعته سبحانه، وسورةُ « الناس » التي هي خاتمة القرآن الكريم مشتملةٌ على دعاء الله سبحانه، وذلك بالاستعاذة به سبحانه من شرِّ الوسواس الخنَّاس الذي يوسوسُ في صدور الناس من الجِنَّة والناس، وما من ريبٍ أنَّ افتتاحَ القرآن الكريم بالدعاء واختتامَه به دليلٌ على عِظم شأن الدعاء وأنَّه روحُ العبادات ولبُّها.

بل إنَّ الله جلَّ وعلا سمَّى الدعاءَ في القرآن عبادةً في أكثر من آية، مِمَّا يدلُّ على عِظم مكانته، كقوله سبحانه: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُم ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**

إنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}[١]، وكقوله فيما حكاه عن نبيِّه إبراهيم عليه السلام: {**وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَن لاَ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا**}[٢]، ونحوها من الآيات، وسمَّى سبحانه الدعاءَ دِيناً كما في قوله: {**فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**}[٣]، ونحوها من الآيات.

وهذا كلُّه يُبيِّن لنا عِظمَ شأن الدعاء، وأنَّه أساسُ العبودية وروحُها، وعنوانُ التذلُّل والخضوع والانكسار بين يدي الربِّ، وإظهارِ الافتقار إليه، ولهذا حثَّ الله عبادَه عليه، ورغَّبهم فيه في آيٍ كثيرة من القرآن الكريم، يقول الله تعالى: {**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**}[٤]، وقال تعالى: {**هُوَ الحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ**}[٥].

وأخبر سبحانه ـ مرَغِّباً عبادَه في الدعاءِ ـ بأنَّه قريبٌ منهم يُجيب دعاءَهم، ويُحقِّقُ رجاءَهم، ويعطيهم سؤلهم، قال تعالى: {**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي**

---

(١) سورة غافر، الآية: (٦٠).
(٢) سورة مريم، الآيتان: (٤٨ ، ٤٩).
(٣) سورة غافر، الآية: (١٤).
(٤) سورة الأعراف، الآيتان: (٥٥ ـ ٥٦).
(٥) سورة غافر، الآية: (٦٥).

لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}[(١)]، وقال تعالى: {أَمَّن يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ}[(٢)].

ولهذا فإنَّ العبدَ كلَّما عظُمت معرفتُه بالله وقويت صِلتُه به كان دعاؤُه له أعظمَ، وانكسارُه بين يديه أشدَّ، ولهذا كان أنبياءُ الله ورُسُلُه أعظمَ الناس تحقيقاً للدعاء وقياماً به في أحوالهم كلِّها وشؤونهم جميعِها، وقد أثنى الله عليهم بذلك في القرآن الكريم، وذكَر جملةً من أدعيتهم في أحوالٍ متعدِّدةٍ ومناسبات متنوِّعةٍ، قال تعالى في وصفهم: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}[(٣)].

ومن أدعية الأنبياء ما ذكره الله عن نبيِّه إبراهيم عليه السلام حيث قال: {الحَمْدُ للهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحِسَابُ}[(٤)].

وذكر سبحانه دعاءَ نبيِّه نوح عليه السلام عندما سأل ربَّه أن ينصرَه على قومه الذين كذَّبوه وعادَوه، فقال سبحانه: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ

---

(١) سورة: البقرة، الآية: (١٨٦).

(٢) سورة النمل، الآية: (٦٢).

(٣) سورة الأنبياء، الآية: (٩٠).

(٤) سورة إبراهيم، الآيات: (٣٩ ـ ٤١).

وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ}[(١)].

وذكر سبحانه دعاء نبيِّه أيوب عليه السلام عندما مسَّه الضرُّ فقال سبحانه: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلعَابِدِينَ}[(٢)].

وذكر دعاءَ نبيِّه يونس عليه السلام عندما التقمه الحوتُ فدعا ربَّه وهو في جوفِ الحوت في قعر البحر، واستجاب الله دعاءَه فقال سبحانه: {وَذَا النُّون إِذ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَن نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي المُؤْمِنِينَ}[(٣)]، وهكذا مَن يتأمَّلُ القرآنَ الكريم يجد فيه من أدعية الأنبياء وسؤالهم ربّهم واطِّراحهم بين يديه في جميع أحوالِهم ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ شيئاً كثيراً.

وكما أنَّه سبحانه وصَفَ الأنبياء بالدعاء ونَعتهم به، وأثنى عليهم بتحقيقه، فقد وصف بذلك سبحانه المؤمنين الصادقين وعبادَ الله الصالحين، قال تعالى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا

(١) سورة القمر، الآيات: (٩ ـ ١٤).
(٢) سورة الأنبياء، الآيتان: (٨٣ ، ٨٤).
(٣) سورة الأنبياء، الآيتان: (٨٧ ، ٨٨).

يَعْمَلُونَ}[١]، وقال تعالى: {**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**}[٢]، وقال سبحانه في وصف أهل الجنَّة عندما يدخلونها بسلام آمنين: {**تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ**}[٣].

فالدعاء هو روحُ هذا الدِّين، وزادُ المؤمنين المتقين، وعنوانُ التذلُّل والخضوع لرب العالمين، جعلنا الله وإيَّاكم من أهله المحققين له، إنَّه سَميعٌ مجيبٌ.



---

(١) سورة السجدة، الآيتان: (١٦ ، ١٧).

(٢) سورة الكهف، الآية: (٢٨).

(٣) سورة يونس، الآيتان: (٩ ، ١٠).

٥٧ ـ من أدلة السنة على فضل الدعاء
وذكر ضابط في المفاضلة بين الذِّكر والدعاء

تقدَّم معنا فضلُ الدعاء من خلال عرض جملة من نصوص القرآن الكريم الدَّالة على عِظم فضله وجلالة شأنه، وفي ما يلي ذِكرُ جملةٍ من نصوص السنة الدالَّة على فضل الدعاء، وكثرة عوائِدِه وثِمارِه وفوائده، والسنَّةُ مليئةٌ بالنصوص المشتملة على الحثِّ على الدعاء وبيان فضله وعِظم ثوابه وأجره عند الله.

فمن ذلك ما ثبت في السنن عن النعمان بن بشير رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: « الدعاء هو العبادة، ثمَّ قرأ: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُم ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾[1] »[2]، فدلَّ ذلك على عِظم شأن الدعاء، وأنَّه أرفعُ أنواع العبادة وأفضلُها.

وقد روى الحاكم بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: « أفضل العبادة الدعاء، وقرأ: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُم ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ »[3].

وروى الترمذي وغيرُه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «

---

(١) سورة غافر، الآية: (٦٠).

(٢) سنن الترمذي (رقم:٣٢٤٧)، والمسند (٤/ ٢٦٧)، والأدب المفرد (رقم:٧١٤)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الأدب المفرد (رقم:١٧٥٧).

(٣) المستدرك (١/ ٤٩١)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (رقم:١٥٧٩).

ليس شيء أكرم على الله من الدعاء »[١].

ففي هذه الأحاديث دلالةٌ على فضل الدعاء، وعظيم كرمه عند الله، ورفيع مكانته من العبادة، وأنَّه روحُها ولبُّها وأفضلُها، وإنَّما كان ذلك كذلك لأمور عديدة ذكرها أهل العلم:

منها: أنَّ الدعاءَ فيه التضرُّعُ إلى الله وإظهارُ الضعف والحاجة إليه سبحانه.

ومنها: أنَّ العبادةَ كلَّما كان القلبُ فيها أخشعَ والفكرُ فيها حاضراً فهي أفضلُ وأكملُ، والدعاء أقربُ العبادات إلى حصول هذا المقصود، فإنَّ حاجةَ العبد تدفعه إلى الخشوع وحضور القلب.

ومنها: أنَّ الدعاءَ ملازمٌ للتوكُّل والاستعانةِ بالله، فإنَّ التوكُّلَ هو الاعتمادُ بالقلب على الله والثقةُ به في حصول المحبوبات واندفاع المكروهات، والدعاءُ يقويه، بل يعبر عنه ويصرح به، فإنَّ الداعي يعلم ضرورته التامة إلى الله، وأنَّ أمورَه جميعَها بيده، فيطلبها من ربِّه راجياً له واثقاً به، وهذا هو روحُ العبادة[٢]، إلى غير ذلك من الأمور التي تبيِّن عِظم قدر الدعاء ورفعة شأنه، على أنَّه ينبغي أن يتنبَّه إلى أنَّ هذا لا يعنِي تفضيل الدعاء على غيره من العبادات مطلقاً، بل جنس الذِّكر أفضلُ من جنس الدعاء من حيث النظر إلى

(١) سنن الترمذي (رقم:٣٣٧٠)، وابن ماجه (رقم:٣٨٢٩)، وصحيح ابن حبان (رقم:٨٧٠)، المستدرك (١/ ٤٩٠)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الأدب المفرد (رقم:٥٤٩).

(٢) انظر: مجموع الفوائد واقتناص الأوابد لابن سعدي (ص:٤٦).

كلٍّ منهما مجرَّداً، وقراءة القرآن أفضلُ من الذِّكر، والذِّكرُ أفضل من الدعاء، هذا من حيث النظر إلى الكلِّ مجرَّداً، وقد يعرض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل(١).

وهذا بابٌ شريفٌ من العلم ينبغي للمسلم أن يدركه وأن يعتني بفهمه تمام العناية؛ ليدرك الأفضل في كلِّ وقت وحال، وليحوز على الأكمل له في عبادته لربِّه وطاعته لمولاه في كلِّ زمان ومكان، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ضابطاً دقيقاً للتفاضل بين العبادات وتنوع ذلك بحسب أجناس العبادات وأوقاتها واختلاف أمكنتها واختلاف القدرة على القيام بها ونحو ذلك، وعلى ضوئه يُدرك المسلمُ الأفضلَ له بحسب تلك الاعتبارات المشار إليها.

قال رحمه الله: « إنَّ الأفضل يتنوَّع: تارة بحسب أجناس العبادات، كما أنَّ جنسَ الصلاة أفضل من جنس القراءة، وجنس القراءة أفضل من جنس الذِّكر، وجنس الذِّكر أفضلُ من جنس الدعاء.

وتارة يختلف باختلاف الأوقات كما أنَّ القراءةَ والذِّكرَ والدعاءَ بعد الفجر والعصر هو المشروع دون الصلاة.

وتارة باختلاف عمل الإنسان الظاهر، كما أنَّ الذِّكرَ والدعاءَ في الركوع والسجود هو المشروع دون القراءة، وكذلك الذِّكرُ والدعاءُ في الطواف مشروع بالاتفاق، وأما القراءة في الطواف ففيها نزاع معروف.

وتارة باختلاف الأمكنة، كما أنَّ المشروعَ بعرفة ومزدلفة وعند الجِمار

(١) انظر: الوابل الصيب لابن القيم (ص:١٨٧).

وعند الصفا والمروة هو الذِّكرُ والدعاء دون الصلاة ونحوها، والطواف بالبيت للوارد أفضلُ من الصلاة، والصلاة للمقيمين بمكة أفضل.

وتارة باختلاف مرتبة جنس العبادة، فالجهاد للرجال أفضل من الحج، وأمَّا النساء فجهادهنَّ الحج، والمرأة المتزوجة طاعتها لزوجها أفضلُ من طاعتها لأبويها، بخلاف الأيِّمة فإنَّها مأمورة بطاعة أبويها.

وتارة يختلف باختلاف حال قدرة العبد وعجزه، فما يقدر عليه من العبادات أفضلُ في حقِّه مما يعجز عنه، وإن كان جنسُ المعجوز عنه أفضلَ، وهذا بابٌ واسعٌ يغلو فيه كثيرٌ من الناس ويتَّبعون أهواءهم.

فإنَّ من الناسِ مَن يرى أنَّ العملَ إذا كان أفضلَ في حقِّه لمناسبة له ولكونه أنفع لقلبه وأطوع لربِّه يريد أن يجعله أفضلَ لجميع الناس ويأمرهم بمثل ذلك.

والله بعث محمداً ﷺ بالكتاب والحكمة، وجعله رحمة للعباد وهادياً لهم يأمر كلَّ إنسانٍ بِما هو أصلح له، فعلى المسلم أن يكون ناصحاً للمسلمين، يقصد لكلِّ إنسانٍ ما هو أصلح له.

وبهذا تبيَّن لك أنَّ من الناس من يكون تطوعه بالعلم أفضل له، ومنهم من يكون تطوُّعُه بالجهاد أفضلَ، ومنهم من يكون تطوُّعُه بالعبادات البدنية كالصلاة والصيام أفضلَ له[1]، والأفضل المطلق ما كان أشبه بحال النبيِّ ﷺ

---

(١) ومن لطيف ما يُذكر في هذا الباب ما أورده الذهبيُّ في سير أعلام النبلاء (٨/ ١١٤) في ترجمة الإمام مالك بن أنس، أنَّ عبد الله بن عمر العُمري العابد كتب إلى الإمام مالك يَحُضُّه على الانفراد والعمل، فكتب إليه مالكُ بن أنس: ((إنَّ الله قسم =

باطناً وظاهراً، فإنَّ خيرَ الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ »[1].
اهـ كلامه رحمه الله.

وهو كما ترى مشتملٌ على تحقيق متقن، وتأصيل واف في هذا الباب العظيم لِمَن أراد لنفسه الأفضلَ والأكملَ في العبادات والأمور المُقرِّبة إلى الله عزَّ وجلَّ، وحاصلُه أنَّ الأفضلَ في كلِّ وقتٍ وحالٍ هو مراعاة سُنَّة النبي ﷺ في ذلك الوقت والحال والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه، فبذلك يدرك المسلم الكمال، ويظفر بالأفضل والأكمل.

على أنَّه ينبغي أن يعلم أنَّ الأعمالَ المتساوية في الجنس تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان بالله والمحبة له والتعظيم لشرعه وقصد وجهه بالعمل تفاضلاً لا يحصيه ولا يحيط به إلاَّ الله.

فنسأله سبحانه أن يهدينا وإياكم إلى أحسن الأعمال لا يهدي إلى أحسنها إلاَّ هو، وأن يرزقنا جميعاً الإخلاصَ في القول والعمل.

الأعمالَ كما قسم الأرزاق، فرُبَّ رجل فُتح له في الصلاة، ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد، فنَشرُ العلم من أفضل أعمال البرِّ، وقد رضيت بما فتح لي، وما أظنُّ ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كِلانا على خير وبرٍّ)).

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٢٧ ـ ٤٢٩).

٥٨ ـ ومن فضائل الدعاء

لا يزال الحديث موصولاً بذكر الأدلَّةِ على فضل الدعاء، من خلال ما ورد من ذلك في سُنَّة الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وقد مرَّ معنا طرَفٌ من هذه الأحاديث منها قوله ﷺ: « ليس شيء أكرم على الله عزَّ وجلَّ من الدعاء »[١]، وهو دالٌّ على كرمِ الدعاء وعِظم مكانته عند الله؛ وذلك أنَّ الدعاءَ هو العبادةُ وهو لبُّها وروحُها، والعبادةُ هي الغايةُ التي خُلق الخلقُ لأجلها وأُوجدوا لتحقيقها، وأكرمها عند الله هو الدعاء، كما تقدَّم.

ومِمَّا ورد في فضل الدعاء في السنة ما رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وغيرهم بإسناد جيِّد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « مَن لَم يدعُ الله سبحانه غَضِبَ عليه »[٢]، وهذا فيه دليلٌ على حبِّ الله للدعاء، وحبِّه سبحانه لعبده الذي يدعوه، ولذا فإنَّه سبحانه يغضب من عبده إذا ترك دعاءَه، ولا ريب أنَّ هذا فيه « دليل على أنَّ الدعاءَ من العبد لربِّه من أهمِّ الواجبات وأعظمِ المفروضات؛ لأنَّ تجنُّبَ ما يغضب الله منه لا خلاف في وجوبه »[٣]، وقد سبق ذِكرُ قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُم ادْعُونِي**

(١) سنن الترمذي (رقم:٣٣٧٠)، وابن ماجه (رقم:٣٨٢٩)، وصحيح ابن حبان (رقم:٨٧٠)، المستدرك (١/ ٤٩٠)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الأدب المفرد (رقم:٥٤٩).

(٢) المسند (٢/ ٤٤٣، ٤٧٧)، وسنن الترمذي (رقم:٣٣٧٣)، وابن ماجه (رقم:٣٨٢٧)، وقال ابن كثير عن إسناده: ((هذا إسنادٌ لا بأس به)). التفسير (٤/ ٩٢)، وحسَّنه الألبانيُّ في الصحيحة (رقم:٢٦٥٤).

(٣) تحفة الذاكرين للشوكاني (ص:٢٨).

أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}[١]، وهو يدلُّ على أنَّ تركَ العبدِ دعاءَ ربِّه يُعدُّ من الاستكبار، وتجنُّبُ ذلك لا شكَّ في وجوبه.

ومِمَّا ورد أيضاً في فضل الدعاء ما رواه البخاري في الأدب المفرد، وابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه موقوفاً، والطبراني في الأوسط عنه، عن النبي ﷺ مرفوعاً قال: « أعجزُ الناس مَن عجز عن الدعاء، وأبْخلُ الناس مَن بخل بالسلام »[٢]، فالدعاءُ أمرُه يسيرٌ جدًّا على كلِّ أحدٍ، فهو لا يتطلَّب جهداً عند القيام به، ولا يلحق الداعي بسببه تعبٌ ولا مشقَّةٌ، ولهذا فإنَّ العجزَ عنه والتواني في أدائه هو أشدُّ العَجز، وحَرِيٌّ بِمَن عجز عنه مع يُسرِه وسهولته أن يعجز عن غيره، ولا يَعجزُ عن الدعاء إلاَّ دنيُّ الهمَّةِ ضعيفُ الإيمان.

ومِمَّا جاء في فضل الدعاء ما رواه الإمام أحمد وابن ماجه وغيرهما عن ثوبان رضي الله عنه: أنَّ النبي ﷺ قال: « لا يردُّ القدرَ إلاَّ الدعاءُ »[٣]، فهذا فيه دليل على أنَّ الله سبحانه يدفع بالدعاء ما قد قضاه على العبد، وقد ورد في هذا المعنى أحاديثُ عديدة، وحاصل معناها أنَّ الدعاءَ مِن قَدَرِ الله عزَّ

---

(١) سورة غافر، الآية: (٦٠).

(٢) الأدب المفرد (رقم:١٠٤٢)، وصحيح ابن حبان (رقم:٤٤٩٨)، والمعجم الأوسط (رقم:٥٥٩١)، وصحح العلامة الألباني رحمه الله الموقوف والمرفوع. الصحيحة (رقم:٦٠١).

(٣) المسند (٥/ ٢٨٠)، وسنن ابن ماجه (رقم:٩٠)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (رقم:١٥٤).

وجلَّ؛ إذ إنَّه سبحانه قد يقضي بالأمر على عبدِه قضاءً مقيَّداً بأن لا يدعوه، فإذا دعاه اندفع عنه، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ الدعاءَ من أعظم الأسباب التي تُنال بها سعادة الدنيا والآخرة، خلافاً لبعض المتصوِّفة الذين يعتقدون أنَّ الدعاءَ لا تأثيرَ له في حصول مطلوبٍ ولا دفع مرهوبٍ، وإنَّما هو مجرَّدُ عبادةٍ محضةٍ، وأنَّ ما حصل به يحصل بدونه، ولا يقول هذا مَن عَرَفَ قدرَ الدعاء، « ولهذا أُمر الناسُ بالدعاءِ والاستعانَةِ وغيرِ ذلك مِن الأسباب، ومَن قال: أنا لا أدعو ولا أسألُ اتِّكالاً على القَدَرِ كان مخطئاً؛ لأنَّ اللهَ جعلَ الدعاءَ والسؤالَ من الأسباب التي ينال بها مغفرتُه ورحمتُه وهداه ونصرُه ورزقُه، وإذا قدَّر للعبد خيراً يناله بالدعاءِ لَم يَحصل بدون الدعاء ، وما قدَّره اللهُ وعَلِمَه من أحوالِ العباد وعواقِبِهم فإنَّما قدَّره الله بأسبابٍ يسوقُ المقاديرَ إلى المواقيت، فليس في الدنيا والآخرة شيء إلاَّ بسبب، والله خالقُ الأسباب والمسبَّبات »[(١)].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: « أساسُ كلِّ خيرٍ أن تعلَم أنَّ ما شاء اللهُ كان وما لَم يشأ لَم يكن، فتيقَّن حينئذٍ أنَّ الحسناتِ مِن نِعمه فتشكرَه عليها وتتضرَّعَ إليه أن لا يقطعَها عنك، وأنَّ السيِّئاتِ مِن خذلانِه وعقوبتِه، فتَبْتَهِلَ إليه أن يَحُولَ بينك وبينها، ولا يَكِلَكَ في فعلِ الحسنات وترك السيِّئات إلى نفسِك، وقد أَجْمع العارفون على أنَّ كلَّ خيرٍ فأصلُه بتوفيقِ الله للعبد، وكلَّ شرٍّ فأصلُه خذلانه لعبده، وأجمعوا أنَّ التوفيقَ أن لا يكِلَك الله إلى نفسك، وأنَّ الخذلانَ هو أن يخلي بينَك وبين نفسك، فإذا كان كلُّ خيرٍ فأصلُه

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٦٩ ـ ٧٠).

التوفيق وهو بيد الله لا بيد العبدِ؛ فمفتاحُه الدعاءُ والافتقارُ وصدقُ اللَّجَأ والرغبةِ والرهبةِ إليه، فمتى أعطى العبدَ هذا المفتاحَ فقد أراد أن يفتح له، ومتى أضلَّه عن المفتاح بقي بابُ الخير مُرْتَجًّا دونه ... وما أُتي مَن أُتي إلاَّ مِن قِبَل إضاعة الشكرِ وإهمالِ الافتقار والدعاء، ولا ظَفِرَ مَن ظَفِرَ ـ بمشيئة الله وعونِه ـ إلاَّ بقيامه بالشكرِ وصدقِ الافتقارِ والدعاء » اهـ[(١)].

إنَّ حاجةَ المسلم إلى الدعاء ماسَّةٌ في أموره كلِّها وضرورتَه إليه ملحَّةٌ في شؤونه جميعِها، وقد ضَرَبَ أَحدُ أهل العلم لِحال المسلم مع الدعاء مَثلاً بديعاً تستبين به شدَّةُ حاجته إليه، ويظهرُ به عظمُ ضرورته إليه، روى الإمام أحمد في كتاب الزهد عن قتادة قال: قال مُوَرِّقٌ رحمه الله: « ما وجدتُ للمؤمن مثلاً إلاَّ رجلاً في البحر على خشبة، فهو يدعو يا ربِّ يا ربِّ، لعل الله عزَّ وجلَّ أن ينجيَه »[(٢)].

ومَن أقبل على الله بصدقٍ، وألَحَّ عليه بالدعاء، وأَكثَرَ من سؤالِه أجاب الله دعاءَه، وحقَّق رجاءَه، وأعطاه سُؤْلَه، وفتح له أبوابَ الخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص:١٢٧ ـ ١٢٨).

(٢) الزهد (رقم:٣٧١).

٥٩ ـ افتقار العبد إلى اللَّه وحاجته إلى دعائه

إنَّ من فضائل الدعاء ودلائل عِظم شأنه أنَّ الله تبارك وتعالى يُحبُّه من عباده مع كمال غِناه عنهم، ووعدَ الدَّاعين له من عباده بالإجابة، وذلك في قوله سبحانه: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُم ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾[(١)]. وهذا من لُطف الله بعباده وعظيم إكرامه لهم وإحسانه بهم، فهو سبحانه لا يُخيِّب عبداً دعاه، ولا يرُدُّ مؤمناً ناجاه، يقول الله تعالى كما في الحديث القدسي: « يا عبادي كلُّكم ضالٌّ إلاَّ مَن هديتُه، فاستهدوني أهدِكم، يا عبادي كلُّكم جائعٌ إلاَّ مَن أطعمته، فاستطعِموني أطعمكم، يا عبادي كلُّكم عارٍ إلاَّ من كسوتُه، فاستكسوني أكسُكم، يا عبادي إنَّكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم ... »، وقال فيه: « يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم قاموا على صعيدٍ واحدٍ فسألوني فأعطيتُ كلَّ واحد مسألتَه ما نقصَ ذلك مِمَّا عندي إلاَّ كما ينقص المِخيَطُ إذا أُدخل البحر »، رواه مسلم في سياق طويل من حديث أبي ذر رضي الله عنه[(٢)].

وفي الحديث دلالةٌ على أنَّ اللهَ يحبُّ أن يسأله العبادُ جميعَ مصالح دينهم ودنياهم من الطعام والشراب والكسوة وغير ذلك، كما يسألونه الهدايةَ والمغفرةَ والتوفيقَ والإعانةَ على الطاعةِ ونحوَ ذلك، ووعدَهم سبحانه على

(١) سورة غافر، الآية: (٦٠).

(٢) صحيح مسلم (رقم:٢٥٧٧).

ذلك كلِّه بالإجابة.

وفيه أيضاً دلالةٌ على كمال قدرةِ الله سبحانه وكمال ملكِه، وأنَّ ملكَه وخزائنَه لا تنفدُ ولا تنقصُ بالعطاء، ولو أعطى الأوَّلين والآخرين من الجنِّ والإنس جميعَ ما سألوه في مقام واحد، وفي ذلك حثٌّ على الإكثار من سؤاله وإنزال جميع الحوائجِ به، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: « يدُ الله ملأى لا تغيضُها نفقة، سَحَّاءُ الليل والنهار، أفرأيتم ما أنفق ربُّكم منذ خلق السموات والأرض، فإنَّه لَم يَغِضْ ما في يمينه »[1]، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: « إذا دعا أحدُكم فلا يقُلْ اللَّهمَّ اغفر لي إن شئتَ، ولكن ليعزم المسألةَ وليُعظم الرغبةَ، فإنَّ الله لا يتعاظمه شيءٌ »[2].

وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: « إذا دعوتم اللهَ فارفعوا في المسألة، فإنَّ ما عنده لا ينفد منه شيء، وإذا دعوتم فاعزموا فإنَّ الله لا مستكره له »[3].

وتأمَّل قوله سبحانه في الحديث المتقدِّم: « لَم ينقص ذلك ممَّا عندي إلاَّ كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر »، فإنَّ فيه تحقيقاً بأنَّ ما عند الله لا ينقص ألبتة، كما قال تعالى: {**مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ**}[4]، فإنَّ البحرَ إذا

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٤٦٨٤)، وصحيح مسلم (رقم:٩٩٣).

(٢) صحيح مسلم (رقم:٢٦٧٩).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٢١، ٤٧) مقطعاً.

(٤) سورة النحل، الآية: (٩٦).

غُمس فيه إبرة ثمَّ أُخرجت لَم تُنقص من البحر بذلك شيئاً، وكذلك لو فُرض أنَّ عصفوراً شرب منه فإنَّه لا يُنقص البحر ألبتة، وهو سبحانه إذا أراد شيئاً من عطاءٍ أو عذاب أو غير ذلك قال له: كن فيكون، كما قال سبحانه: {**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**}[(١)]، وقال سبحانه: {**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**}[(٢)]، فكيف يُتصوَّر فيمن هذا شأنه أن ينقص ما عنده أو ينفد، ولقد أحسن مَن قال:

لا تخضعنَّ لمخلوق على طمع ... فإنَّ ذاك مُضرٌّ منك بالدِّين

واسترزق الله مِمَّا في خزائنه ... فإنَّما هي بين الكاف والنون[(٣)].

إنَّ العبدَ محتاجٌ إلى الله في كلِّ شؤونِه، ومفتقرٌ إليه في جميعِ حاجاتِه، لا يستغني عن ربِّه ومولاه طرفة عين ولا أقلَّ من ذلك، وأما الربُّ سبحانه فإنَّه غنيٌّ حميدٌ، لا حاجة له بطاعات العباد ودعواتهم، ولا يعود نفعُها إليه، وإنَّما هم الذين ينتفعون بها، ولا يتضرَّرُ بمعاصيهم وإنَّما هم الذين يتضرَّرون بها، ولهذا قال سبحانه: {**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ**}[(٤)]، وقال تعالى: {**مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا**}[(٥)]، وقال تعالى: {**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي**

(١) سورة يس، الآية: (٨٢).

(٢) سورة النحل، الآية: (٤٠).

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص:٢١٤ ـ ٢١٨).

(٤) سورة فاطر، الآيات: (١٥ ـ ١٧).

(٥) سورة الإسراء، الآية: (١٥).

لَشَدِيدٌ وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ}[1]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ثمَّ إنَّ الله تبارك وتعالى مع كمال غِناه عن عباده، وعن طاعاتهم ودعواتهم، وتوباتهم، فإنَّه يُحبُّ سماعَ دعاءِ الدَّاعينَ المخبتين، ورؤيةَ عبادةِ العابدين المطيعين، ويفرحُ بتوبة التائبين المُنيبين، بل إنَّه سبحانه يفرح بتوبة عبده أشدَّ من فرح مَن ضلَّت راحلتُه التي عليها طعامه وشرابه بفلاة من الأرض، وطلبها حتى أَيسَ منها، واستسلم للموت، ثمَّ غلبته عينُه فنام واستيقظ، وهي قائمةٌ عنده، وهذا أعلى ما يتصوَّرُه المخلوقُ من الفَرَحِ، فالله سبحانه يَفرحُ بتوبة عبادِه أَشَدَّ مِن فرحِ هذا بِلُقياه لراحلته، هذا مع غِناه سبحانه الكامل عن طاعات عباده وتوباتهم إليه، وذلك كلُّه إنَّما يعود نفعُه إليهم دونَه، وهذا من كمال جُودِه وإحسانِه إلى عباده ومحبَّته لنفعهم ودفع الضر عنهم، فهو يُحبُّ من عباده أن يعرفوه ويُحبُّوه ويتَّقوه ويخافوه ويُطيعوه ويتقرَّبوا إليه، ويُحبُّ أن يعلموا أنَّه يغفر الخطيئات ويجيب الدعوات ويُقيلَ العَثَرات ويُكفِّر السيِّئات ويرزق من يشاء بغير حساب.

فحريٌّ بعبد الله المؤمن إذا عرف كمالَ ربِّه وجلالَه، وكرمه وإحسانه، وفضلَه وجُودَه أن ينزل به جميع حاجاته، وأن يُكثر من دعائه ومناجاته، وأن لا يَقْنَط مِن رحمة ربِّه ولا ييأس من رَوْحِه فإنَّه لا يَيْأَسُ مِن رَوْحِ الله إلاَّ القومُ الكافرون.

فاللَّهمَّ وفِّقنا لِهُداك، وأعِنَّا على طاعتك، ولا تَكِلْنا إلى أنفسنا طرفة عين

---

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: (٧ ، ٨).

ولا أقل من ذلك.

* * *

٦٠ ـ إجابة الله سبحانه للدَّاعين

لا يزال الحديثُ ماضياً بنا عن بيان مكانةِ الدعاءِ وفضلِه ورِفعةِ شأنِه عند الله تبارك وتعالى؛ فإنَّ من فضل الدعاء أنَّ الله تبارك وتعالى
وعدَ مَن دعاه أن يجيب دعاءَه ويحقِّقَ رجاءَه، ويُعطيَه سُؤْلَه، قال الله تعالى: {**وَقَالَ رَبُّكُم ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**}[(١)]، وهذا من فضله تبارك وتعالى وكرمِه أنَّه ندبَ عبادَه إلى دعائه وتكفَّلَ لهم بالإجابة، وأحبَّ منهم أن يُكثروا من دعائه وسؤاله، كما قال سفيان الثوري رحمه الله:
« يا مَن أحبُّ عباده إليه مَن سأله فأكثر سؤاله، ويا مَن أبغضُ عباده إليه مَن لَم يسأله، وليس كذلك غيرُك يا ربِّ »، رواه ابن أبي حاتم وغيرُه[(٢)].

لقد ثبت عن النبي ﷺ أحاديثُ كثيرةٌ في الترغيب في الدعاء ببيان أنَّ الله تبارك يُعطي السائلين ويُجيب الدَّاعين، ولا يُخيب رجاء المؤمنين، فهو سبحانه حيِّيٌّ كريم، أكرمُ مِن أن يردَّ مَن دعاه أو يخيبَ من ناجاه أو يمنع مَن سأله.

روى أبو داود، والترمذي، وغيرُهم بإسنادٍ جوَّده الحافظ في الفتح عن سلمان الفارسي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: « إنَّ اللهَ حَيِيٌّ كريمٌ يستحيي مِن عبده إذا رفع يديه إليه أن يردَّهما صِفْراً »[(٣)]، أي: خالية.

(١) سورة غافر، الآية: (٦٠).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٨٥).
(٣) سنن أبي داود (رقم:١٤٨٨)، وسنن الترمذي (رقم:٣٥٥٦)، وصحيح ابن حبان =

وفي حديث النزول الإلهي يقول ﷺ: « ينزل ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثُلث الليل الآخر فيقول: مَن يدعوني فأستجيب له، مَن يسألني فأعطيَه، مَن يستغفرني فأغفرَ له »[(١)]، وهو حديث متواتر رواه عن النبيِّ ﷺ جمعٌ من الصحابة بلغ عددُهم ثمانية وعشرين صحابياً.

وجاء في الحديث القدسي في بيان منزلة أولياء الله المتقين عند الله، أنَّ اللهَ تبارك وتعالى يقول: « مَن عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ ممَّا افترضتُه عليه، وما يزال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنتُ سَمْعَه الذي يَسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويدَه التي يَبطِش بها، ورجلَه التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينَّه ولئن استعاذ بي لأعيذنَّه ... »، رواه الإمام البخاري في صحيحه[(٢)].

إنَّ هذه الأحاديث وما جاء في معناها تدلُّ أبين دلالة على أنَّ الله تبارك وتعالى لا يردُّ مَن سأله من عباده المؤمنين، ولا يخيب مَن رجاه، لكن قد استُشكل هذا، كما ذكر الحافظ ابن حجر بأنَّ جماعةً من العُبَّاد والصُلحاء دَعَوا وبالغوا ولَم يُجابوا، قال رحمه الله: « والجواب أنَّ الإجابةَ تتنوَّع، فتارة يقع المطلوب بعينه على الفور، وتارة يقع ولكن يتأخَّر لحكمةٍ، وتارة قد تقع الإجابةُ ولكن بغير عين المطلوب حيث لا يكون في المطلوب مصلحةٌ ناجزةٌ،

(رقم:٨٧٦)، وفتح الباري (١١/ ١٤٣).

(١) صحيح البخاري (رقم:١١٤٥)، (٦٣٢١)، (٧٤٩٤)، وصحيح مسلم (رقم:٧٥٨).

(٢) صحيح البخاري (رقم:٦٥٠٢).

وفي الواقع مصلحةٌ ناجزةٌ أو أصلحُ منها »[١]، وقال رحمه الله: « إنَّ كلَّ داعٍ يُستجاب له، لكن تتنوَّع الإجابةُ فتارة تقع بعين ما دعا به وتارة بعِوض »[٢]، وقد ورد في هذا المعنى الذي ذكره رحمه الله أحاديث عديدة، منها:

ما رواه الترمذي، والحاكم، وصححه الحافظ ابن حجر من حديث عُبادة بن الصامت رضي الله عنه رفعه: « ما على الأرض مسلمٌ يدعو بدعوة إلاَّ أتاه الله إيَّاها أو صرف عنه من السوء مثلَها »[٣].

وروى الإمام أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، والحاكم، وغيرهم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: « ما مِن مسلمٍ يدعو بدعوةٍ ليس فيها إثمٌ ولا قطيعةُ رحِم إلاَّ أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إمَّا أن يُعجِّل له دعوتَه، وإمَّا أن يدَّخِرها له في الآخرة، وإمَّا أن يصرفَ عنه من السوء مثلَها، قالوا: يا رسول الله إذاً نُكثر، قال: الله أكثر »[٤].

فقد أخبر الصادقُ المصدوق في هذه الأحاديث أنَّه لا بدَّ في الدعوةِ الخالية من العدوان من إعطاء السُّؤل معجَّلاً أو مثلِه من الخير مؤجَّلاً أو يصرفُ عنه من السوء مثله، وبهذا يتبيَّن أنَّ إجابةَ الداعي في سؤاله أعمُّ من إعطائه عينَ المسؤول.

فهذا هو جواب الاستشكال السابق، وقد ذكر أهل العلم أيضاً جوابين

---

(١) فتح الباري (١١/ ٣٤٥).
(٢) فتح الباري (١١/ ٩٥ ـ ٩٦).
(٣) سنن الترمذي (رقم:٣٥٧٣)، فتح الباري (١١/ ٩٦).
(٤) المسند (٣/ ١٨)، والأدب المفرد (رقم:٧١٠)، والمستدرك (١/ ٤٩٣)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الأدب (رقم:٥٤٧).

آخرين:

أحدهما: أنَّ إجابةَ الداعي لَم تضمَّن عطيَّة السؤال مطلقاً، وإنّما تضمَّنت إجابة الداعي، والداعي أعمُّ من السائل، وإجابةُ الداعي أعمُّ من إعطاء السائل كما تقدَّم معنا في حديث النزول التفريق بينهما بقوله سبحانه: « مَن يدعوني فأستجيب له، مَن يسألني فأعطيه »، ففرق بين الداعي والسائل، وبين الإجابة والإعطاء، لكن الاستشكال مع هذه الإجابة قائمٌ من جهة أنَّ السائلَ أيضاً موعودٌ بالإعطاء كما في الحديث المتقدِّم.

الجواب الثاني: أنَّ الدعاءَ في اقتضائه الإجابة شأنه كسائر الأعمال الصالحة في اقتضائها الإثابة، فالدعاءُ سببٌ مقتضٍ لنيل المطلوب والسبب له شروط وموانع، فإذا حصلت شروطه وانتفت موانعه حصل المطلوب، وإلاَّ فلا يحصل ذلك المطلوب، كما هو الشأن في قبول الأعمال الصالحة والكلمات الطيِّبة، وللموضوع صلة.

٦١ ـ إجابة الدعاء موقوفةٌ على توفُّرِ شروطٍ وانتفاء موانع

تقدَّم معنا ذكرُ قول الله تبارك وتعالى: {وَقَالَ رَبُّكُم ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}[1]، وبيانُ ما فيه من دلالة على إجابة الله لِمَن دعاه، وتقدَّم معنا أيضاً استشكالُ بعض أهل العلم لذلك، بأنَّ بعضَ الداعين قد يدعو ويسأل اللهَ أموراً قد لا يرى أنَّه تحقَّق له شيءٌ منها أو تحقَّق له بعضُها دون بعض، وقد أجاب عن ذلك أهلُ العلم بأجوبةٍ عديدة تقدَّم ذكرُ ثلاثةٍ منها، إلاَّ أنَّ أحسنَ ما قيل في ذلك هو أنَّ الدعاءَ سببٌ مقتضٍ لنيل المطلوب، ونيل المطلوب له شروط وموانع، فإذا حصلت شروطُه وانتفت موانعُه تحقَّق المطلوبُ وإلاَّ فلا، كما هو الشأنُ في جميع الأعمال الصالحة والأذكار النافعة، لا تُقبل إلاَّ إذا استوفى المسلمُ شروطَها وابتعد عن موانع قبولها، أما إذا وُجد المانعُ وانتفى الشرط فإنَّ العملَ لا يُقبل.

والشأنُ في الدعاء كذلك، فإنَّ الدعاءَ في نفسه نافعٌ مفيدٌ، وهو مفتاحٌ لكلِّ خير في الدنيا والآخرة، لكنه يستدعي قوَّةَ هِمَّة الداعي وصحةَ عزيمَتِه وحسنَ قصدِه وبُعدَه عن الأمور التي تمنع من القبول.

قال ابن القيم رحمه الله: « فإنَّه ـ أي الدعاء ـ من أقوى الأسباب في دفعِ المكروه وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلَّف عنه أثرُه؛ إمَّا لضعفٍ في نفسه بأن يكون دعاءً لا يُحبُّه اللهُ لِمَا فيه من العدوان، وإمَّا لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيَّتِه عليه وقت الدعاءِ، فيكون بمنزلةِ القَوسِ الرَّخوِ جدًّا،

(١) سورة غافر، الآية: (٦٠).

فإنَّ السهمَ يخرج منه خروجاً ضعيفاً، وإمَّا لحصول المانع من الإجابة من أكل الحرام والظلمِ ورَيْنِ الذنوب على القلوب، واستيلاءِ الغفلةِ والشهوةِ واللَّهو وغلبتِها عليها، كما في مستدرك الحاكم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: « ادعوا اللهَ وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أنَّ اللهَ لا يَقبلُ دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ »[1]، فهذا دواءٌ نافع مزيلٌ للدَّاء، ولكنَّ غفلةَ القلب عن الله تُبطلُ قوَّتَه، وكذلك أكلُ الحرام يُبطلُ قوَّته ويُضعفها كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « يا أيُّها الناس، إنَّ اللهَ طيِّبٌ لا يقبل إلاَّ طيِّباً، وإنَّ اللهَ أَمَرَ المؤمنين بما أمر به المرسَلين، فقال: {**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**}[2]، وقال:{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**}[3]، ثمَّ ذَكرَ الرَّجلَ يُطيل السَّفر أشعث أغبر يَمدُّ يديه إلى السماء يا ربِّ يا ربِّ، ومطعمُه حرام، ومشربُه حرامٌ، وملبسُه حرام، وغُذِيَ بالحرام، فأنَّى يُستجاب لذلك »[4] »[5].

فأشار صلوات الله وسلامه عليه في هذا الحديث إلى آداب الدعاء وإلى الأسباب التي تقتضي إجابته وإلى ما يمنع من إجابته، والحديث فيه دلالةٌ عظيمةٌ وإشاراتٌ نافعةٌ في هذا الباب سيأتي بيانُها لاحقاً إن شاء الله.

(١) المستدرك (١/ ٤٩٣)، وهو في سنن الترمذي (رقم:٣٤٧٩)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (رقم:٢٤٥).
(٢) سورة المؤمنون، الآية: (٥١).
(٣) سورة البقرة، الآية: (١٧١).
(٤) صحيح مسلم (رقم:١٠١٥).
(٥) الجواب الكافي (ص:٩ ـ ١٠).

ومِمَّا يدلُّ على أنَّ الدعاءَ متوقِّفٌ في قبوله على وجود شروط وانتفاء موانع، ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: « يُستجاب لأحدكم ما لَم يعجَل، يقول: دعوتُ فلم يُستجب لي »[١].

وثبت في صحيح مسلم عنه رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: « لا يزال يُستجاب للعبد ما لَم يدعُ بإثمٍ أو قيطعةِ رحِم ما لَم يستعجل، قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال: يقول: قد دعوتُ، وقد دعوتُ فلم أَرَ يستجيبُ لي، فيَسْتَحْسِرُ عند ذلك، ويَدعُ الدعاءَ »[٢].

وفي المسند بإسناد جيِّد من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يزال العبدُ بخير ما لَم يستعجل، قالوا: يا رسول الله كيف يستعجل؟ قال: يقول: قد دعوتُ ربِّي فلم يستجب لي »[٣].

فاستعجالُ الإجابةِ آفةٌ من الآفات تمنع ترتُّبَ أثر الدعاء عليه، حيث إنَّ المستعجلَ عندما يستبطئ الإجابةَ يستحسرُ ويدعُ الدعاءَ، ويكون بذلك كما يقول ابن القيم رحمه الله: « بِمنزلةِ مَن بذرَ بذراً، أو غرَسَ غرساً فجعل يتعهده ويسقيه، فلمَّا استبطأ كمالَه وإدراكَه تركَه وأهمله »[٤].

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٦٣٤٠)، وصحيح مسلم (رقم:٢٧٣٥).
(٢) صحيح مسلم (رقم:٢٧٣٥).
(٣) المسند (٣/ ١٩٣، ٢١٠).
(٤) الجواب الكافي (ص:١٣).

كما أنَّ في قولِه ﷺ في الحديث المتقدم: « ما لَم يدْع بإثم أو قطيعة رحم » إشارةً أخرى إلى مانعٍ من موانع قبول الدعاء، وهو أن لا يدعو الإنسانُ بإثمٍ أو معصيةٍ أو سوءٍ يلحقه أو يلحق غيره، وهذا من حكمة الله تبارك وتعالى ولُطفِه بخَلقِه، ولو أنَّه سبحانه أجاب العبدَ في كلِّ ما يريد ويطلب لأدَّى ذلك إلى وقوع مفاسد عديدة له أو لغيره، كما قال سبحانه: {**وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ**}(١)، وقال تعالى: {**وَلَوْ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**}(٢)، وقال تعالى: {**وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً**}(٣).

وبهذا يُعلم أنَّ النصوصَ قد دلَّت على أنَّ إجابةَ الدعاء موقوفةٌ على تحقُّق شروط وانتفاء موانع، وقد أشرتُ إلى بعضها، وسيأتي ذكرُ جملةٍ منها إن شاء الله.

---

(١) سورة يونس، الآية: (١١).
(٢) سورة المؤمنون، الآية: (٧١).
(٣) سورة الإسراء، الآية: (١١).

٦٢ ـ أربعة أسباب لإجابة الدعاء

إنَّ من الأحاديث العظيمة الجامعة لذكرِ آداب الدعاء وشروطِه وموانعِ قبوله ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إنَّ اللهَ تعالى طيِّبٌ لا يقبل إلاَّ طيِّباً، وإنَّ اللهَ تعالى أمَرَ المؤمنين بما أمر به المرسَلين، فقال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}**[(١)]، وقال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا للهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}**[(٢)]، ثمَّ ذَكرَ الرَّجلَ يُطيل السَّفر أشعث أغبر يَمدُّ يديه إلى السماء يا ربِّ يا ربِّ، ومطعمُه حرام، ومشربُه حرامٌ، وملبسُه حرام، وغُذِيَ بالحرام، فأنَّى يُستجاب لذلك »[(٣)].

هذا الحديث يُعدُّ من جوامعِ كَلِم الرسول ﷺ، وقد جمع فيه صلوات الله وسلامه عليه جملةً طيِّبةً من آداب الدعاء وشروط قبوله، والأمور المانعة من القبول، وقد بدأه عليه الصلاة والسلام بالإشارةِ إلى خطورة أكلِ الحرام، وأنَّه مانعٌ من موانع قبول الدعاء، ومفهوم المخالفة لذلك أنَّ إطابةَ المطعم سببٌ من أسباب قبول الدعاء، كما قال وهبُ ابن منبِّه رحمه الله: « مَن سرَّه أن يستجيب الله دعوتَه فليُطيب طُعْمَتَه »، ولَمَّا سئل سعدُ بن أبي وقاص رضي الله عنه تستجاب دعوتك من بين أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال: « ما رفعتُ

(١) سورة المؤمنون، الآية: (٥١).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٧١).

(٣) صحيح مسلم (رقم:١٠١٥).

إلى فمي لُقمةً إلاَّ وأنا عالِمٌ من أين مجيئُها ومن أين خرجت »[١].

أمَّا من استمرأ ـ والعياذ بالله ـ أكلَ الحرام وشربه ولبسَه والتغذي به، فإنَّ فعلَه هذا يكون سبباً موجباً لعدم إجابةِ دعوته، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في الحديث: « فأنّى يُستجاب لذلك »، أي كيف يُستجاب له، فهو استفهامٌ وقع على وجه التعجب والاستبعاد، وقد يكون أيضاً ارتكابُ المحرَّمات الفعلية مانعاً من الإجابةِ، وكذلك تركُ الواجبات، كما قال بعض السلف: « لا تستبطئ الإجابةَ وقد سددتَ طُرقَها بالمعاصي »[٢].

ولهذا فإنَّ توبةَ العبد إلى ربِّه، وبُعدَه عن معاصيه، وإقبالَه على طاعته وعبادته، وإطابتَه لمطعمه ومشربِه وملبسه، وانكسارَه بين يديه، وذُلَّه وخضوعَه له سبحانه كلُّ ذلك من موجبات القبول ومن أسباب إجابةِ الدعاء، وأضدادُ ذلك من موجبات الردِّ.

لقد ذكر رسول الله ﷺ في الحديث المتقدِّم أربعةَ أسباب عظيمةٍ لقبولِ الدعاء تقتضي إجابتَه:

أحدها: إطالة السفر، والسفر بمجرَّده يقتضي إجابةَ الدعاء، كما في حديث أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ: « ثلاثُ دعوات مستجابات لا شكَّ فيهنَّ: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد لولده »، رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي بإسناد حسن، ولفظ الترمذي: « ودعوة الوالد على ولده

---

(١) أوردهما ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٢٧٥).
(٢) شعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٥٤).

»[١]، ومتى طال السفرُ كان أقربَ إلى إجابةِ الدعاء؛ لأنَّه مظنَّةُ حصولِ انكسار النفس بطول الغُربةِ عن الأوطان وتحملِ المشاق، والانكسارُ من أعظم أسباب إجابة الدعاء.

الثاني: أن يكون متواضِعاً مُتذلِّلاً مستكيناً، فهذا أيضاً من مقتضيات الإجابة كما في الحديث المشهور عن النبي ﷺ: « رُبَّ أشعث أغبَر مدفوع بالأبواب، لو أَقسمَ على الله لأبرَّه »[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما لَمَّا سُئل عن صلاة رسول الله ﷺ في الاستسقاء؟ قال: « خرج رسول الله ﷺ متبذِّلاً متواضعاً مُتضرِّعاً ... »، الحديث رواه أبو داود، وغيرُه[٣].

الثالث: مدُّ اليدين إلى السماء، وهو مِن آداب الدعاء التي يُرجى بسببها إجابته، ففي سنن أبي داود وغيره عن سلمان الفارسيِّ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: « إنَّ اللهَ حييٌّ كريم، يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردَّهما صِفْراً خائبتين »[٤].

الرابع: الإلحاح على الله بتكرير ذكر ربوبيَّته، وهو من أعظم ما يطلب

---

(١) سنن أبي داود (رقم:١٥٣٦)، وسنن ابن ماجه (رقم:٣٨٦٢)، وسنن الترمذي (رقم:١٩٠٥)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (رقم:٥٩٦).

(٢) صحيح مسلم (٢٦٢٢).

(٣) سنن أبي داود (رقم:١١٦٥)، وسنن الترمذي (رقم:٥٥٨)، وحسَّنه العلاَّمة الألباني في الإرواء (٣/ ١٣٣).

(٤) سنن أبي داود (رقم:١٤٨٨)، وسنن الترمذي (رقم:٣٥٥٦)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (رقم:١٧٥٣).

به إجابة الدعاء، روي عن عطاء أنَّه قال: « ما قال عبدٌ يا رب يا رب ثلاث مرَّات إلاَّ نظر اللهُ إليه، فذُكر ذلك للحَسن فقال: أما تقرؤون القرآن؟ ثمَّ تلا قوله تعالى: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ المِيعَادَ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنكُمْ}[(١)] »[(٢)].

ولهذا فإنَّ غالبَ الأدعيةِ المذكورةِ في القرآن مفتتحةٌ باسم الربِّ، ولهذا لَمَّا سُئل مالك رحمه الله عمَّن يقول في الدعاء يا سيِّدي، قال:
« يقول: يا ربِّ كما قالت الأنبياء في دعائهم »[(٣)].

فهذه أربعة أسباب عظيمةٍ لإجابة الدعاء انتظمها قول النبي ﷺ في ذلك الرجل « يطيل السفر، أشعث أغبر، يمدُّ يديه إلى السماء، يا رب يا رب »، ومع ذلك استبعد صلوات الله وسلامه عليه إجابةَ دعائه؛ لأنَّ مطعمَه حرامٌ وملبسَه حرامٌ، ومَشربَه حرامٌ، وغُذي بالحرام، فكيف يُستجاب لِمَن كانت هذه حاله.

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: (١٩١ ـ ١٩٥).
(٢) حلية الأولياء (٣/ ٣١٣).
(٣) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص:٩٨ ـ ١٠١).

ولهذا فليتق اللهَ عبدُ الله المؤمن في طعامه وشرابه وسائر شؤونه، وليَستعِن بالله على ذلك، فالتوفيق بيده وحده، فنسأله سبحانه أن يرزُقَنا الرزقَ الطيب الحلال، والدعوةَ الصالحة المستجابة، إنَّه نِعم المرجو ونعم المعين.

❊ ❊ ❊

٦٣ ـ الدعاءُ حقٌّ خالصٌ لله

لقد مرَّ معنا قولُ النبي ﷺ: « الدعاء هو العبادة، ثمَّ قرأ: {**وَقَالَ رَبُّكُم ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**}[1] »[2]، ولا ريبَ أنَّ في هذا الحديث أبلغَ دلالة على عِظم شأن الدعاء، وأنَّه نوعٌ من أنواع العبادة، ولا يخفى على كلِّ مسلم أنَّ العبادةَ حقٌّ خالصٌ لله وحده، فكما أنَّ الله تبارك وتعالى لا شريك له في الخلق والرزق والإحياء والإماتة والتصرُّف والتدبير، فكذلك لا شريك له في العبادة بجميع أنواعها ومنها الدعاء، فمَن دعا غير الله عزَّ وجلَّ طالباً منه أمراً من الأمور التي لا يقدرُ عليها إلاَّ الله فقد عَبَدَ غيرَ الله وأَشركَ معه غيرَه، والله تبارك وتعالى لَم يَبعث رُسلَه ولم يُنزل كتبَه إلاَّ لدعوةِ الناس إلى الإخلاص في العبادة والتحذير من صرفِها لغير الله، قال الله تعالى: {**وَمَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا إلَـهًا وَاحِداً لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُو سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**}[3]، وقال تعالى: {**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**}[4]، وقال تعالى: {**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**}[5]، وقال تعالى: {**أَلاَ للهِ الدِّينُ الخَالِصُ**}[6]، والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ.

---

(١) سورة غافر، الآية: (٦٠).

(٢) المسند (٤/ ٢٦٧)، وسنن الترمذي (رقم:٣٢٤٧)، والأدب المفرد (رقم:٧١٤)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الأدب المفرد (رقم:١٧٥٧).

(٣) سورة التوبة، الآية: (٣١).

(٤) سورة البينة، الآية: (٥).

(٥) سورة الذاريات، الآية: (٥٦).

(٦) سورة الزمر، الآية: (٣).

ولهذا فقد تواترت الأدلةُ وتضافرت النصوص في الكتاب والسنة على التحذير من صرفِ الدعاء لغير الله والنهي عن ذلك وذمِّ فاعله بأشدِّ أنواع الذمِّ، حتى صار ذلك من ضروريات هذا الدِّين التي لا يرتابُ فيها كلُّ مَن فهم كتاب الله وسنَّةَ رسوله ﷺ، وقد تنوَّعت دلالاتُ نصوص القرآن الكريم المشتملةِ على ذلك وتكرَّرت في مواطن كثيرة، وذلك لشدَّةِ خطورةِ دعاء غير الله، ولكونه أكثر أنواع الشرك وقوعاً، حتى قال بعضُ أهل العلم: « لا نعلم نوعاً من أنواع الكفر والرِّدة ورد فيه من النصوص مثل ما ورد في دعاء غير الله بالنهي عنه والتحذير من فعلِه والوعيد عليه »[1].

فمِن هذه النصوص قول الله تبارك وتعالى: {**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**}[2]، وقال تعالى: {**قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى**}[3]، وقال تعالى: {**هُوَ الحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ**}[4].

قال الشوكاني رحمه الله في رسالةٍ له في وجوب توحيد الله عزَّ وجلَّ بعد أن أورد طرفاً من هذه النصوص: « فهذه الآياتُ البيِّنات دلَّت على أنَّ الدعاءَ مطلوبٌ لله عزَّ وجلَّ من عباده، وهذا القدر يكفي في إثبات كونه عبادة، فكيف إذا انضمَّ إلى ذلك النهيُ عن دعاء غير الله سبحانه، قال الله عزَّ

(١) النبذة الشريفة النفيسة في الردِّ على القبوريِّين، للشيخ حمد بن ناصر بن عثمان آل معمر (ص:٣٧).
(٢) سورة الأعراف، الآية: (٥٥ ـ ٥٦).
(٣) سورة الإسراء، الآية: (١١٠).
(٤) سورة غافر، الآية: (٦٥).

وجلَّ: {فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً}[١]، وقال تعالى: {لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ}[٢]، وقال سبحانه ناعياً على مَن يدعو غيرَه ضارباً له الأمثال: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ}[٣]، وقال تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ}[٤].

فكيف إذا صرَّح القرآنُ الكريمُ بأنَّ الدعاءَ عبادةٌ تصريحاً لا يبقى عنده ريبٌ لمرتابٍ، قال الله تعالى: {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}[٥]، فقد طلبَ اللهُ سبحانه من عباده في هذه الآيةِ أن يدعوه، وجعلَ جزاءَ الدعاء له منهم الإجابةَ منه فقال: {أَسْتَجِبْ لَكُمْ}، ولهذا جزمه لكونه جواباً للأمر، ثمَّ توعَّدهم على الاستكبار عن هذه العبادة ـ أعني الدعاءَ ـ بما صرَّح به في آخر الآية وجعل العبادةَ مكان الدعاء تفسيراً له وإيضاحاً لمعناه، وبياناً لعباده بأنَّ هذا الأمرَ الذي طلبه منهم وأرشدهم إليه هو نوعٌ من عبادته التي خصَّ بها نفسَه وخلق لها عباده كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ}[٦]،

---

(١) سورة الجنّ، الآية: (١٨).

(٢) سورة الرعد، الآية: (١٤).

(٣) سورة الأعراف، الآية: (١٩٤).

(٤) سورة سبأ، الآية: (٢٢).

(٥) سورة غافر، الآية: (٦٠).

(٦) سورة الذاريات، الآية: (٥٦).

ومع هذا كلِّه فقد جاءت السنة المطهرةُ بما يدلُّ أبلغ دلالة على أنَّ الدعاءَ من أكمل أنواع العبادة ... »[(١)]، ثمَّ ذكر رحمه الله ما يدل على ذلك من السنة.

إنَّ الواجبَ على كلِّ مسلمٍ أن يدركَ خطورةَ الأمر، وأن يعلمَ أنَّ هذا حقٌّ خالصٌ لله عزَّ وجلَّ لا يجوز أن يُشرَك معه فيه غيرُه، وكيف يُشرَك المخلوقُ الضعيفُ العاجزُ بالملِكِ العظيم الذي بيده أزمَّةُ الأمور، المتفرِّدُ بإجابةِ الدعاءِ وكشف الكروب، الذي له الأمرُ كلُّه، وبيده الخيرُ كلُّه، وإليه يرجعُ الأمرُ كلُّه، لا مُعقِّب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه، الذي ما تعلَّق به ضعيفٌ إلاَّ أفاده القوَّةَ، ولا ذليلٌ إلاَّ أناله العزَّةَ، ولا فقيرٌ إلاَّ أعطاه الغنى، ولا مستوحشٌ إلا آنسَه، ولا مغلوبٌ إلاَّ أيَّده ونصره، ولا مضطرٌ إلاَّ كشف ضُرَّه، ولا شريدٌ إلاَّ آواه، فهو سبحانه الذي يجيب المضطرِّين، ويغيثُ الملهوفين، ويُعطي السائلين، لا مانعَ لما أعطى، ولا مُعطي لما منع، لا إله إلاَّ هو الملكُ الحقُّ المبين.

وقد أجمع أهلُ العلم على أنَّ مَن صرف شيئاً من الدعاء لغير الله فهو مشركٌ بالله العظيم، ولو قال لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله، ولو صلَّى وصام؛ إذ شرطُ الإسلام أن لا يُعبدَ إلاَّ الله، فليحذر مَن يريد لنفسه الفوزَ والسعادةَ مِن هذا الإثم المبين والخطرِ العظيم.

نسأل الله الكريم أن يُجنِّبنا والمسلمين ذلك، وأن يقينا من الزلل في القول والعمل، إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه.

---

(١) رسالة في وجوب توحيد الله عزَّ وجلَّ، للشوكاني (ص:٥٦ ـ ٥٨).

* * *

٦٤ ـ أهميَّةُ اتباع السنة في الدعاء

لقد تقدَّم معنا الإشارةُ إلى جملةٍ من الضوابطِ المهمَّةِ والشروطِ العظيمة التي ينبغي أن يتقيَّدَ بها المسلمُ في الدعاءِ، وأهمُّها هو إخلاصُه لله وحده لا شريك له؛ إذ الدعاءُ نوعٌ من أنواعِ العبادة وفردٌ من أفرادها، والعبادةُ حقٌّ لله عزَّ وجلَّ لا شريك له فيها، فهو سبحانه المعبود بحقٍّ ولا معبود بحقٍّ سواه، ولذا فإنَّ أخطرَ جانبٍ يُخلُّ به في الدعاءِ هو أن يُصرف لغير الله بأن يُجعل لغيره شركةٌ فيه، والله يقول: {**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللهِ مَن لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ**}(١)، ويقول تعالى: {**وَأَنَّ المَسَاجِدَ للهِ فَلاَ تَدْعُو مَعَ اللهِ أَحَداً**}(٢)، والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ، وقد مضى معنا طرفٌ منها.

وكما أنَّ الدعاءَ يُشترطُ فيه إخلاصُه لله عزَّ وجلَّ ليكون مقبولاً عنده، فكذلك يُشترطُ فيه المتابعةُ للرسول الكريم ﷺ؛ إذ إنَّ هذين الأمرين ـ أعني الإخلاصَ والمتابعةَ ـ هما شرطَا قبول الأعمال كلِّها، فلا قبول لأيِّ عملٍ من الأعمال إلاَّ بهما، كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله: « دين الله أخلصُه وأصوبُه، قيل: يا أبا علي، ما أخلصُه وأصوبُه؟ فقال: إنَّ العملَ إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لَم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لَم يُقبل،

---

(١) سورة الأحقاف، الآيات: (٥ ، ٦).

(٢) سورة الجن، الآية: (١٨).

حتى يكون خالصاً صواباً، والخالصُ ما كان لله، والصواب ما كان على السنة »[1].

وقد جاءت السنةُ النبوية بالهدى المبين والسَنن القويم والصراط المستقيم، الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم، سواءً في الدعاء أو في غيره من الأعمال التي يُقصد بها التقرُّبُ إلى الله، فالسنةُ قد دلَّت على جنس المشروع والمستحبِّ في ذكر الله ودعائه كسائر العبادات، فقد بيَّن النبي الكريم ﷺ لأمَّته ما ينبغي لهم أن يقولوه من ذِكر ودعاءٍ في الصباح والمساء، وفي الصلوات وأعقابِها، وعند دخول المسجد، وعند النوم، وعند الانتباه منه، وعند الفَزَع فيه، وعند تناول الطعام وبَعده، وعند ركوب الدَّابَّةِ، وعند السفر، وعند رؤية ما يُحبُّه المرءُ، وعند رؤيةِ ما يكره، وعند المصيبة، وعند الهمِّ والحزن، أو غير ذلك من أحوال المسلم وأوقاته المختلفة.

كما أنَّه ﷺ بيَّن مراتبَ الأذكار والأدعية وأنواعَها وشروطَها وآدابَها أتمَّ البيان وأوفاه وأكمَلَه، وتركَ أمَّتَه في هذا الباب وفي جميع أبواب الدِّين على محجَّةٍ بيضاء وطريقٍ واضحةٍ لا يزيغُ عنها بعده إلاَّ هالكٌ، فالمشروع للمسلم هو أن يذكرَ اللهَ بما شرع، وأن يدعوه بالأدعيةِ المأثورة؛ لأنَّ الذِّكرَ والدعاءَ عبادةٌ، والعبادةُ مبناها على الاتِّباع للرسول الكريم ﷺ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « لا ريب أنَّ الأذكارَ والدعواتِ من أفضل العبادات، والعباداتُ مبناها على التوقيف والاتِّباع، لا على الهوى والابتداع، فالأدعيةُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتابه الإخلاص والنية (ص:٥٠ ـ ٥١)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٩٥).

والأذكارُ النبويَّةُ هي أفضلُ ما يتحرَّاه المتحرِّي من الذِّكر والدعاء، وسالكُها على سبيل أمانٍ وسلامة ... وما سواها من الأذكار قد يكون محرَّماً، وقد يكون مكروهاً، وقد يكون فيه شركٌ مِمَّا لا يهتدي إليه أكثرُ الناس، وهي جملةٌ يطول تفصيلها.

وليس لأحدٍ أن يَسُنَّ للناسِ نوعاً من الأذكار والأدعيةِ غير المسنون، ويجعلَها عبادةً راتبةً يواظب الناسُ عليها كما يُواظبون على الصلوات الخمس، بل هذا ابتداعُ دينٍ لَم يأذن الله به، بخلاف ما يدعو به المرءُ أحياناً من غير أن يجعله للناسِ سنة، فهذا إذا لَم يُعلم أنَّه يتضمَّن معنى محرَّماً لَم يُجزم بتحريمه، لكن قد يكون فيه ذلك، والإنسان لا يَشعرُ به، وهذا كما أنَّ الإنسانَ عند الضرورةِ يدعو بأدعيةٍ تُفتحُ عليه ذلك الوقت فهذا وأمثالُه قريب.

وأمَّا اتِّخاذُ وِرْدٍ غير شرعيٍّ، واستنانُ ذِكرٍ غير شرعيٍّ فهذا مِمَّا يُنهى عنه، ومع هذا ففي الأدعيةِ الشرعية والأذكار الشرعيةِ غايةُ المطالبِ الصحيحةِ، ونهايةُ المقاصدِ العلية، ولا يَعدلُ عنها إلى غيرها من الأذكارِ المُحدَثةِ المبتَدَعة إلاَّ جاهلٌ أو مفرِّطٌ أو مُتعدٍّ »[1]. اهـ كلامه رحمه الله.

ومع أنَّ الأدعيةَ المأثورةَ مشتملةٌ على جِماع الخير وتمامِ الأمرِ ونهايةِ المقاصدِ العليَّة وأشرفِ المطالبِ الصحيحةِ إلاَّ أنَّك ترى في كثيرٍ من الناس مَن يعدِلُ عنها ويرغَبُ في غيرها، بل ولربَّما فضَّل غيرَها عليها، ومِن هؤلاء

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٥١٠ ـ ٥١١).

مَن يجعلُ لنفسه وِرْداً خاصًّا قاله بعضُ الشيوخ، فيلتزمُه ويحافظُ عليه ويعظِّمُ من شأنه، ويقدِّمُه على الأدعية المأثورة، والأورادِ الصحيحةِ الثابتة عن الرسول الكريم ﷺ، وهذا من أشدِّ الناس نكوباً عن الجادَّة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: « ومِن أشدِّ الناس عَيباً مَن يتَّخذُ حزباً ليس بمأثور عن النبي ﷺ وإن كان حزباً لبعض المشايخ، ويَدَعُ الأحزابَ النبويَّة التي كان يقولها سيِّدُ بني آدم، وإمامُ المرسَلين، وحجَّةُ الله على عباده »[(١)].

وقال العلاَّمة المعلِّمي رحمه الله: « ... وما أخسر صفقة مَن يَدَع الأدعيةَ الثابتة في كتاب الله عزَّ وجلَّ، أو في سنَّة رسول الله ﷺ فلا يكاد يدعو بها، ثمَّ يعمدُ إلى غيرِها فيَتحرَّاه ويُواظبُ عليه، أليس هذا من الظلم والعدوان؟ »[(٢)].

فالخيرُ كلُّ الخير في اتِّباع الرسول الكريم ﷺ، والاهتداءِ بهديه وترسمِ خُطاه، ولزوم نهجه، فهو القدوةُ لأمَّته، والأُسوةُ الحسنةُ لهم، وقد كان أكملَ الناس ذكراً لله، وأحسنَهم قياماً بدعائه سبحانه.

ولهذا فإنَّ مَن اجتمع له في هذا الباب لزومُ الأذكار النبوية والأدعية المأثورة مع فهم معانيها ومدلولاتها، وحضورِ القلب عند الذكرِ والدعاءِ بها، فقد كمل نصيبُه من الخيرِ وعظم حظّه من السداد.

ولهذا أيضاً اعتنى أهل العلم بجمع الأدعية المأثورة لتكون بين أيدي الناس وفي متناولهم، فيستغنوا بها عن الأوراد المُحدَثة والأدعية المبتدعة، قال

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٢٣٢).
(٢) كتاب العبادة للمعلمي (ص:٥٢٤ ـ النسخة الخطية).

الإمامُ أبو القاسم الطبراني رحمه الله في مقدِّمة كتابه الدعاء: « هذا كتابٌ أَلَّفته جامعاً لأدعية رسول الله ﷺ حداني على ذلك أنِّي رأيتُ كثيراً من الناس قد تمسَّكوا بأدعية سجعٍ، وأدعيةٍ وُضعت على عدد الأيام ممَّا أَلَّفها الورَّاقون لا تُروى عن رسول الله ﷺ ولا عن أحدٍ
من أصحابه ولا عن أحدٍ من التابعين بإحسان، مع ما روي عن
رسول الله ﷺ من الكراهية للسجعِ في الدعاء والتعدِّي فيه، فألَّفتُ هذا الكتابَ بالأسانيد المأثورة عن رسول الله ﷺ ... »[1]، إلى آخر كلامِه رحمه الله.

ومن المؤلفات الجيِّدة في هذا الباب: « الأذكار » للنووي، و« الكلم الطيِّب » لابن تيمية، و« الوابل الصيب » لابن القيم، فحريٌّ بالمسلم أن يُفيدَ من مثل هذه الكتب القيِّمة، المبنيَّة على ما أُثر عن رسول الله ﷺ، ويَدَع ما سوى ذلك مِمَّا أحدثه الورَّاقون، وأنشأه المتكلِّفون، رزقنا الله جميعاً لزومَ السنَّة واقتفاء آثار خير الأمة صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) الدعاء للطبراني (٢/ ٧٨٥).

٦٥ ـ التحذيرُ من الأدعية المُحدَثة

تقدَّم الكلامُ حول أهميَّة التقيُّد بالسنة في الدعاء، وضرورة لزومِ هَدي النبي ﷺ فيه؛ لأنَّ الدعاءَ عبادةٌ، والعبادةُ مبناها على التوقيف والاتباع، لا على الهوى والابتداع، وسبق الإشارةُ إلى أنَّ السنةَ قد جاء فيها بيانُ الدعاءِ وجميعُ ما يتعلَّق به بياناً وافياً شافياً لا مزيد عليه بذكر أنواعه وشروطه وآدابه وأوقاته وغير ذلك ممَّا يتعلَّق به.

ولهذا فإنَّ المتأكَّدَ على كلِّ مسلمٍ في هذا البابِ العظيمِ أن يجتهدَ في طلب هدي النبيِّ ﷺ في الدعاء، وأن يحرصَ أشدَّ الحِرصِ على معرفة سبيله فيه؛ ليقتفي آثاره، وليسير على نهجه، وليلزمَ طريقته صلوات الله وسلامه عليه.

ولا يجوز لمسلم أن يلتزم أدعيةً راتبةً أو مُخصَّصة بأوقات معيَّنة أو بصفات معيَّنة سوى ما ورد من ذلك في سنة الرسول الكريم ﷺ، أمَّا الأدعيةُ العارضةُ التي تحصلُ من المسلم بسبب أمورٍ قد تعرضُ له، فله أن يسألَ اللهَ ما شاء فيما لا يتنافى مع الشرع.

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « الأذكار والدعوات من أفضل العبادات، والعباداتُ مبناها على الاتباع، وليس لأحد أن يسُنَّ منها غيرَ المسنون، ويجعلَه عادةً راتبةً يواظب الناسُ عليها، بل هذا ابتداعُ دينٍ لم يأذن به الله، بخلاف ما يدعو به المرء أحياناً من غير أن يجعله سنة »[1] اهـ.

---

(١) مجموع مؤلفات شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ((ملحق المصنفات)) (ص:٤٦) في ضمن فوائد عديدة لخَّصها رحمه الله من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

ولهذا نجد أنَّ الصحابةَ رضي الله عنهم بادروا إلى إنكار تخصيص هيئات معيَّنة للأذكار والأدعيةِ أو أوقات معيَّنة أو نحو ذلك ممَّا لَم يرِد به الشرعُ ولم تثبت به السنةُ، ومِن ذلكم إنكارُ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه على أولئك النفر الذين تحلَّقوا في المسجد وفي أيديهم حصًى يُسبِّحون بها ويُهلِّلون ويُكبِّرون بطريقة مُحدَثةٍ وصفةٍ مبتدعةٍ، لَم تكن موجودةً على عهد رسول الله ﷺ، فبادرهم بالإنكار ونهاهم عن ذلك أشدَّ النهي، وبيَّن لهم خطورةَ ذلك وسوءَ مغَبَّتِه عليهم، روى الإمام الدارمي رحمه الله بإسنادٍ جيِّد عن عمرو بن سلمة الهمداني قال: « كنّا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة، فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد، فجاءنا أبو موسى الأشعري فقال: أخَرَج إليكم أبو عبد الرحمن بعدُ؟ قلنا: لا، فجلس معنا حتى خرج، فلمّا خرج قُمنا إليه جميعاً، فقال له أبو موسى: يا أبا عبد الرحمن! إنّي رأيتُ في المسجد آنفاً أمراً أنكرتُه، ولَم أَرَ والحمد لله إلا خيراً، قال: فما هو؟ فقال: إن عِشْتَ فستراه، قال: رأيت في المسجد قوماً حِلَقاً جلوساً ينتظرون الصلاةَ، في كلِّ حَلْقَةٍ رَجلٌ، وفي أيديهم حصى، فيقول: كبِّروا مائة! فيكبّرون مائة، فيقول: هلِّلوا مائة! فيهلِّلون مائة، ويقول: سبِّحوا مائة! فيسبّحون مائة، قال: فماذا قلتَ لهم؟ قال: ما قلتُ لهم شيئاً انتظارَ رأيك قال: أفلا أمرتَهم أن يَعُدّوا سيئاتهم وضَمنتَ لهم أن لا يضيع من حسناتهم شيء. ثمَّ مضى ومضينا معه حتى أتى حلقة من تلك الحلق، فوقف عليهم، فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا: يا أبا
عبد الرحمن! حصى نَعُدُّ به التكبير والتهليل والتسبيح، قال: فعدّوا سيئاتكم فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء؛ وَيْحَكم يا أمّة محمد! ما أسرع

هلكتكم، هؤلاء صحابة نبيّكم ﷺ متوافرون، وهذه ثيابه لَم تَبْلَ، وآنيتُه لَم تكسر، والذي نفسي بيده إنّكم لعلى ملّة هي أهدى من ملّة محمد؟ أو مفتتحوا باب ضلالة؟ قالوا: والله، يا أبا
عبد الرحمن! ما أردنا إلا الخير، قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه »[١].

فتأمّل كيف أنكر عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه على أصحاب الحلقات هؤلاء، مع أنّهم في حلْقة ذِكرٍ ومجلسِ عبادة لما كان ذكرُهم لله وتعبُّدُهم له بغير الوارد المشروع، وفي هذا دلالةٌ على أنَّه ليس العبرة في العبادة والدعاءِ والذِّكر كثرتَه، وإنَّما العبرةُ في موافقته للسنَّةِ، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه في مقام آخر: « اقتصادٌ في سنة خيرٌ من اجتهاد في بدعة »[٢]، وابن مسعود رضي الله عنه لَم يُنكر عليهم ذكرَهم لله واشتغالَهم بذلك، وإنَّما أنكر عليهم مفارقتهم للسنة في صفة أدائه وكيفيةِ القيام به مع أنَّ الألفاظَ التي كانوا يذكرون الله بها ألفاظٌ صحيحةٌ وردت بها السنة، فكيف الحال بمَن ترك السنة في ذلك جملةً وتفصيلاً في الألفاظ وصفة الأداء وغير ذلك، كالأوراد التي يقرؤها بعض الناس ممَّا كتبه بعضُ أشياخ الطرق الصوفية بصِيَغٍ مختلفةٍ وأساليبَ متنوِّعةٍ ممَّا هو متضمِّنٌ لأنواعٍ من الباطل وصنوفٍ من الضلالِ كالتوسُّلات الشركية والألفاظ البِدعيةِ والأذكار المُحدَثةِ، ويُرتِّبُ هؤلاء لأورادهم وظائف محدَّدة وصفات معيَّنة وأوقات ثابتة، وهذا كلُّه ولا ريب من الإحداثِ في الدِّين، ومن المفارقة لسبيل سيِّد

(١) سنن الدارمي (١/ ٧٩) (رقم:٢٠٤).
(٢) انظر: المعجم الكبير للطبراني (١٠/ ٢٠٨).

الأنبياء والمرسَلين، والاستعاضة عنه بما أحدثه شيوخ الضلال وأئمة الباطل، وهو تشريعٌ في الدِّين بما لَم يأذن به الله، والله تعالى يقول: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ}[١]، ثمَّ تجدُهم مع ذلك يعظِّمون أورادهم هذه ويُعْلُون من شأنها، ويرفعون من قَدْرِها، ويُقدِّمونها على الأوراد الصحيحة والأدعية الثابتة عن رسول الله ﷺ أفضلِ الخلق وأكملِهم ذكراً ودعاءً لربِّه سبحانه.

قال القاضي عياضٌ رحمه الله: « أذن الله في دعائه، وعلَّم الدعاءَ في كتابه لخليقته، وعلَّم النبيُّ ﷺ الدعاءَ لأمَّته، واجتمعت فيه ثلاثةُ أشياء: العلمُ بالتوحيد، والعلم باللغة، والنصيحة للأمَّة، فلا ينبغي لأحدٍ أن يعدلَ عن دعائه ﷺ، وقد احتال الشيطانُ للناس من هذا المقام، فقيَّض لهم قومَ سوء يخترعون لهم أدعيةً يشتغلون بها عن الاقتداء بالنَّبِيِّ ﷺ »[٢].

وقال الإمام القرطبي رحمه الله في تفسيره الجامع لأحكام القرآن:
« فعلى الإنسان أن يستعمل ما في كتاب الله وصحيح السنة من الدعاء ويدع ما سواه، ولا يقول أختار كذا؛ فإنَّ الله قد اختار لنبيِّه وأوليائه وعلَّمهم كيف يدعون » اهـ[٣].

فالواجبَ على مَن أراد لنفسه الفضيلةَ والسلامةَ والتمامَ والرِفعةَ أن يلزمَ هديَ النبي الكريم ﷺ ويتقيَّد بسنَّته، ويدع ما أحدثه المحدِثون وأنشأه المبطلون

---

(١) سورة الشورى، الآية: (٢١).
(٢) انظر: الفتوحات الربانية لابن علان (١/ ١٧).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٤٩).

ممَّا لا أصل له ولا أساس إلاَّ اتِّباعُ الأهواء، والله المستعان وإليه المشتكى وهو حسبنا ونعم الوكيل.

❊ ❊ ❊

٦٦ ـ الآثار السيِّئة للأدعية المُحدَثة

لقد تميَّزت الأدعيةُ الشرعية والأذكار المأثورة عن رسول الله ﷺ بكمالها في مبناها ومعناها، فألفاظُها وعباراتُها موجزةٌ مختصرةٌ، ومعانيها ودلالاتُها عظيمة واسعة، متضمِّنةٌ الخيرَ كلَّه، مشتملةٌ على المقاصد العالية، والمطالب العظيمة، والخيرات العميمة، ولهذا فإنَّ من الخيرِ لكلِّ مسلم، بل من الواجب عليه أن يجتهد قدرَ الاستطاعةِ في تعلُّمها وحفظِها والتعبُّد بها، ويَدَعَ ما سواها من الأوراد والأحزاب المخترعةِ التي أنشأها بعضُ شيوخ الضلالة وأئمة الباطل، والتي صَدُّوا بها كثيراً من عوام المسلمين وجهالهم عن الأدعيةِ المأثورةِ والأذكار المشروعةِ.

ومَن يتأمَّل واقعَ بعض المسلمين ولا سيما مَن انتسب إلى بعضِ الطرق الصوفية يجدُ أنَّهم قد انشغلوا بهذه الأذكار المُختَرعةِ والأدعية المبتَدعة، فأصبحوا يتلونَها ليلاً ونهاراً، وصباحاً ومساءً، تاركين بسببها كتاب الله تعالى، مُعرضين عن الأدعية المأثورة عن رسول الله ﷺ، ثمَّ إنَّ لكلِّ فئةٍ من هؤلاء أوراداً خاصةً يتلونها بطريقة خاصة ونَمط معيَّن، فلكلِّ طريقةٍ من هذه الطرق الصوفية أحزابُها وأورادُها الخاصة و{**كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**}[1]، وكلٌّ منهم يعتقد أنَّ أورادَه أفضلُ من أوراد الطرق الصوفية الأخرى.

وما مِن ريبٍ أنَّ هذه الأدعيةَ المبتدَعَة لها نتائجُها المؤسفة وآثارها السيِّئة

(١) سورة المؤمنون، الآية: (٥٣)، والروم، الآية: (٣٢).

على المسلم في عقيدتِه وأعماله التعبُّديَّة، وهي آثارٌ كثيرةٌ يطول حصرُها، لكن قد أوجزها ولخَّصها الشيخ جيلان بن خضر العروسي في كتابه القيِّم: « الدعاءُ ومنزلتُه من العقيدة الإسلامية »[١]، في النقاط التالية:

أولاً: أنَّ الأدعيةَ المبتدعة لا تفي بالغرض المطلوب من العبادات من تزكية النفوس وتطهيرها من الرعونات، وتقريبها إلى باريها، وتعلقها بربِّها رجاءً ورغبة ورهبةً، فهي لا تشفي عليلاً ولا تُروي غليلاً، ولا تهدي سبيلاً.

وأما الأدعيةُ المشروعةُ فهي الدواءُ الناجعُ والبلسم الشافي للأدواء النفسية والأمراض القلبية والأهواء الشيطانية، فمَن استبدل بها الأدعية المبتَدعة فقد استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

ثانياً: أنَّ الأدعيةَ المبتدعَة تفوِّت على العبد الأجرَ العظيم والثوابَ الجزيل الذي يحصل لِمَن التزم بالأدعية الواردة وحافظ عليها وطبَّقها كما وردت، فإنَّه يحوز السبق، ويتعرَّض لنفحات الربِّ وجُودِه، بخلاف مَن يدعو بالأدعية المبتَدَعة، فإنَّه يفوِّت على نفسه الأجر والثوابَ ويعرضها لسخط الله وغضبه.

ثالثاً: عدم إجابة الأدعية المبتَدَعة مع أنَّ الهدفَ والأساسَ للداعي في الغالب هو إجابةُ مطلوبه، ونيلُ مرغوبه، ودفعُ مرهوبه، والأدعية المبتَدَعة لا يُجاب الداعي بها، ولا تكون متقبَّلةً منه، وفي الحديث:
« مَن عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد »[٢].

---

(١) انظره: (٢/ ٥٩٢ ـ ٥٩٨).
(٢) صحيح مسلم (٣/ ١٣٤٣).

رابعاً: أنَّ الأدعيةَ المبَتَدَعة تشتمل غالباً على محذورٍ شرعيٍّ، وقد يكون ذلك المحذورُ من وسائل الشرك وذرائعه؛ إذ البدعةُ تجُرُّ إلى الشركِ والضلال، فمِن الأدعية البدعية التي تجُرُّ إلى الشرك: التوسُّل البدعي، فهو الذي فتح البابَ لدعاء غير الله والاستغاثة والاستمدادِ بغيره، وقد يكون ذلك المحذورُ اعتداءً في الدعاء ومجاوزةً للحدِّ، وسوءَ أدبٍ في خطاب الربِّ ومناجاته، وقد يكون ذلك المحذورُ ما يصحب تلك الأدعية من بدع أخرى من تحديدها بأوقات معيَّنة وبصفات خاصة، ورفع الأصوات على نغمات معيَّنة، وإيقاعات خاصة وأسجاع مصطنعة، وتراكيب ركيكة تمجُّها الأسماعُ، وتستقبحُها القريحةُ السليمةُ.

خامساً: أنَّ الأدعيةَ المبَتَدَعةَ مَن التزم بها واعتادها قلَّما يرجع عنها إلى الأدعية المشروعة، إلاَّ إذا وفَّقه اللهُ وأعانه وهداه إلى الخير، وذلك لأنَّ القلوبَ متى اشتغلت بالبدع أعرضت عن السنن، حيث إنَّ الملتزمَ بتلك الأدعية المبَتَدَعة يعتقدها مشروعةً ويُدافعُ عنها، ولا يسمع إلى حُجَّةٍ ولا برهانٍ.

سادساً: أنَّ استعمالَ الأدعية البدعية، وتركَ الأدعيةَ المشروعة من باب استبدال الخبيث بالطيِّب، والضاربالنافع، والشرِّ بالخير، وهذا ـ ولا ريب ـ غبنٌ فاحش، وتهور ظاهر، وخسارةٌ فادحةٌ.

سابعاً: أنَّ في الأدعيةِ المبَتَدَعة المخترعة تشبُّهاً بأهل الكتاب في اختراعهم للأدعية المخالفة لما جاءت به رسلهم، وفيها أيضاً تشبُّه بهم في النَّغمات والإيقاعات والتمايلات وغير ذلك.

ثامناً: أنَّ الذي يُلازم الأدعية المبَتَدَعة المخترعة لا سيما التي هي مؤلفةٌ

من أحزابٍ وأورادٍ يكون في الغالب جاهلاً لمعناها، وتنصرف همَّتُه إلى ألفاظها، وإلى سردها سرداً بدون تدبُّر، مع أنَّ المطلوبَ في الدعاء إحضارُ القلب والإخلاصُ في السؤال، ولا سيما أنَّ كثيراً من هذه الأدعيةِ عبارةٌ عن كلمات مرصوصة خفيَّة المعنى غامضة الدلالة، وهذا الداعي بمثل هذه الأدعية غيرُ سائل ولا داع، بل هو حاكٍ لكلام غيره، ثمَّ إنَّ اختيارَه ذلك الدعاء على غيره من الأدعية لأجل الذي نظمه وإعجابَه به، ففي ذلك تقديس لهذا الذي جمعها، ورفعٌ له فوق منزلته من حيث يعتقدُ الداعي أنَّ لأدعيتِه خاصيَّةً لا توجد في غيرها، وإلاَّ لَما داوم عليها ليل نهار، بل بعضهم يصرِّحُ أنَّ وِرْدَ شيخه أفضلُ الأوراد وأتمُّها وأكملُها.

وبهذا يُعلم مدى جناية هذه الأدعية المخترعَة على المسلمين وعِظَمُ خطورتها عليهم، وأنَّ الواجبَ على كلِّ مسلم الحذَرُ منها والبُعدُ عنها ومجانبتُها، وأن يقتصرَ على الوارِد والمأثور عن الرسول الكريم ﷺ، فإنَّه أقومُ قيلاً، وأهدى سبيلاً.

وإنَّا لنسأل الله الكريم أن يرزقنا لزومَ سنَّته واتباعَ هديه واقتفاءَ أثرِه وسلوكَ منهجه، إنَّه سميعٌ مجيبٌ.

٦٧ ـ جوامع الكلم والأدعية المأثورة

لا يزال حديثنا موصولاً في بيان فضل الأذكار النبويةِ والأدعيةِ المأثورةِ التي كان يدعو بها النبي ﷺ ويعلِّمُها أصحابَه؛ لكمالها في مبانيها ومعانيها، ولاشتمالِها على جوامع الخير وفواتِحِه وخواتِمِه، كما قالت أمُّ المؤمنين عائشةُ رضي الله عنها: « كان النبي ﷺ يُعجبُه الجوامعُ من الدعاءِ، ويدع ما بين ذلك »، رواه أبو داود في سننه، والإمام أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه[١].

وروى الفريابي وغيرُه من حديث عائشة أيضاً أنَّ النبيَّ ﷺ قال لها: « يا عائشة، عليكِ بجوامع الدعاء: اللَّهمَّ إنِّي أسألكَ من الخيرِ كلِّه عاجلِه وآجلِه، ما علمتُ منه وما لَم أعلم، وأعوذُ بكَ من الشرِّ كلِّه عاجلِه وآجلِه، ما علمتُ منه وما لَم أعلم، اللَّهمَّ إنِّي أسألكَ مِن خيرِ ما سألكَ منه محمدٌ عبدُك ونبيُّك، وأعوذ بك من شرِّ ما عاذ منه عبدُك ونبيُّك، اللَّهمَّ إنِّي أسألكَ الجنَّةَ وما قرَّب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النارِ وما قرَّب إليها من قولٍ وعمل، وأسألكَ ما قضيتَ لي من قضاءٍ أن تجعلَ عاقبتَه رشداً »[٢].

وخرَّجه الإمام أحمد، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، والحاكم، وليس عندهم ذكر جوامع الدعاء، وعند أحمد والحاكم:

---

(١) سنن أبي داود (رقم:١٤٨٢)، والمسند (٦/ ١٤٨، ١٨٩)، وصحيح ابن حبان (رقم:٨٦٧)، وهو في صحيح أبي داود (رقم:١٣١٥).
(٢) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/ ٥٣٣).

« عليكِ بالكوامل ... »، وذكرَه[١].

وخرَّجه أبو بكر الأثرم وعنده أنَّ النبيَّ ﷺ قال لها: « ما منعكِ أن تأخذي بجوامع الكَلِم وفواتِحَه ... »، وذكر هذا الدعاء[٢].

وروى الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: « إنَّ رسول الله ﷺ عُلِّم فواتحَ الخير وجوامعَه، أو جوامعَ الخير وفواتحَه وخواتمه ... »[٣].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، فإنَّه ﷺ أُعطي جوامع الكلم، وخُصَّ ببدائع الحكَم، كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « بُعثتُ بجوامع الكَلِم »[٤]، قال الإمام محمد بن شهاب الزهري رحمه الله: « جوامع الكلم فيما بلغنا أنَّ الله يجمع له الأمور الكثيرة التي كانت تُكتب في الكتب قبله في الأمر الواحد والأمرين ونحو ذلك »[٥] اهـ.

وحاصلُه أنَّه ﷺ كان يتكلَّم بالكلام الموجَزِ القليلِ اللفظ، الكثير المعاني، وهكذا الشأن في أذكاره وأدعيته صلوات الله وسلامه عليه، كان يُعجبه من ذلك جوامع الذِّكر والدعاء ويدع ما بين ذلك.

وإذاً فالواجبُ على كلِّ مسلمٍ أن يعرف عِظَمَ قدر الأدعيةِ النبوية ورفيع

---

(١) المسند (٦/ ١٣٤، ١٤٦)، وسنن ابن ماجه (رقم:٣٨٤٦)، وصحيح ابن حبان (رقم:٨٦٩)، والمستدرك (١/ ٥٢١، ٥٢٢).
(٢) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/ ٥٣٤).
(٣) المسند (١/ ٤٠٨، ٤٣٧).
(٤) صحيح البخاري (رقم:٧٠١٣)، وصحيح مسلم (رقم:٥٢٣).
(٥) ذكره البخاري في صحيحه بإثر حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مكانتها وأنَّها مشتملةٌ على مجامع الخير وأبواب السعادةِ ومفاتيح الفلاح في الدنيا والآخرة، فخيرُ السؤال أن يسألَ المسلمُ ربَّه مِن خير ما سأله منه عبدُه ورسولُه ﷺ، وأفضلُ الاستعاذة أن يستعيذ بالله من شرِّ ما استعاذ منه عبدُ الله ورسولُه ﷺ، فإنَّ في ذلك فواتحَ الخير وخواتِمَه وجوامعَه، وأوَّلَه وآخرَه، وظاهره وباطنَه، ومن يتأمَّل جميعَ الأدعيةِ الواردةِ في القرآن والسنةِ يجدها كذلك، فإنَّ الله تبارك وتعالى قد اختار لنبيِّه محمد ﷺ جوامعَ الأدعيةِ وفواتح الخير وتمام الأمرِ وكماله في الدنيا والآخرة، فكيف يدَعُ المسلمُ هذا الخيرَ العميمَ والفضلَ العظيم الذي اشتملت عليه أدعيةُ النبي الكريم ﷺ، ويُقبِلُ على أدعيةٍ أخرى لغيره ممَّن لا تُؤمَنُ غائلتُهم من شيوخ الضلال وأئمَّة الباطل، المتكلِّفين في الدِّين ما ليس منه، ولهذا يقول الخطابي رحمه الله: « أولى ما يُدعى به ويُستعمل منه ما صحَّت به الروايةُ عن رسول الله ﷺ وثبت عنه بالأسانيد الصحيحة، فإنَّ الغلطَ يعرض كثيراً في الأدعية التي يختارها الناس لاختلاف معارفهم وتباينِ مذاهبهم في الاعتقاد والانتحال، وبابُ الدعاء مطيَّةٌ مظنَّةٌ للخطر، وما تحت قدم الداعي دحضٌ، فليحذر فيه الزلل، وليسلك منه الجَدَد، الذي يؤمن معه العِثار، وما التوفيق إلاَّ بالله عزَّ وجلَّ »[1]. اهـ.

ومَن يتأمَّل الأدعيةَ المأثورة التي جاءت في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ يجدُ فيها الجمالَ والكمالَ والوفاءَ بتحقيق المطالبِ العاليةِ، والمقاصدِ الرفيعةِ، والخيرِ الكاملِ في الدنيا والآخرة، مع السلامة فيها والأمان من

(١) شأن الدعاء للخطابي (ص:٢ ـ ٣).

الوقوع في الخطأ والزلل، فهي معصومة من ذلك؛ لأنَّها وحيُ الله وتنزيله.

ولذا نجد أئمةَ العلم الأمناءَ الناصحين يُرغِّبون الناسَ في المحافظةِ على الأدعيةِ المأثورة والأذكار المشروعة، ويعتنون تمام الاعتناءِ بربط الناس بكتاب ربِّهم وسنَّةِ نبيِّهم ﷺ؛ لأنَّ في ذلك السلامةَ والعصمةَ والفوزَ بأكبر الغنيمة، ومن ذلك قول الإمام الجليل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « وينبغي للخلق أن يدعوا بالأدعية الشرعية التي جاء بها الكتاب والسنة، فإنَّ ذلك لا ريب في فضله وحُسنِه، وأنَّه الصراطُ المستقيم، صراطُ الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسُن أولئك رفيقا »[1].

فتأمَّل كلامَ هذا الإمام الناصح وغيرِه من أهل العلم أهل السنة والجماعة كيف أنَّهم كرَّسوا جهودَهم وبذلوا أوقاتَهم وأنفاسَهم في سبيلِ تفقيهِ الناسِ بالسنَّةِ وربطِهم بِها ودعوتِهم إلى تحقيقها وحسنِ القيام بها؛ إذ هي صراطُ الله المستقيم وحبلُه المتين.

تأمَّل قولَه رحمه الله: « ينبغي للخلق أن يدعوا بالأدعية الشرعية التي جاء بها الكتاب والسنة » تجد فيه تمامَ النصيحةِ للخَلْق وصِدقَ القيام بالحقِّ، بخلاف أئمةِ الضلال ودعاةِ الباطل، فإنَّهم يدعون الناسَ إلى أنفسهم ويربطونهم بأشخاصهم، فتراهم يُنشئون للناس أوراداً وأدعيةً من قِبَل أنفسهم، ويعظمون من شأنِها، ويُعلونَ من قدرها رغبةً في تكثير الأتباع واستقطاب المريدين، كما قال الصحابيُّ الجليلُ معاذ بن جبل رضي الله عنه: « إنَّ مِن ورائِكم فتناً يكثر فيها المالُ، ويُفتحُ فيها القرآن حتى يأخذَه المؤمنُ

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٣٤٦).

والمنافقُ والرَّجلُ والمرأةُ والصغيرُ والكبيرُ والعبدُ والحرُّ، فيوشكُ قائلٌ أن يقول: ما للناسِ لا يتَّبعوني وقد قرأتُ القرآنَ؟ ما هم بمتَّبعيَّ حتى أبتدعَ لهم غيرَه، فإيَّاكم وما ابتدع، فإنَّ ما ابتدعَ ضلالةٌ »، رواه الإمام أبو داود في سننه والآجريُّ في الشريعة، وسنده صحيح[1].

فليكن المسلمُ على تَمام الحذر من مثل هؤلاء، وليحرص تَمام الحرص على لزوم السُّنَّة، ففيها السلامة والرِّفعة، والتوفيق بيد الله وحده.

* * *

(١) سنن أبي داود (رقم:٤٦١١)، والشريعة (رقم:٩٠، ٩١).

٦٨ ـ أهميَّة العناية بالألفاظ النبوية في الذِّكر والدعاء

تقدَّم معنا الإشارةُ إلى عِصمةِ الأدعيةِ المأثورة في مبناها ومعناها، وسلامتِها من الخطأ والزللِ في ألفاظها ودلالتها؛ لأنَّها وحيُ الله وتنزيلُه، اختارها اللهُ لنبيِّه محمد ﷺ وعلَّمه إيَّاها، فعلِمَها صلوات الله وسلامه عليه وعمل بها على التمام والكمال، وبلَّغها أمَّتَه البلاغ المبين، وتلقاها عنه صحبُه الكرام خيرَ تلقٍّ فعملوا بها واجتهدوا في تطبيقها وعمارةِ الأوقات بها، ثمَّ بلَّغوها مَن وراءَهم وافيةً تامَّةً بحروفها وألفاظها، فكان لهم بذلك الحظُّ الأوفرُ والنصيب الأكملُ من قوله ﷺ: « نضَّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها وحفظها، ثمَّ أدَّاها إلى مَن لَم يسمعها »[1]، ولعلنا نقف وقفة، نتأمَّلُ فيها حرصَ الصحابة رضي الله عنهم على ضبطِ الأدعيةِ النبويَّة وتعلُّمِها، وحرصَ النبيِّ ﷺ على توجيههم وتسديدِهم فيها.

فمِن ذلك ما ورد في عدَّةِ أحاديث متعلِّقة بالذِّكر والدعاء أنَّ النبيَّ ﷺ كان يُعلِّمهم إيَّاها كما يُعلِّمهم السورةَ من القرآن الكريم.

منها ما رواه مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما: « أنَّ رسول الله ﷺ كان يُعلِّمهم هذا الدعاءَ كما يُعلِّمهم السورةَ من القرآن يقول: اللَّهمَّ إنَّا نعوذ بك من عذاب جهنَّم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنةِ المسيح الدجَّال، وأعوذ بكَ من فتنة المحيا والممات »[2].

(١) المسند (١/ ٤٣٧)، (٤/ ٨٠)، وسنن الترمذي (رقم:٢٦٥٧)، وسنن ابن ماجه (رقم:٢٣٢)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (رقم:٦٧٦٦).
(٢) صحيح مسلم (رقم:٥٩٠).

وكذلك دعاء الاستخارة في صحيح البخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: « كان رسول الله ﷺ يعلِّمنا دعاءَ الاستخارة كما يُعلِّمنا السورةَ من القرآن »[١].

قال ابن أبي جمرة: « التشبيه في تحفظ حروفه وترتيب كلماته ومنع الزيادة والنقص فيه والدرْسِ له والمحافظة عليه، ويَحتمل أن يكون من جهة الاهتمام به والتحقق لبركته والاحترام له، ويحتملُ أن يكون من جهة كون كلٍّ منهما علم بالوحي »[٢] اهـ.

ومن ذلك أيضاً أنَّ الصحابةَ رضي الله عنهم كانوا يأتونه ويطلبون منه أن يعلِّمهم دعاءً يدعون به مع أنَّهم كانوا أهلَ علمٍ وفصاحةٍ، ومن هذا ما رواه البخاري ومسلم عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنَّه قال لرسول الله ﷺ: « علِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي، قال: قل: اللَّهمَّ إنِّي ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوبَ إلاَّ أنتَ فاغفرْ لي مغفرةً من عندك، وارحمني إنَّك أنت الغفور الرحيم »[٣]، قال الحافظ في الفتح: « وفي هذا الحديث من الفوائد أيضاً: استحباب طلبِ التعليم من العالِم، خصوصاً في الدعوات المطلوبِ فيها جوامعُ الكلِم »[٤]. اهـ.

ومِن ذلك أنَّ النبيَّ ﷺ كان يُصوِّبُ من يخطئ منهم ولو في لفظ من ألفاظ الذِّكر والدعاء، كما في الصحيحين من حديث البراء بن عازب رضي الله

(١) صحيح البخاري (رقم:١١٦٢).
(٢) فتح الباري (١١/ ١٨٤).
(٣) صحيح البخاري (رقم:٨٣٤)، وصحيح مسلم (رقم:٢٧٠٥).
(٤) فتح الباري (٢/ ٣٢٠).

عنه قال: « قال لي رسول الله ﷺ: إذا أتيتَ مَضجعَك فتوضَّأ وضوءك للصلاة، ثمَّ اضطجع على شِقِّك الأيمن وقل: اللَّهمَّ أسلمتُ وجهي إليك، وفوَّضتُ أمري إليك، وألجأتُ ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلاَّ إليك، آمنتُ بكتابك الذي أنزلت، وبنبيِّك الذي أرسلت، فإن مُتَّ متَّ على الفطرة، فاجعلهنّ آخر ما تقول، فقلت أستذكرهنّ: وبرسولك الذي أرسلت، قال: لا، وبنبيِّك الذي أرسلت »[1].

قال الحافظ في الفتح: « وأولى ما قيل في الحكمة في ردّه ﷺ على من قال الرسول بدل النبيّ أنَّ ألفاظ الأذكار توقيفيّة، ولها خصائص وأسرار لا يدخلها القياس، فيجب المحافظة على اللّفظ الذي وردت به »[2].

ومن ذلك أيضاً أنَّ الإنسان قد يختار لنفسه صيغةً معيَّنةً من الدعاء يرى أنَّ فيها تحقيق سعادته في الدنيا والآخرة، ويخفى عليه ما قد تتضمّنه من شرٍّ أو خطر إمّا في الدنيا أو الآخرة، بينما الأدعية النبوية ليس فيها إلاَّ الخير والصلاح والسلامة في الدنيا والآخرة، روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد خفَتَ فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ: « هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إيّاه، قال: نعم كنت أقول: اللَّهمَّ ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجِّله لي في الدنيا، فقال رسول الله

(١) صحيح البخاري (رقم:٢٤٧)، (رقم:٦٣١١)، وصحيح مسلم (رقم:٢٧١٠).
(٢) فتح الباري (١١/ ١١٢).

ﷺ: سبحان الله لا تطيقه أو لا تستطيعه، أفلا قلت: اللّهمّ آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النّار، قال: فدعا اللهَ له فشفاه »[(١)].

فجمع له صلوات الله وسلامه عليه في هذا الدعاء العظيم الذي أرشده إليه بين خيري الدنيا والآخرة والسلامة فيهما من جميع الشرور.

ومن ذلك أيضاً أنَّ الصحابةَ رضي الله عنهم كانوا ينكرون على من يسمعون منه المخالفة لهدي النبيِّ ﷺ في الذّكر والدعاء والأمثلة على ذلك عنهم كثيرة منها: ما رواه الترمذي والحاكم عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما: « أنَّه سمع رجلاً عطس فقال: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، فقال له، ما هكذا علَّمنا رسول الله ﷺ، بل قال: إذا عطس أحدكم فليحمد الله، ولم يقل وليصلّ على رسول الله »[(٢)].

وروى أحمد وأبو داود وغيرهما عن ابن سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه قال: سمِعَني أبي وأنا أقول: « اللّهمّ إنّي أسألك الجنّة ونعيمها وبهجتها، وكذا وكذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها وكذا وكذا، فقال: يا بنيّ إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: « سيكون قومٌ يعتدون في الدعاء » فإيّاك أن تكون منهم، إن أعطيت الجنّة أعطيتها وما فيها من الخير، وإن أُعذتَ من

(١) صحيح مسلم (رقم:٢٦٨٨).
(٢) سنن الترمذي (رقم:٢٧٣٨)، والمستدرك (٤/ ٢٦٥)، وصححه العلاَّمة الألباني رحمه الله في الإرواء (٣/ ٢٤٥).

النار أُعذت منها ومن ما فيها من الشرّ »[١].

ومثلُه ما رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وغيرهم عن عبد الله بن مغفّل رضي الله عنه أنّه سمع ابنَه يقول: اللّهمّ إنّي أسألك القصرَ الأبيض عن يمين الجنّة إذا دخلتُها، فقال: أي بنيّ! سل الله الجنّة وتعوّذ به من النار، فإنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « سيكون في هذه الأمّة قومٌ يعتدون في الطُّهور والدعاء »[٢].

فهذه نماذج يسيرة تبيِّن مكانةَ الدعاء النبوي وأهميّة العناية بألفاظه المأثورة لكمالِها ورِفعتِها وسلامتِها ووفائها بتحقيق أهمّ المطالب وأجلِّ الغايات.

---

(١) المسند (١/ ١٧٢)، وسنن أبي داود (رقم:١٤٨٠)، وصححه العلاَّمة الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود (رقم:١٣١٣).

(٢) المسند (٤/ ٨٦، ٨٧)، (٥/ ٥٥)، وسنن أبي داود (رقم:٩٦)، وسنن ابن ماجه (رقم:٣٨٦٤)، وصححه العلاَّمة الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود (رقم:٨٧).

٦٩ ـ التحذير من الاعتداء في الدعاء

إنَّ من الضوابطِ المهمَّةِ للدعاء أن يحذر المسلمُ أشدَّ الحَذر من الاعتداء فيه، والاعتداءُ هو تجاوز ما ينبغي أن يُقتصرَ عليه، يقول الله تعالى: {**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**}[1]، فأرشد تبارك وتعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ عبادَه إلى دعائه الذي هو صلاحُ دينهم ودنياهم وآخرتهم، ثمَّ نهاهم سبحانه في هذا السياق عن الاعتداء بإخباره أنَّه لا يحبُّ المعتدين، فدلَّ ذلك على أنَّ الاعتداء مكروهٌ له مسخوطٌ عنده، لا يُحبُّ فاعلَه، ومن لا يحبُّه الله فأيُّ خيرٍ ينال، وأي فضلٍ يُؤمِل.

ثمَّ إنَّ النهيَ عن الاعتداء في الآية وإن كان عاماً يشملُ كلَّ نوع من الاعتداء، إلاَّ أنَّه لمجيئِه عقِب الأمر بالدعاء يدلُّ دلالةً خاصة على المنع من الاعتداءِ في الدعاء والتحذير منه، وبيانِ أنَّ الدعاءَ المشتملَ على الاعتداء لا يحبُّه الله من عباده ولا يرضاه لهم؛ ولهذا روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: {**إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**} قال: « في الدعاء ولا في غيره »[2].

وعن قتادة في معنى الآية قال: « اعلموا أنَّ في بعض الدعاء اعتداء فاجتنبوا العدوان والاعتداء إن استطعتم ولا قوة إلاَّ بالله ».

وعن الربيع في معنى الآية قال: « إيَّاك أن تسأل ربَّك أمراً قد نُهيتَ عنه

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (٥٥).

(٢) تفسير الطبري (٥/ ٢٠٧).

أو ما ينبغي لك ».

وعن ابن جريج في معنى الآية قال: « إنَّ من الدعاء اعتداءً، يُكره رفع الصوت والنداءُ والصياحُ بالدعاء، ويؤمرُ بالتضرُّع والاستكانة »[١].

وقد جاء عن النبي ﷺ ما يدلُّ على أنَّ من الأمَّة مَن سيقع في الاعتداء في الدعاء، وهو ﷺ عندما أخبر بذلك أخبر به محذِّراً منه ناهياً عنه مبيناً لخطره، وهذا من تَمام وكمال نصحه لأمَّته صلوات الله وسلامه عليه، وهو أيضاً من علامات نُبوَّته ﷺ.

روى الإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وغيرُهم عن عبد الله بن مغفل: أنَّه سمع ابنه يقول: « اللَّهمَّ إنِّي أسألك القصرَ الأبيض عن يمين الجنَّة إذا دخلتها، فقال: أي بُنيَّ سلِ الله الجنَّة وتعوَّذ بالله من النار، فإنِّي سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: سيكون في هذه الأمة قومٌ يعتدون في الدعاء والطُهور »[٢].

وروى الإمام أحمد، وأبو داود عن سعد بن أبي وقاص أنَّه سمع ابناً له يدعو يقول: « اللَّهمَّ إنِّي أسألك الجنَّة ونعيمَها وإستبرقها ونحواً من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها، فقال: لقد سألتَ اللهَ خيراً كثيراً، وتعوَّذتَ بالله من شرٍّ كثير، وإنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: إنَّه سيكون قومٌ يعتدون في الدعاء، وقرأ هذه الآية: {**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ**

(١) تفسير الطبري (٥/ ٢٠٧).

(٢) المسند (٤/ ٨٦، ٨٧)، (٥/ ٥٥)، وسنن أبي داود (رقم:٩٦)، وسنن ابن ماجه (رقم:٣٨٦٤)، وصححه العلاَّمة الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود (رقم:٨٧).

يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}، وإنَّ بحسبِك أن تقول: اللَّهمَّ إنِّي أسألك الجنَّة وما قرَّب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرَّب إليها من قول أو عمل »[١].

فأخبر صلوات الله وسلامه عليه أنَّه سيكون قومٌ من أمته يعتدون في الدعاء ناهياً عن ذلك، وليكون المسلمون في حَيطةٍ وحَذرٍ من الوقوع في شيء منه، ولا سبيل إلى السلامةِ من ذلك إلاَّ بلزوم السنة واقتفاء آثار الرسول ﷺ كما قال عليه الصلاة والسلام: « فإنَّه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنَّتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين مِن بعدي تمسَّكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكم ومحدثاتِ الأمور، فإنَّ كلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ »[٢].

إنَّ الاعتداءَ في الدعاء بابٌ واسعٌ، ومَهْيَعٌ فجٌّ؛ إذ هو كما تقدَّم تعريفُه: تجاوز ما ينبغي أن يُقتصرَ عليه، وعلى هذا فكلُّ مخالفةٍ للسنة ومفارقة للهدي النبوي الكريم في الدعاء يُعدُّ اعتداء، ومن المعلوم أنَّ المخالفات متنوِّعةٌ وكثيرةٌ لا يجمعها نوعٌ واحد، ثمَّ هي أيضاً متفاوتةٌ في خطورتها، فمِن الاعتداءِ ما قد يبلغ حدَّ الكفر، ومنه ما هو دون ذلك، فمَن اعتدى في دعائه بأن دعا غيرَ الله أو سأله أو طلب منه كشف ضرِّه أو جلب نفعه أو شفاءَ مرضه أو نحو ذلك، فقد وقع في أعظمِ أنواع الاعتداء في الدعاء وأشدِّها

---

(١) المسند (١/ ١٧٢)، وسنن أبي داود (رقم:١٤٨٠)، وصححه العلاَّمة الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود (رقم:١٣١٣).

(٢) المسند (٤/ ١٢٧)، وسنن أبي داود (رقم:٤٦٠٧)، وسنن الترمذي (رقم:٢٦٧٦)، وصححه العلاَّمة الألباني رحمه الله في صحيح سنن الترمذي (رقم:٢١٥٧).

خطراً، ولهذا قال الله تعالى: {**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ**}[1]، وحاصلُ كلام المفسرين في معنى هذه الآية أنَّ الله تعالى حكم بأنَّه لا أضلُّ مِمَّن يدعو من دون الله مَن لا يستجيب له إلى يوم القيامة، ومعنى الاستفهام في الآية إنكارُ أن يكون في الضُلاَّل كلِّهم أبلغُ ضلالاً مِمَّن عبَد غيرَ الله ودعاه، حيث يترك دعاء السميعِ المجيبِ القدير، ويدعو مِن دونه الضعيفَ العاجزَ الذي لا قدرة له على الاستجابة، كما قال تعالى: {**لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى المَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ**}[2]، فهذا أخطرُ أنواع الاعتداء في الدعاء وأشدُّها ضرراً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « فهؤلاء أعظمُ المعتدين عدواناً، فإنَّ أعظم العدوان الشرك وهو وضع العبادة في غير موضعها، فهذا العدوان لا بدَّ أن يكون داخلاً في قوله تعالى: {**إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ**} »[3].

وأيُّ اعتداءٍ أعظم وأشدُّ من هذا، أن يَصرفَ العبدُ حقَّ الله الخالص الذي لا يجوز أن يُصرف لأحدٍ سواه إلى مخلوق لا يَملكُ لنفسه ضرًّا ولا رَشداً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، فضلاً عن أن يَملك شيئاً من ذلك لغيره، قال الله تعالى: {**وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلاَ حَيَاةً وَلاَ**

(١) سورة الأحقاف، الآية: (٥).
(٢) سورة الرعد، الآية: (١٤).
(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٣).

نُشُورًا}[١]، وقال تعالى: {**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**}[٢]، وقال تعالى: {**قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِن دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِن ظَهِيرٍ**}[٣].

وما من ريب أنَّ هذا هو أعظم العدوان وأشد الانحراف والطغيان، نسأل الله العافية والسلامة.

* * *

(١) سورة الفرقان، الآية: (٣).

(٢) سورة الأعراف، الآية: (١٩٤).

(٣) سورة سبأ، الآية: (٢٢).

٧٠ ـ من الاعتداء في الدعاء

إنَّ مِمَّا ينبغي للمسلم أن يتنبّه له في أمر الدعاء أن يحذرَ غايةَ الحَذَر من الاعتداء فيه، فإنَّ اللهَ جلَّ وعلا لَماَّ أَمر عبادَه في آية الأعراف بالدعاء تضرعاً وخفيةً أخبر في أثناء ذلك بأنَّه لا يحب المعتدين، وذلك في قوله تعالى: {**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**}[1]، وهذه الآيةُ الكريمةُ وإن كان التحذيرُ فيها من الاعتداء وَرَدَ بصيغةِ العموم متناولاً لكلِّ نوعٍ من أنواع الاعتداء، إلاَّ أنَّ تناولَها للتحذير من الاعتداء في الدعاء أكثرُ لِمَجيئِها في سياق الأمر به وذِكرِ شروطه وآدابه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « وقوله تعالى: {**إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**} قيل: المراد إنَّه لا يحبُّ المعتدين في الدعاء، كالذي يَسأل ما لا يليق به من منازل الأنبياء وغير ذلك، وقد روى أبو داود في سننه عن عبد الله بن مغفَّل أنَّه سمع ابنَه يقول: « اللَّهمَّ إنِّي أسألك القصرَ الأبيض عن يمين الجنَّة إذا دخلتها، فقال: يا بُنيَّ سلِ الله الجنَّة وتعوَّذ به من النار، فإنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: سيكون في هذه الأمة قومٌ يعتدون في الطُهور والدعاء »[2].

ثمَّ قال رحمه الله: وإن كان الاعتداء مراداً بها فهو من جملة المراد والله لا

(١) سورة الأعراف، الآية: (٥٥).

(٢) سنن أبي داود (رقم:٩٦)، والمسند (٤/ ٨٦، ٨٧)، (٥/ ٥٥)، وسنن ابن ماجه (رقم:٣٨٦٤)، وصححه العلاَّمة الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود (رقم:٨٧).

يحب المعتدين في كلِّ شيء دعاءً كان أو غيرَه، كما قال الله تعالى: {**وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**}[١] »[٢] اهـ.

وعلى هذا فإنَّ الآيةَ الكريمة تكون دالةً على أمرين اثنين:

أحدهما: محبوبٌ إلى الله مرغَّبٌ فيه، وهو دعاءُ الله عزَّ وجلَّ تضرُّعاً وخُفيةً.

والثاني: مكروهٌ له مسخوطٌ عنده، مُحذَّرٌ منه أشدَّ التحذير، وهو الاعتداء، فأمر بِما يُحبُّه وندب إليه ورغَّب فيه، وحذَّر مما يُبغضُه، وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزجر والتحذير، وهو إخبارُه سبحانه بأنَّه لا يحبُّ فاعلَه، ومَن لا يحبُّه الله فأيُّ خيرٍ ينال وأيُّ فضلٍ يؤمل[٣].

ومن هنا كان متأكَّداً على كلِّ مسلم أن يكون في حذرٍ بالغٍ وحَيْطةٍ كاملة من الاعتداء في الدعاء بتجاوز حدِّ الشريعة فيه، والبعدِ عن ضوابِطه وأصولِه المعلومة، والاعتداء مشتقٌّ من العدوان، وهو تجاوز ما ينبغي أن يُقتصر عليه من حدود الشريعة وضوابِطها المعلومة، كما قال تعالى: {**تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا**}[٤]، أي أنَّ ما فصله الله سبحانه لعباده من الشرائع والأحكام يجب ملازمتُه والوقوفُ عنده وعدمُ تعدِّيه {**وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**}[٥]، وأيُّ ظلمٍ للنفس أنكى وأشد من تجاوز الحدود الشرعية

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١٩٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٢ ـ ٢٣).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٥/ ٢٣ ـ ٢٤).

(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٢٩).

(٥) سورة الطلاق، الآية: (١).

وضوابطها المهمَّة المتَّبعة.

ثمَّ كيف يُؤَمِّل في الإجابة ويَطمع في القبول مَن يتجاوز في دعائه ضوابطَ الشريعة ويتعدَّى حدودَها المقرَّرة، فالدعاءُ المعتدَى فيه لا يحبُّه الله ولا يرضاه، فكيف يؤمل صاحبُه أن يُستجاب منه ويُقبل.

والاعتداء في الدعاء يتناولُ أموراً عديدة متفاوتةً في الخطورة والبُعدِ عن الحقِّ والاعتدال، إلاَّ أنَّ أشدَّ الاعتداء خطراً وأعظمَه ضرراً على صاحبِه دعاءُ غير الله تعالى، فإنَّ ذلك أعظمُ العدوان وأقبحُ الذُّلِّ والهوان؛ إذ كيف يتوجَّه المخلوق بدعائه ورجائه وذُلِّه وخضوعه إلى مخلوق مثله لا يُعطي ولا يمنع، ولا يخفض ولا يرفع، ويَدَعُ مَن بيده أزمَّة الأمور ومقاليدُ السموات والأرض؛ ولهذا فإنَّ مَن يدعو غيرَ الله وهو يؤمِل أن يُستجاب له قد بلغ النهاية في الضلال ولم يحصل مِن ذلك إلاَّ على الخَيْبة والحِرمان والذُّلِّ والخُسران في الدنيا والآخرة {**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ**}[1].

ومِن الاعتداء في الدعاء سؤالُ الله عزَّ وجلَّ ما لا يجوز أن يُسأَلَه من المعونة على فعلِ المُحرَّمات وارتكاب الذنوب وغشيان المعاصي، كأن يسأل الله أن يعينه على سفر يريد به الإثمَ والباطلَ، أو أن يُيسِّرَ له طريقاً للفاحشة والعدوان.

ومن الاعتداء في الدعاء أن يسألَ الله ما عُلم من حكمته سبحانه أنَّه لا

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: (٥).

يفعله، كأن يسأله تخليده إلى يوم القيامة، أو أن يسأله أن يرفع عنه لوازمَ البشرية من الحاجة إلى الطعام والشراب والهواء، أو أن يسأله إطلاعَه على غَيبِه وما استأثر سبحانه بعلمه، أو أن يسأله أن يَجعلَه من المعصومين، أو أن يَهبَ له ولداً من غير زوجة، ونحو ذلك مِمَّا سؤالُه اعتداءٌ لا يحبُّه الله ولا يحب فاعله[١].

ومن الاعتداء في الدعاء سؤالُ الله ما لا يليق بالسائل من المنازل والدرجات، كأن يسأل الله منازلَ الأنبياء والمرسَلين، أو يكون ملَكاً أو نحو ذلك.

وكذلك من العدوان في الدُّعاء أن يدعوَ اللهَ غير متضرِّع، بل دعاء هذا يكون كالمستغنِي المدلِي على ربِّه.

ومن الاعتداء أن يَعبدَه بِما لَم يشرع، ويُثنِي عليه بِما لَم يُثنِ به على نفسِه ولا أذِنَ فيه.

ومن الاعتداء في الدعاء كذلك الدعاءُ على المؤمنين باللَّعنة والخِزي والهوان، قال بعضُ السلف في معنى المعتدين في الآية المتقدِّمة: « هم الذي يدعون على المؤمنين فيما لا يحلُّ، فيقولون: اللَّهمَّ اخزِهم، اللَّهمَّ الْعَنْهم »[٢].

وجاء عن سعيد بن جُبير في معنى الآية قال: « لا تدعوا على المؤمن

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٥/ ٢٢).
(٢) تفسير البغوي (٢/ ١٦٦).

والمؤمنة بالشَّرِّ: اللَّهمَّ اخْزِه والْعَنه ونحو ذلك، فإنَّ ذلك عدوان »[١].

ومن الاعتداء رفع الصوت به رفعاً يُخلُّ بالأدب، قال عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج: « إنَّ من الدعاء اعتداء: يكره رفعُ الصوت والنداءُ والصياحُ بالدعاء، ويؤمر بالتضرع والاستكانة »[٢].

وعموماً فإنَّ الإنسانَ بحسب مفارقته للسنة وابتعاده عن هدي خير الأمة محمد بن عبد الله صلواتُ الله وسلامه عليه يكون نصيبُه من الاعتداء والتجاوز، ومَن لزِمَ هديَ النبي الكريم ﷺ وتقيَّد بسنَّته أمِن من الزَلل، وحفظ بإذن الله من الخطل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « وإنَّما اشتغلت قلوب طوائف من الناس بأنواع من العبادات المبتدَعة إمَّا بالأدعية، وإمَّا من الأسفار، وإمَّا من السماعات ونحو ذلك؛ لإعراض قلوبهم عن المشروع، وإن قاموا بصورة المشروع، وإلاَّ فمَن أقبل على الصلوات الخمس بوجهه وقلبه عاقلاً لما اشتملت عليه من الكلِم الطيب والعمل الصالح مهتماً بها كلَّ الاهتمام أَغْنَتْه عن كلّ ما يَتوهم فيه خيراً من جنسها، ومَن أصغى إلى كلام الله وكلام رسوله ﷺ بعقله، وتدبَّر بقلبه وجد فيه من الفهم والحلاوة والهدى وشفاء القلوب والبركة والمنفعة ما لا يجده في شيء من الكلام لا منظومه ولا منثوره، ومَن اعتاد الدعاءَ المشروع في أوقاته كالأسحار وأدبار الصلوات والسجود ونحو ذلك، أغناه عن كلِّ دعاء مبتدَع في ذاته، أو في بعض صفاته،

---

(١) رواه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور للسيوطي (٣/ ٤٧٥).

(٢) تفسير الطبري (٥/ ٢٠٧).

فعلى العاقلِ أن يجتهدَ في اتِّباع السنة في كلِّ شيء من ذلك، ويعتاض عن كلِّ ما يظنُّ من البدع أنَّه خيرٌ بنوعِهِ من السنن، فإنَّه من يتحرَّى الخيرَ يُعطه، ومَن يتوقَّى الشرَّ يوقه ». اهـ كلامه رحمه الله[1].

وهو كما ترى كلامٌ عظيمُ النفع جليلُ الفائدة من عَلَم الأعلام وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وأسكنه الجنَّة وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيرَ الجزاء وأوفرَه.

❋ ❋ ❋

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص:٣٨٤).

٧١ ـ من آداب الدعاء إخفاؤُه

مرَّ معنا قولُ الله تبارك وتعالى: {**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**}، وما فيه من نهيٍ وتحذيرٍ من الاعتداء في الدعاء بجميع صُوَرِه، وأنَّ الدعاءَ الذي يتضمَّنُ الاعتداءَ لا يحبُّه الله ولا يرضاه ولا يَقبله، مِمَّا يتطلَّب من المسلمِ الحيطةَ والحذَرَ من الوقوع في شيء من ذلك.

والآيةُ الكريمةُ مع هذا تضمَّنت أيضاً بيانَ أدبٍ آخر عظيمٍ من آداب الدعاءِ، ألا وهو إخفاؤُه وإسرارُه وعدمُ الجهرِ به، وذلك في قوله سبحانه: {**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً**}، أي: سرًّا لا علناً، كما قال الله تعالى: {**وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ**}، وقد ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال: « رفع الناسُ أصواتَهم بالدعاءِ، فقال رسول الله ﷺ: أيُّها الناس، اربَعُوا على أنفسِكم، فإنَّكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنَّ الذي تدعونَه سميعٌ قريبٌ »[1].

قال الحسن البصريُّ: « لقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرضِ من عملٍ يقدرون أن يعملوه في السرِّ فيكون علانيةً أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسمع لهم صوتٌ، إن كان إلاَّ همساً بينهم وبين ربِّهم عزَّ وجلَّ، وذلك أنَّ الله تعالى يقول: {**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً**}، وذلك أنَّ اللهَ ذكَرَ عبداً صالحاً رضيَ فِعلَه فقال: {**إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا**}[2] »[1].

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٢٩٩٢)، وصحيح مسلم (رقم:٢٧٠٤).

(٢) سورة مريم، الآية: (٣).

وقال ابن جُريج رحمه الله: « يكره رفعُ الصوت والنداءُ والصياحُ في الدعاء، ويؤمر بالتضرع والاستكانة »[٢].

فإخفاء الدعاء وعدمُ الجهرِ به أدبٌ لا بدَّ منه، ويترتَّبُ عليه من الفوائد والفضائل والمنافعِ ما لا يُعدُّ ولا يُحصى، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لإخفاء الدعاء فوائدَ عديدةً يتبيَّن من خلالها أهميَّةُ إخفاء الدعاء وكثرةُ العوائدِ والفضائل المترتِّبةِ على إخفائِه.

أحدها: أنَّه أعظمُ إيماناً؛ لأنَّ صاحبَه يعلم أنَّ الله يسمع الدعاءَ الخفيَّ.

وثانيها: أنَّه أعظمُ في الأدب والتعظيمِ، فإذا كان يسمع الدعاءَ الخفيَّ فلا يليق بالأدب بين يديه إلاَّ خفض الصوت به.

ثالثها: أنَّه أبلغُ في التضرُّعِ والخشوع، الذي هو روح الدعاء ولُبُّه ومقصودُه، فإنَّ الخاشعَ الذليلَ إنَّما يسألُ مسألةَ مسكين ذليلٍ، قد انكسر قلبُه وذلَّت جوارحُه وخشع صوتُه.

رابعها: أنَّه أبلغُ في الإخلاص.

خامسُها: أنَّه أبلغُ في جَمعيَّةِ القلبِ على الذِّلَّةِ في الدعاء، فإنَّ رفعَ الصوتِ يفرقه، فكلما خفض صوتَه كان أبلغَ في تجريدِ همَّته وقصدِه للمدعو سبحانه.

سادسها: أنَّه دالٌّ على قربِ صاحبِه للقريب، لا مسألة نداء البعيد

(١) الزهد لابن المبارك (ص:٤٥)، وتفسير الطبري (٥/ ٥١٤).
(٢) تفسير الطبري (٥/ ٥١٥).

للبعيد، ولهذا أثنى الله على عبدِه زكريا بقوله: {إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا}[(١)]، فلمَّا استحضر القلبُ قُرْبَ الله عزَّ وجلَّ، وأنَّه أقربُ إليه من كلِّ قريبٍ أخفى دعاءَه ما أمكنه.

سابعُها: أنَّه أدْعى إلى دوامِ الطلبِ والسؤال، فإنَّ اللسانَ لا يَمَلُّ، والجوارحَ لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوتَه، فإنَّه قد يملُّ اللسان، وتضعفُ قواه، وهذا نظير من يقرأُ ويكرِّر، فإذا رفع صوتَه فإنَّه لا يطول له، بخلاف مَن خفض صوتَه.

ثامنها: أنَّ إخفاءَ الدعاء أبعدُ له من القواطعِ والمشوشات، فإنَّ الداعيَ إذا أخفى دعاءَه لَم يدرِ به أحدٌ، فلا يحصلُ على هذا تشويشٌ ولا غيره، وإذا جهر به فرطت له الأرواحُ البشريَّة ولا بدَّ، ومانعته وعارضته، ولو لَم يكن إلاَّ أن تعلقها به يُفزع عليه همتَه، فيضعفُ أثرُ الدعاء، ومَن له تجربةٌ يعرف هذا، فإذا أسرَّ الدعاءَ أمِن هذه المفسدةَ.

تاسعُها: أنَّ أعظمَ النعمةِ الإقبالُ والتعبُّد، ولكلِّ نعمةٍ حاسد على قَدرها، دقَّت أو جلَّت، ولا نعمةَ أعظمُ من هذه النعمةِ، فإنَّ أنفسَ الحاسدين متعلِّقةٌ بها، وليس للمحسود أسلمُ من إخفاءِ نعمتِه عن الحاسدِ، وقد قال يعقوب ليوسف عليهما السلام: {لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا}[(٢)] الآية.

فهذه جملةٌ من الفوائدِ العظيمةِ والثمارِ الكريمةِ التي تترتَّبُ على إخفاءِ

---

(١) سورة مريم، الآية: (٣).

(٢) سورة يوسف، الآية: (٥).

الذِّكرِ وعدمِ الجهرِ به، ومِن خلالها يظهرُ للمسلم أهميَّةُ إخفاءِ الدعاء وإسرارِه، بخلاف الجهرِ به وإعلانِه، فإنَّه يترتَّبُ عليه ضِدُّ ذلك.

ثمَّ إنَّ شيخ الإسلام رحمه الله عقَدَ مقارنةً مفيدةً بين الذِّكرِ والدعاءِ في هذا الباب، بعد أن بيَّنَ أنَّ كلَّ واحدٍ من الدعاء والذِّكر يتضمَّن الآخرَ ويدخل فيه، قال رحمه الله: « وتأمَّل كيف قال [تعالى] في آيةِ الذِّكر: {**وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً**}(١)، وفي آية الدعاء قال: {**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً**}(٢)، فذكر التضرُّعَ فيهما معاً، وهو التذلُّلُ والتمسكنُ والانكسارُ، وهو روحُ الذِّكر والدعاء.

وخصَّ الدعاء بالخُفية لِما ذكرنا من الحِكَم وغيرِها، وخصَّ الذِّكرَ بالخِيفَة لحاجة الذَّاكر إلى الخوف، فإنَّ الذِّكرَ يستلزم المحبَّةَ ويُثمرُها، ولابدَّ لِمَن أكثرَ من ذكر الله أن يُثمرَ له ذلك محبَّتَه، والمحبَّةُ ما لَم تقترن بالخوفِ فإنَّها لا تنفعُ صاحبَها بل تضرُّه؛ لأنَّها توجبُ التواني ... فما حفظت حدود الله ومحارمه، ووصل الواصلون إليه بمثلِ خوفِه ورجائه ومحبَّتِه، فمتى خلا القلبُ من هذه الثلاث فسد فساداً لا يُرجى صلاحه أبداً، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانُه بحسبه، فتأمَّل أسرارَ القرآن وحكمته في اقتران الخِيفَةِ بالذِّكر، والخُفيةِ بالدعاء.

... وذكرَ الطمعَ الذي هو الرجاءُ في آية الدعاءِ؛ لأنَّ الدعاءَ مبنيٌّ عليه، فإنَّ الداعيَ ما لَم يطمع في سؤالِه ومطلوبِه لَم تتحرَّك نفسيتُه لطلبه؛ إذ طَلَبُ

(١) سورة الأعراف، الآية: (٢٠٥).
(٢) سورة الأعراف، الآية: (٥٥).

ما لا طمعَ له فيه ممتنعٌ.

وذَكَرَ الخوفَ في آية الذِّكرِ لشدَّةِ حاجة الخائف إليه، فذكَرَ في كلِّ آيةٍ ما هو اللائقُ بها من الخوفِ والطمعِ، فتباركَ مَن أنزلَ كلامَه شفاءً لِمَا في الصدور »[١]. اهـ كلامُه رحمه الله.

وإذا كان الجهرُ بالدعاءِ يترتَّبُ عليه ما تقدَّم من فواتٍ لتلكَ المصالحِ والفوائدِ إن كان صادراً من فردٍ، فلا ريبَ أنَّ صدورَه من جماعة وبأداءٍ واحد أبلغُ في تفويتِ تلك المصالحِ والفوائد المترتِّبةِ عليه وكان السلفُ رحمهم الله يعدُّون ذلك نوعاً من الإحداث في الدِّين والخروج عن نهج سيِّدِ المرسَلين.

روي عن مجالد بن مسعود السلمي رضي الله عنه: أنَّه سمع قوماً يعجُّون في دعائهم، فمشى إليهم، فقال: أيُّها القوم، لقد أصبتُم فضلاً على مَن كان قبلكم، أو لقد هلكتم، فجعلوا يتسلَّلون رجلاً رجلاً حتى تركوا بُقعتَهم التي كانوا فيها »[٢].

فالله وحده المستعان، وهو وليُّ التوفيق والسداد.

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٩ ـ ٢٠).

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٤٧٥).

٧٢ ـ أنواع التوسُّل المشروع

إنَّ مِن آداب الدعاء العظيمة التوسلَ إلى الله تبارك وتعالى بين يدي الدعاء بما شرعه وأحبَّه ورضيَه لعباده وسيلةً تقرِّبهم إليه، يقول الله تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيلَةَ**}[١]، أي: القُربة، ومن المعلوم أنَّ التوسلَ إلى الله والتقرُّبَ إليه وطلَبَ مرضاته إنَّما يكون بما شرع وأحبَّ، لا بالأهواء والبِدع، وهذا بابٌ هامٌّ للغاية ينبغي للمسلم أن يتفطَّن له، وأن يحذرَ من الوقوعِ في المخالفةِ فيه؛ إذ إنَّ من الناسِ مَن يقعُ في هذا البابِ في مخالفات عديدةٍ وانحرافاتٍ متنوِّعةٍ، وهو يظنُّ أنَّ ما يفعله أمرٌ يُقرِّبه إلى الله، ووسيلةٌ تدنيه منه، إلاَّ أنَّ التوسُّلَ إلى الله والتقرُّبَ إليه لا يكون نافعاً للعبد مقبولاً عند الله إلاَّ إذا كان مشروعاً قد دلَّ على مشروعيَّته كتابُ الله وسنةُ رسوله ﷺ، وعند التأمُّل للنصوص في هذا نجد أنَّها قد دلَّت على أنواع معيَّنةٍ يُشرع للعباد أن يتوسَّلوا إلى الله بها، وهي:

أولاً: التوسُّلُ إلى الله بأسمائه الحسنى الواردة في كتابه وسنة رسوله ﷺ، كما قال الله تعالى: {**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**}[٢]، وقال تعالى: {**قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّامًا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى**}[٣].

ومن أمثلة هذا النوع قوله تعالى: {**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الحَمْدُ للهِ**

(١) سورة المائدة، الآية: (٣٥).
(٢) سورة الأعراف، الآية: (١٨٠).
(٣) سورة الإسراء، الآية: (١١٠).

رَبِّ العَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} إلى آخر السورة، فقدَّم بين يدي الدعاء وهو قوله: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} الثناءَ على الله بذِكر أسمائه الحسنى العظيمة، ومِن ذلك أيضاً قولُ الداعي: يا رحمن ارحمني، أو يا غفور اغفر لي، أو يا رزاق ارزقني، ونحو ذلك من التوسلات إلى الله بأسمائه الحسنى.

ثانياً: التوسل إلى الله تعالى بالأعمال الصالحةِ التي يقوم بها العبدُ، كأن يتوسَّل إلى الله بالإيمان به وطاعته واتِّباع رسوله ﷺ ومحبَّته، ومن هذا النوع قولُ الله تعالى: {**الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**}[1]، وقوله: {**رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ**}[2]، ومِن ذلك توسُّل النفر الثلاثةِ بأعمالهم عندما انطبقت عليهم الصخرة وهم في الغار، فاستجاب الله دعاءَهم وفرج همَّهم، روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: « بينما ثلاثة نَفَرٍ يتَمَشَّوْنَ أخذَهم المطرُ، فأَوَوا إلى غار في جبل فانحطت على فمِ غارِهم صخرةٌ من الجبل، فانطبقت عليهم، فقال بعضُهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتُمُوها صالحةً لله، فادعوا الله تعالى بها لعلَّ الله أن يفرِّج عنكم، فقال أحدهم: اللَّهمَّ إنَّه كان لي والدان شيخان كبيران، وامرأتي ولِي صِبْيةٌ صغارٌ أرعى عليهم، فإذا أرحتُ عليهم حلبتُ، فبدأتُ بوالديَّ فسقيتُهما قبل بَنِيَّ، وإنَّه نأى بي

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٦).
(٢) سورة آل عمران، الآية: (١٩٣).

ذات يومٍ الشجر، فلم آت حتى أمسيتُ، فوجدتُهما قد ناما، فحلبتُ كما كنتُ أحلبُ، فجئتُ بالحِلابِ فقمتُ عند رؤوسِهما، أكره أن أوقظَهما من نومِهما، وأكره أن أسقيَ الصِبيةَ قبلهما، والصِبيةُ يتَضَاغون عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبَهُم حتى طلع الفجرُ، فإن كنتَ تعلم أنِّي فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك فافرج لنا منها فرجةً، نرى منها السماء، ففرَج الله منها فرجةً فرأوا منها السَّماءَ.

وقال الآخرُ: اللَّهمَّ إنَّه كانت لي ابنةُ عمٍّ أحببتها كأشدِّ ما يحبُّ الرجالُ النساءَ، وطلبتُ إليها نفسَها فأبَت حتى آتيها بمائة دينار، فتعبتُ حتى جمعتُ مائةَ دينار، فجئتها بها، فلمَّا وقعت بين رجليها قالت: يا عبدَ الله اتَّقِ اللهَ ولا تفتح الخاتَم إلاَّ بحقِّه، فقُمتُ عنها، فإن كنتَ تعلمُ أنِّي فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك فافرج لنا منها فرجةً ففرج لهم.

وقال الآخرُ: اللَّهمَّ إنِّي كنتُ استأجرتُ أجيراً بفَرَق أَرُزٍّ، فلمَّا قضى عملَه قال: اعطني حقِّي، فعرضتُ عليه فرقَه، فرغب عنه، فلم أزَل أزرعه حتى جمعتُ منه بقراً ورِعاءَها، فجاءني، فقال: اتَّق الله
ولا تظلمني حقِّي، قلت: اذهب إلى تلك البقر ورِعائِها، فخذها، فقال: اتقِّ الله ولا تستهزئ بي، فقلتُ: إنِّي لا أستهزئ بك، خذ ذلك البقر ورِعاءَها، فأخذه فذهب به، فإن كنتَ تعلم أنِّي فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقي، ففرج الله ما بقي »[1].

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٢٣٣٣)، وصحيح مسلم (رقم:٢٧٤٣).

فهؤلاء توسَّل كلٌّ واحد منهم إلى الله تعالى بعملٍ صالحٍ يحبُّه اللهُ ويرضاه، فكان ذلك سبباً لإجابة دعائهم وتحقيق رجائهم وكشف كربتهم.

ثالثاً: التوسل إلى الله تعالى بدعاء الصالحين الأحياء، بأن يطلب المسلم من أخيه الحيّ الحاضر أن يدعو الله له، فهذا النوع من التوسل مشروعٌ لثبوته عن بعض الصحابة مع النبي ﷺ حيث كان بعضهم يأتيه صلوات الله وسلامه عليه ويطلب منه الدعاء له أو لعموم المسلمين، ومن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ أعرابياً قام يوم الجمعة والنبيُّ ﷺ يخطب فقال: يا رسول الله! هلك المالُ وجاع العيالُ، فادع اللهَ لنا، فرفع يديه ـ وما نرى في السماء قَزَعَة ـ فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثمَّ لَم ينزل عن مِنبره حتى رأيتُ المطرَ يتحادر على لحيته ﷺ .. »، إلى آخر الحديث، ومثله كذلك توسل الصحابة رضي الله عنهم بدعاء العباس رضي الله عنه، وهو في صحيح البخاري من حديث أنس رضي الله عنه « أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قُحطوا استسقى بالعباس ابن عبد المطلب، فقال: اللهمّ إناَّ كناَّ نتوسّل إليك بنبيِّنا ﷺ فتسقينا، وإناَّ نتوسّل إليك بعمِّ نبيِّنا فاسقنا، قال: فيسقون »[(١)].

والمراد بقوله « إناَّ نتوسّل إليك بعمِّ نبيِّنا » أي بدعائه.

فهذه الأنواع الثلاثة من التوسل كلُّها مشروعة لدلالة نصوص الشرع عليها، وأمّا ما سوى ذلك مما لا أصل له، ولا دليل على مشروعيته فينبغي على المسلم أن يجتنبه، والله الموفِّق.

---

(١) صحيح البخاري (رقم:١٠١٠).

* * *

٧٣ ـ التحذير من الانحراف في فهم معنى التوسُّل

تقدم الحديث عن التوسل أو ابتغاء الوسيلة إلى الله وهو لفظ شرعي ورد في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيلَةَ**}[(١)]، وقوله: {**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رِبِّهِم الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا**}[(٢)].

وهذه الوسيلةُ التي أمر الله أن تُبتَغى إليه وأَخبَر عن ملائكتِه وأنبيائِه أنَّهم يَبتغونها إليه، وهي ما يُتقرَّب به إليه من الواجبات والمستحبات، وما ليس بواجبٍ ولا مستَحبٍّ لا يدخل في ذلك سواء كان مُحرَّماً أو مكروهاً أو مباحاً.

والواجب والمستحبُّ هو ما شرعه الرسول ﷺ فأَمر به أَمرَ إِيجابٍ أو استحبابٍ، وأصلُ ذلك الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ ، ولهذا يُمكن أن يُقال إنَّ جماع الوسيلة التي أمر الله الخلق بابتغائها هو التوسل إليه باتِّباع ما جاء به الرسول ﷺ ، لا وسيلة لأحد إلى الله إلاَّ بذلك.

وسبق الإشارةُ إلى أنواعٍ ثلاثةٍ من التوسُّلِ قام الدليلُ على مشروعيَّتِها في دعاء المسلم لربِّه، وهي التوسُّلُ إلى الله بأسمائه، والتوسُّلُ إليه بالأعمال الصالحة، والتوسُّلُ إليه بدعاء الصالحين الأحياء. لكن ينبغي على المسلم أن

---

(١) سورة المائدة، الآية: (٣٥).

(٢) سورة الإسراء، الآية: (٥٧).

يعلم أنَّ لفظ الوسيلة والتوسل صار فيه إجمالٌ واشتباه في إطلاقات الناس وفهومهم بسبب كثرة الأهواء وانتشار البدع، ولهذا فإنَّ الواجبَ أن تُعرف معانيه ويُعطى كلُّ ذي حقٍّ حقَّه، فيُعرف ما ورد به الكتابُ والسنة من ذلك ومعناه، وما كان يتكلّم به الصحابةُ ويفعلونه من ذلك، وأيضاً ينبغي أن يُعرف ما أحدثه المحدِثون في هذا اللفظ ومعناه، إذ إنَّ المفاهيم الخاطئة في هذا الباب قد كثُرت، والأهواء والبدع فيه عمّت وانتشرت، فأُدخل في معنى التوسل أمورٌ كثيرةٌ محدثةٌ لا أصل لها ولا أُسُسَ، لَم تكن موجودةً زمن النبي ﷺ، ولم تكن معروفةً في شيء من الأدعية المشهورة بينهم.

وأخطرُ ما كان ويكون في هذا الأمرِ هو دعاءُ الأموات والغائبين والاستغاثةُ بهم وسؤالُهم وإنزالُ الحوائج بهم، وطلبُهم قضاءَ الحاجات، وكشفَ الكربات، وشفاءَ المرضى ونحو ذلك، وتسميّة ذلك توسلاً، فجعل هؤلاء لفظ التوسل متكأً لهم نشروا من خلالِه هذه الأمور الكفرية والضلالات الخطيرة، وحقيقةُ هذه الأمور أنَّها توسُّلٌ إلى الشيطان لا إلى الرحمن وإلى الضلال والباطل لا إلى الحقِّ والهُدى؛ إذ هي من الشرك الأكبر الناقل من الملّة والعياذ بالله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « وإن قال أنا أسأله لكونه أقربَ إلى الله منّي، ليشفع لي في هذه الأمور؛ لأنّي أتوسل إلى الله به كما يُتوسَّل إلى السلطان بخواصِّه وأعوانه، فهذا من أفعال المشركين والنصارى، فإنَّهم يزعمون أنَّهم يتخذون أحبارَهم ورهبانهم شفعاء يستشفعون بهم في مطالبهم، وكذلك أخبر الله عن المشركين أنَّهم قالوا {**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا**

إِلَى اللهِ زُلْفَى}[١]، وقال سبحانه وتعالى: {**أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلاَ يَعْقِلُونَ قُل للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**}[٢]، وقال تعالى: {**مَا لَكُمْ مِن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ**}[٣]، وقال تعالى {**مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**}[٤]، فبيّن الفرقَ بينه وبين خلقِه، فإنَّ مِن عادةِ الناس أن يستشفعوا إلى الكبير من كبرائهم بمن يكرُمُ عليه فيسأله ذلك الشفيع، فيقضي حاجتَه إما رغبة وإما رهبةً وإما حياءً وإما مَوَدَّةً وإما غير ذلك، والله سبحانه لا يشفعُ عنده أحدٌ حتى يأذن هو للشافع، فلا يفعلُ إلاَّ ما شاء، وشفاعةُ الشافع من إذنه فالأمر كلُّه له »[٥] اهـ كلامه رحمه الله.

إنَّ تسميةَ هذه الأمور الشركية توسلاً لا يغيّر من حقيقة الأمر، ولا يغني من الحقِّ شيئاً، فمجرَّدُ الاختلافِ في التسمية لا يؤثر تحليلاً ولا تحريماً، فالحلال لو سمّاه أحدٌ بغير اسمه لا يصبح حراماً، والحرام إذا سمّاه أحد بغير اسمه لا يصبح حلالاً، فمَن أطلق على الخمر غيرَ اسمِها وشَرِبَها كان حكمُه حكمَ مَن شرِبَها وهو يُسَمِّيها باسمها بلا خلاف بين المسلمين.

ولا شك أنَّ الدعاءَ من جملة العبادات، بل هو أفضل أنواع العبادة، فصَرْفُه لغير الله شرك، وتسمية ذلك توسلاً لا يغير من حقيقة الأمر شيئاً،

---

(١) سورة الزمر، الآية: (٣).
(٢) سورة الزمر، الآيات: (٤٣ ، ٤٤).
(٣) سورة السجدة، الآية: (٤).
(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٥٥).
(٥) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٧٢ ـ ٧٣).

فمن دعا المخلوقين من الموتى والغائبين واستغاث بهم كان مشركاً بالله العظيم وخسر الخسران المبين.

ولقد فتح هؤلاء بهذه الضلالات الطريق أمام أعداء الدين لنشر ضلالهم، وإنفاذ باطلهم، والدفاع عن عقائدهم، والكيد للمسلمين، وإليكم قصةً عجيبةً فيها تجليةٌ لهذا الأمر وبيانٌ لخطورته: لقي ثلاثةٌ من الرهبان شيخَ الإسلام ابن تيمية فناظرهم رحمه الله وأقام عليهم الحجةَ بأنَّهم كفار، وأنَّهم ليسوا على ما كان عليه إبراهيم وعيسى عليهما السلام، فقالوا له: نحن نعمل مثل ما تعملون: أنتم تقولون بالسيدة نفيسة، ونحن نقول بالسيدة مريم، وقد أجمعنا نحن وأنتم على أنَّ المسيح ومريم أفضل من الحسين ومن نفيسة، وأنتم تستغيثون بالصالحين الذين قبلكم ونحن كذلك. فانظر أخي المسلم كيف فتح هؤلاء الطريق أمام أعداء الدين عندما شابهوهم في العمل وابتعدوا عن روح الإسلام وحقيقته.

ولهذا أجاب شيخ الإسلام هؤلاء الرهبان بقوله: إنَّ مَن فعل ذلك ففيه شبهٌ منكم، وهذا ما هو دينُ إبراهيم الذي كان عليه، فإنَّ الدين الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام أن لا نعبد إلاَّ الله وحده لا شريك له ولا نِدَّ له ولا صاحبة ولا ولد له، ولا نشرك معه ملكاً ولا شمساً ولا قمراً ولا كوكباً، ولا نشرك معه نبياً من الأنبياء ولا صالحاً، وذكر رحمه الله أموراً بيّن فيها حقيقةَ توحيد الأنبياء والمرسَلين بخلاف ما عليه أولئك المبطلون، فلما سمع الرهبان ذلك قالوا له: الدينُ الذي ذكرته خيرٌ من الدين الذي نحن وهؤلاء

عليه، ثمّ انصرفوا من عنده[1].

فهذه القصة فيها عظة وعبرة وفوائد متنوِّعة، أهمُّها ضرورة العناية بدين الله عزَّ وجلَّ كما جاء ووَرَد، بعيداً عن انحراف المُضلِّين وضلال المُبطِلِين، والله وحده المستعان.

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٣٧٠ ـ ٣٧١).

٧٤ ـ من التوسُّل الباطل دعاء الصالِحين من دون الله

لقد تقدَّم معنا الكلامُ على التوسُّل وبيانُ معناه الصحيح الثابتِ في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكذلك سبق الإشارةُ إلى وجود جملةٍ من المفاهيم الخاطئةِ والتقريرات الفاسدة شاعت بين بعض الناسِ ظنُّوها من التوسلِ المشروعِ المقرِّبِ إلى الله عزَّ وجلَّ، وربَّما أيضاً حَمل بعضَهم حبُّهم للأولياء والصالحين على تعظيمهم تعظيماً غيرَ مشروع بالاستغاثةِ بهم، ودعائهم مِن دون الله، وإنزال الحاجات بهم، وتسميةُ ذلك توسُّلاً.

إنَّ من الواجب على المسلمِ في هذا الباب العظيم أن يعرف للأولياء والصالحين قدرَهم ومكانتَهم ومنزلتَهم دون أن يحمله ذلك على الغلوِّ فيهم؛ إذ إنَّ الغلوَّ في الأولياء والصالحين أصلُ الشرك وسببُه في قديم الزمان وحديثه، لقرب الشرك بهم من النفوس، فإنَّ الشيطان يُظهرُ ذلك في قالب المحبَّة والتعظيم والاحترام والتوقير للأولياء والصالحين.

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: {**وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا**}[١]، قال: « هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلمَّا هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسّخَ العلمُ عُبدت »[٢].

---

(١) سورة نوح، الآية: (٢٣).
(٢) صحيح البخاري (رقم:٤٩٢٠).

وبهذا يتبيَّن أنَّ الشيطانَ يتنقَّلُ بهؤلاء في طريق الباطل عبر مراتبَ عديدة، ودرجات متنوِّعة إلى أن يصلَ بهم إلى غايةِ الباطلِ ومنتهاه، فيبدأ معهم عدوُّ الله أولاً بدعوتهم إلى تعظيم الصالحين تعظيماً مبتدعاً بالبناء على قبورهم أو اتخاذ تصاويرَ لهم أو نحوِ ذلك، فإذا فعلوا ذلك نقلَهم إلى ما هو أعظمُ من ذلك، وهو الإقسام على الله بهم، وشأنُ الله أعظمُ مِن أن يُقسم عليه أو يُسأل بأحد مِن خلقه، فإذا تقرَّر ذلك عندهم نقلَهم مِن ذلك إلى دعائِهم وعبادتِهم وسؤالهم الشفاعةَ مِن دون الله واتخاذِ قبورهم أوثاناً يُعكفُ عليها، وتُعلَّقُ عليها القناديلُ والستورُ، ويُطاف بها وتستلم وتُقبَّل ويحجُّ إليها ويُذبحُ عندها، فإذا تقرَّر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادتها واتخاذها عيداً ومَنسكاً ورأوا أنَّ ذلك أنفعُ لهم في دنياهم وأُخراهم. فإذا تقرَّر ذلك عندهم نقلهم منه إلى التحذير ممَّن ينهى عن ذلك ووصفِه بأنَّه يتنقَّص الصالحين ويحطُّ من أقدارهم ولا يُعظِّمهم ونحو ذلك، ومعلوم أنَّ ذلك ليس من التعظيم في شيء؛ بل من البهتان المبين والكفرِ الصريحِ والضلالِ العظيمِ.

إنَّ بابَ التعظيم عندما لا يُضبطُ بالضوابط الشرعية، ولا يتقيَّدُ فيها بنصوص الكتاب والسنةِ يوقِعُ الإنسانَ في صنوف من الخطأ وأنواع من الضلال، يتوهَّمُ أنَّها من التعظيم وليست كذلك، والشرعُ المطهَّرُ قد دلَّ على مشروعيةِ تعظيم الأنبياء والأولياء والصالحين في حدودٍ معيَّنةٍ، دون رفعٍ لهم عن منزلتهم التي أنزلهم الله إيَّاها، فمَن عظَّمهم بغير ما حُدَّ في الشرعِ وأتت به الأدلةُ فقد جاء بضدِّ التعظيم ونقيضِه، ولهذا قال الرسول الكريم ﷺ لِمَن أطراه: « أنا محمد بن عبد الله عبدُ الله ورسولُه، والله ما أحبُّ أن ترفعوني

فوق منزلتي التي أنزلني الله عزَّ وجلَّ »[1]، فمَن عظَّمه ﷺ بما لا يُحبُّ فإنَّما أتى بضدِّ التعظيم، والتعظيمُ الحقُّ قد دلَّ عليه الشرعُ ومحلُّه القلب واللسان والجوارح.

أمَّا التعظيمُ بالقلب فهو ما يتبعُ اعتقاد كونِه رسولَ الله من تقديم محبَّتِه على النفس والولد والوالد والناسِ أجمعين، ويُصدِّق هذه المحبَّةَ أمران:

أحدهما: تجريد التوحيد لله سبحانه وتعالى، فإنَّه ﷺ كان أحرصَ الناس على تجريدِه حتى قطع أسبابَ الشركِ ووسائلَه من جميعِ الجهات، فنهى أن يُقال « ما شاء الله وشئتَ »، وأن يُحلف بغير الله، وأخبر أنَّ ذلك شركٌ، ونهى أن يُصلَّى إلى القبورِ، وأن تُتَّخذَ مسجداً أو عيداً، أو أن يُوقد عليها السُرُجَ، أو غير ذلك ممَّا قرَّره ﷺ أتمَّ التقرير بقوله وفِعلِه وهديه، فتعظيمه ﷺ إنَّما يكون بموافقته على ذلك لا بمناقضتِه فيه.

الأمر الثاني: تجريدُ متابعته وتحكيمُه وحده في الدقيق والجليلِ من أصولِ الدين وفروعه، والرضا بحكمه والانقيادُ له والتسليمُ والإعراضُ عمَّن خالفه، وعدمُ الالتفات إليه حتى يكون وحده الحاكمَ المتبَعَ المقبولَ قولُه، كما كان ربُّه تعالى وحده المعبودَ المألوهَ المخوفَ المرجوَّ المستعانَ لا شريك له.

أمَّا تعظيمُه ﷺ باللسان، فيكون بالثناءِ عليه بما هو أهلُه مِمَّا أثنى به على نفسه وأثنى به عليه ربُّه من غير غلوٍّ ولا تقصيرٍ، فكما أنَّ المقصِّرَ المفرِّطَ تاركٌ لتعظيمه، فالغالي المُفْرِط كذلك، وكلٌّ منهم شرٌّ من الآخر من وجهٍ

---

(١) المسند (٣/ ١٥٣)، وصحيح ابن حبان (رقم:٦٢٤٠) من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه العلاَّمة الألباني رحمه الله في الصحيحة (رقم:١٥٧٢).

دون وجه، وأولياؤُه سلكوا بين ذلك قَواماً.

أمَّا التعظيمُ بالجوارحِ فهو العملُ بطاعته والسعيُ في إظهارِ دينِه وإعلاءِ كلماتِه ونصرِ ما جاء به، وبتصديقِه فيما أخبر وطاعتِه فيما أَمَرَ والانتهاءِ عمَّا نهى عنه وزَجَر، والموالاةُ والمعاداةُ والحبُّ والبغضُ لأجلِه وفيه، وتحكيمُه وحده والرضا بحكمِه[1].

فهذا هو مدارُ دينِه عليه الصلاة والسلام، وبهذا يكون تعظيمُه وتوقيرُه، وهذا هو التعظيمُ الحق المطابقُ لحال المعظَّمِ النافعُ للمعظِّم في معاشه ومعاده، خلافاً لِمَن سلكَ في حقِّه ﷺ جانبَ الغلوِّ والإفراطِ، أو جانبَ الجفاءِ والتفريطِ، وكلا هذين قد أضاعوا الواجبَ عليهم تجاه رسولهم الكريم محمد بن عبد الله عليه صلوات الله وسلامه وبركاته.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنَّه قال: « لا تُطروني كما أطرت النصارى عيسى بنَ مريم فإنَّما أنا عبدٌ فقولوا عبد الله ورسوله »، رواه البخاري[2]، ورغم وضوح هذا المنهجِ وبيانه إلاَّ أنَّ أهل الأهواءِ أبوا إلاَّ مخالفةَ أمره وارتكاب نهيه وناقضوه أعظمَ المناقضةِ، وظنُّوا أنَّهم إذا وصفوه بأنَّه عبد الله ورسوله وأنَّه لا يُدعى ولا يُستغاثُ به ولا يُنذرُ له ولا يُطافُ بحُجرتِه ونحو ذلك، أنَّ في ذلك هضماً لجنابه وغضًّا من قدرِه وانتقاصاً من شأنِه، وقد جهل هؤلاء أنَّ التعظيمَ للرسول الكريم ﷺ إنَّما يكون بالمتابعةِ له في هديه ولزومِ نهجه وترسُّمِ خُطاه، لا بالأهواء والضلالات والبدعِ والمنكرات.

---

(١) انظر: الصارم المنكي لابن عبد الهادي (ص:٤٥٢ ـ ٤٥٤).

(٢) صحيح البخاري (رقم:٣٤٤٥).

* * *

٧٥ ـ أوقاتٌ يُستجابُ فيها الدعاء

إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لَمَّا شرع لعبادِه الدعاء ورغَّبهم فيه وحثَّهم عليه ووعدهم عليه الإجابةَ تفضُلاً منه سبحانه وتكرُّماً؛ هيَّأ لهم مع ذلك أمكنةً فاضلةً وأزمنةً فاضلةً، وآداباً عظيمةً يكون حظُّ العبد ونصيبُه من القبول والإجابةِ بحسب حظِّه ونصيبِه من تحقيق تلك الأمور وعنايتِه بها.

ومن الأوقات الفاضلةِ التي يحسن بالمسلمِ أن يتحرَّى دعاءَ الله فيها وقتُ السَّحَر وحين يبقى ثلثُ الليل الأخير، قال الله تعالى: {**وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ**}[1]، وقال تعالى: {**كَانُوا قَلِيلاً مِنَ الَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**}[2]، وثبت في الحديث المتواتر عن النبي ﷺ أنَّه قال: « ينزل ربُّنا تبارك تعالى كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلثُ الليل الآخر، يقول: مَن يدعوني فأستجيب له، مَن يسألني فأعطيَه، مَن يستغفرني فأغفر له »[3].

وهذا الحديث العظيمُ يدلُّ على شرف هذا الوقتِ عند الله وعِظَمَ شأنه عنده، وأنَّه سبحانه لكمال إحسانه وتمام لُطفِه ينزل في ذلك الوقت هو سبحانه بنفسه إلى سماء الدنيا نزولاً حقيقياً يليق به سبحانه، لا يُشبه نزولَ المخلوقين تعالى الله وتنزَّه عن ذلك، ولا يدركُ أحدٌ من المخلوقين كيفيةَ نزوله سبحانه؛ إذ إنَّ كيفيةَ صفاته سبحانه مجهولةٌ للخَلق، كما أنَّ كيفيةَ ذاتِه مجهولةٌ لهم، وليس لأحدٍ أن يخوضَ في شيء من صفات الله ـ لا النزول ولا

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٧).
(٢) سورة الذاريات، الآيات: (١٧ ، ١٨).
(٣) صحيح البخاري (رقم:١١٤٥)، (٦٣٢١)، (٧٤٩٤)، وصحيح مسلم (رقم:٧٥٨).

غيره ـ بتحريف أو تعطيل، أو تكييف أو تمثيل.

والحديثُ دليلٌ على فضلِ هذا الوقتِ المباركِ، وأنَّه أفضلُ أوقات الدعاء والاستغفار والإقبال على الله بالسؤال، وأنَّ الدعاءَ في ذلك الوقت مستجابٌ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « والناس في آخر الليل يكون في قلوبهم من التوجُّه والتقرُّب والرِّقةِ ما لا يوجد في غير ذلك الوقت، وهذا مناسبٌ لنزوله إلى سماء الدنيا، وقوله: هل من داعٍ، هل من سائل، هل من تائب »[1]. اهـ كلامُه رحمه الله.

ومِن الأوقات الفاضلة التي يُستجابُ فيها الدعاء الساعةُ التي في يوم الجمعةِ، فقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ ذَكَر يومَ الجمعة فقال: « فيه ساعةٌ لا يوافقها عبدٌ مسلمٌ قائمٌ يصلِّي يسأل الله تعالى شيئاً إلاَّ أعطاه إياه، وأشار بيده يُقلِّلُها »[2].

وقد اختلف أهلُ العلم في تعيين هذه الساعةِ على أقوالٍ عديدةٍ تُقارب الأربعين قولاً، إلاَّ أنَّ أقواها وأقرَبَها للدليل قولان:

أحدهما: أنَّها ما بين جلوس الإمام على المنبر إلى حين فراغه من الصلاة، وحُجَّةُ هذا القول حديثُ أبي بُردة بن أبي موسى الأشعريِّ: أنَّ عبدَ الله بنَ عمر قال له: أَسَمِعتَ أباك يحدِّث عن رسول الله ﷺ في شأنِ ساعةِ الجمعة شيئاً؟ قال: نعم، سمعتُه يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: « هي

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٣٠ ـ ١٣١).

(٢) صحيح البخاري (رقم:٩٣٥)، وصحيح مسلم (رقم:٨٥٢).

بين أن يجلس الإمامُ إلى أن تُقضى الصلاة »[١].

والقول الثاني: أنَّها بعد العصر إلى غروب الشمس، ومِن أدلةِ هذا القول ما رواه أحمد وابن ماجه في سننه عن عبد الله بن سلام قال: قلتُ ورسول الله ﷺ جالسٌ: إنَّا لنجدُ في كتاب الله (يعني التوراة) في يوم الجمعة ساعةٌ لا يوافقُها عبدٌ مؤمنٌ يصلِّي يسألُ الله عزَّ وجلَّ شيئاً إلاَّ قضى الله له حاجتَه، قال عبد الله: فأشار إليَّ رسول الله ﷺ أو بعض ساعة، قلتُ: صدقتَ يا رسول الله أو بعض ساعة، قلت: أيُّ ساعة هي؟ قال: هي آخرُ ساعة من ساعات النهار، قلتُ: إنَّها ليست ساعةَ صلاةٍ، قال: بلى، إنَّ العبدَ المؤمنَ إذا صلَّى ثمَّ جلس لا يُجلسُه إلاَّ الصلاة فهو في صلاة »[٢].

قال الحافظ ابن حجر وقد سرَدَ الأقوالَ: « ولا شكَّ أنَّ أرجحَ الأقوال المذكورةِ حديثُ أبي موسى وحديثُ عبد الله بن سلام »[٣] اهـ.

ورجَّح ابن القيم رحمه الله في كتابه زاد المعاد القولَ الثاني، وهو أنَّها بعد صلاة العصر، واحتجَّ بحديث عبد الله بن سلام المتقدِّم وأحاديث أخرى وردت في الباب[٤].

ومن الأزمنة الفاضلةِ شهرُ رمضان المبارك، ولا سيما العشرُ الأواخر

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٨٥٣).
(٢) المسند (٥/ ٤٥١)، وسنن ابن ماجه (رقم:١١٣٩)، وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله:
((حديث صحيح، وظاهر سياقه الرفع)). نتائج الأفكار (٢/ ٤١٠).
(٣) فتح الباري (٢/ ٤٢١).
(٤) زاد المعاد (١/ ٣٩٠ ـ ٣٩١).

منه، وخاصة ليلة القدر التي هي خيرٌ من ألف شهر، وقد ثبت في الترمذي وغيره عن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قلتُ يا رسول الله: أرأيتَ إن علِمتُ ليلةَ القدر، ما أقول فيها، قال: قولي « اللَّهمَّ إنَّك عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفْوَ فاعْفُ عنّي »(١).

ومن الأوقات الفاضلة أيضاً والتي ينبغي للمسلم أن يتحرّى فيها الدعاءَ يومُ عرفة، فهو يومٌ فاضلٌ تُستجابُ فيه الدعواتُ وتُغفر فيه الزَّلاَّتُ وتُكفَّر فيه الخطيئات، وقد ثبت في الحديث عن النبي ﷺ أنَّه قال: « أفضلُ الدعاءِ دعاءُ يوم عرفة وأفضل ما قلتُه أنا والنبيون من قبلي لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير »(٢).

ومن الأوقات التي يُرجى فيها قبولُ الدعاء ما بين الأذان والإقامة لِمَا ثبت عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: « الدعاء لا يُردُّ بين الأذان والإقامة فادعوا » أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وغيرهم(٣).

وثبت عن النبي ﷺ أنَّ الدعاء لا يردُّ عند النداء للصلاة، وذلك فيما رواه سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) سنن الترمذي (رقم:٣٥١٣)، وسنن ابن ماجه (رقم:٣٨٥٠)، وصححه الترمذي، والألباني في تخريج المشكاة (رقم:٢٠٩١).

(٢) سنن الترمذي (رقم:٣٥٨٥)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (٤/ ٧، ٨) بمجموع الطرق والشواهد.

(٣) المسند (٣/ ١١٩، ١٥٥)، وسنن الترمذي (رقم:٢١٢)، وسنن أبي داود (رقم:٥٢١)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (رقم:٣٤٠٨).

« ثنتان لا تُرَدَّان، أو قَلَّما تُرَدَّان، الدعاء عند النداء، وعند البأس حين يلحمُ بعضهم بعضاً »[(١)].

ومِمَّا ينبغي للمسلم أن يتحرَّى فيه الدعاءَ أدبار الصلوات المكتوبة، ففي الترمذي وغيره بسند جيِّد عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله أيُّ الدعاء أَسْمَعُ؟ قال: « جوف الليل الآخر، ودُبر الصلوات المكتوبات »[(٢)].

وأوصى صلوات الله وسلامه عليه معاذ بن جبل أن يقول في دبر كلِّ صلاة « اللَّهمَّ أعِنِّي على ذِكْرِك وشُكرِك وحُسنِ عبادتك »[(٣)]، ودبر الصلاة المذكور في هذا الحديث والذي قبله يحتمل قبل السلام وبعده، قال ابن القيم رحمه الله: « وكان شيخُنا ـ يعني ابنَ تيمية رحمه الله ـ يُرجِّح أن يكون قبل السلام، فراجعتُه فيه، فقال: دُبر كلِّ شيء منه كدبر الحيوان »[(٤)].

وبالله التوفيق.

---

(١) سنن أبي داود (رقم:٣٥٤٠)، والمستدرك (١/ ١٩٨)، وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: ((حديث حسن صحيح)). نتائج الأفكار (١/ ٣٨١).

(٢) سنن الترمذي (رقم:٣٤٩٩)، وحسَّنه العلاَّمة الألباني رحمه الله في صحيح سنن الترمذي (رقم:٢٧٨٢).

(٣) المسند (٥/ ٢٤٤)، وسنن أبي داود (رقم:١٥٢٢)، وصحيح ابن حبان (رقم:٢٠٢٠)، وصححه العلاَّمة الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود (رقم:١٣٤٧).

(٤) زاد المعاد (١/ ٣٠٥).

٧٦ ـ أحوالٌ للمسلم يُستجابُ فيها الدعاء

سبق الإشارةُ إلى جُملةٍ من الأوقات الفاضلةِ التي يُرجى فيها قبولُ الدعاء أكثرَ من غيرها؛ إذ إنَّ المسلمَ في كلِّ وقتٍ يدعو اللهَ عزَّ وجلَّ في أيِّ ساعةٍ من ليل أو نهارٍ يرجو أن يتقبَّلَ اللهُ منه، إلاَّ أنَّ هناك أوقاتاً فاضلةً خصَّها الشارعُ بِمزيد فضيلةٍ فكان القبولُ فيها أرجى، والإجابةُ فيها أحرى من غيرها، فينبغي للمسلم أن يتحرَّى فيها الدعاءَ كثلثِ الليل الآخر، وكالساعة التي في يوم الجمعة، وغيرِ ذلك مِمَّا سبق الإشارةُ إليه.

وكما أنَّ هناك أوقاتاً فاضلةً ينبغي أن يتحرَّى المسلمُ فيها الدعاءَ، فكذلك هناك أحوالٌ فاضلةٌ في المسلم يزيد فيها قُربُه من الله وإقبالُه عليه وخشوعُه وخضوعُه واستكانتُه، ينبغي على المسلم أن يكثر فيها الدعاء وأن يعظم فيها الطلب.

ومِن ذلك في الصلاة، عندما يقفُ العبدُ بين يدي الله خاشعاً خاضعاً متذلِّلاً منيباً، ولا سيما حال السجود، فإنَّ العبدَ في سجوده يكون قريباً من ربِّه، فينبغي في هذه الحال أن يُكثرَ من دعاء الله وسؤالِه ومناجاتِه؛ لعِظَمِ قربِه فيه من الله عزَّ وجلَّ، روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: « أقربُ ما يكون العبدُ من ربِّه وهو ساجد، فأكثِروا الدعاء »[١].

وروى مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ النبيَّ ﷺ

(١) صحيح مسلم (رقم:٤٨٢).

قال: « ألاَ إنِّي نُهيتُ أن أقرأَ القرآنَ راكعاً أو ساجداً، فأمَّا الرُّكوعُ فعَظِّموا فيه الرَّبَّ عزَّ وجلَّ، وأمَّا السجودُ فاجتهدوا في الدعاءِ، فقَمِنٌ أن يُستجاب لكم »[(١)]، أي حقيقٌ وجديرٌ أن يُستجاب لكم.

وكذلك يُتحرَّى الدعاء في آخر الصلاة قبل السلام بعد الصلاة الإبراهيمية على النبي ﷺ، فقد روى الإمام أحمد والترمذي والنسائي وغيرُهم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: « كنتُ أصلِّي والنبيُّ ﷺ وأبو بكر وعمر معه، فلمَّا جلستُ بدأتُ بالثناء على الله، ثمَّ الصلاة على النبي ﷺ، ثمَّ دعوتُ لنفسي، فقال النبي ﷺ: سَلْ تُعطه، سل تُعطه »[(٢)].

وروى الترمذي والنسائي وغيرُهما عن فضالةَ بن عبيد رضي الله عنه قال: « سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاتِه لَم يُمجِّد اللهَ ولم يُصلِّ على النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: عجِلتَ أيُّها المصلِّي، ثمَّ علَّمهم رسولُ الله ﷺ، وسَمِعَ رسولُ الله ﷺ رجلاً يصلِّي فمجَّد اللهَ وحمِدَه وصلَّى على النبيِّ ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: ادْعُ تُجب، وسَلْ تُعط »[(٣)].

ومِن الأحوال التي يكون فيها المسلمُ حريًّا بالقبول وإجابة الدعاء، دعوته حال صيامِه، فقد روى البيهقي من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٤٧٩).

(٢) المسند (١/ ٤٤٥)، وسنن الترمذي (رقم:٥٩٣)، والسنن الكبرى للنسائي (رقم:٨٢٥٨)، وحسَّنه العلاَّمة الألباني رحمه الله في تخريج المشكاة (رقم:٩٣١).

(٣) سنن الترمذي (رقم:٣٤٧٦)، وسنن النسائي (٢/ ٤٤)، وصححه العلاَّمة الألباني رحمه الله في صحيح سنن الترمذي (رقم:٢٧٦٥).

ثلاثُ دعواتٍ لا تُردُّ: دعوةُ الوالد، ودعوةُ الصائم، ودعوة المسافر »[(١)].

وكذلك عندما يكون المسلمُ متلبِّساً بإحرامه قاصداً بيتَ ربِّه، يريد الحجَّ أو العمرةَ، فإنَّ هذا من أسبابِ إجابةِ الدعاء، روى ابنُ ماجه في سننه وغيرُه بإسناد حسن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: « الغازي في سبيل الله والحاجُّ والمعتمرُ وَفْدُ الله، دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم »[(٢)].

وأفضلُ ما يكون الدعاء للحاج يوم عرفة، فهو يوم إجابة الدعوات، وإقالةِ العثرات، وتفريج الكربات، وإغاثةِ الملهوفين، وقد ثبت في الحديث عن النبي ﷺ أنَّه قال: « خيرُ الدعاء دعاء يوم عرفة وخير ما قلتُه أنا والنبيُّون من قبلي لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير »[(٣)]؛ إذ في هذا اليوم المبارك يَغشى الناسَ من الإيمان والطمأنينةِ والخشوع والخضوع ما يكون سبباً لقبول دعواتِهم وإقالة عثراتهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: « مِن المعلوم أنَّ الحجيجَ عشية عرفة ينزل على قلوبهم من الإيمان والرحمة والنورِ والبركةِ ما لا يمكن التعبير عنه »[(٤)].

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي (٣/ ٣٤٥)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (رقم:١٧٩٧).

(٢) سنن ابن ماجه (رقم:٢٨٩٣)، وصحيح ابن حبان (رقم:٤٦١٣)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (رقم:١٨٢٠).

(٣) سنن الترمذي (رقم:٣٥٨٥)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (٤/ ٧، ٨) بمجموع الطرق والشواهد.

(٤) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٧٤).

وفي الحجِّ أمكنةٌ خاصةٌ ينبغي للمسلم أن يقفَ بها ويتحرَّى فيها الدعاءَ اقتداءً بالنبي ﷺ، حيث ثبت عنه أنَّه كان يقفُ فيها ويستقبلُ القبلةَ ويدعو الله عزَّ وجلَّ، وهي بالأخصِّ ستة أماكن: في عرفة كما تقدَّم، وفي المَشعر الحرام كما قال الله تعالى: {**فَإِذَا أَفَضتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِندَ المَشْعَرِ الحَرَامِ**}[١]، وقد جاء في حديث جابر رضي الله عنه في صفة حجَّة النبي ﷺ: « أنَّه ركب القصواءَ حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعاه وكبَّره وهلله ووحده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جدًّا، فدفع قبل أن تطلع الشمس »، رواه مسلم[٢].

وكذلك على الصفا والمروة لما ثبت في صحيح مسلم في حديث جابر المتقدِّم: « أنَّ النبي ﷺ كان إذا وقف على الصفا يُكبِّر ثلاثا ويقول: لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير، يصنع ذلك ثلاث مرَّات ويدعو، ويصنع على المروةِ مثلَ ذلك »[٣].

وكذلك بعد رمي الجمرتين الصغرى والوسطى، لما ثبت في صحيح البخاري أنَّ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان يرمي الجمرة الدنيا بسبع حصيات يُكبِّر على إثر كلِّ حصاة ثمَّ يتقدَّم حتى يُسهلَ فيقوم مستقبلَ القبلة، فيقومُ طويلاً يدعو ويرفع يديه، ثمَّ يرمي الوسطى ثمَّ يأخذ ذات الشمال فيسهل ويقومُ مستقبلَ القبلة فيقومُ طويلا ويدعو ويرفع يديه ويقوم

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١٩٨).

(٢) صحيح مسلم (٢/ ٨٩١).

(٣) انظر: صحيح مسلم (٢/ ٨٨٨).

طويلاً، ثمَّ يرمي جمرة العقبة من بطن الوادي ولا يقف عندها، ثمَّ ينصرف فيقول: هكذا رأيتُ النبيَّ ﷺ يفعله »[1].

فهذه ستة مواضع ثبت أنَّ النبي ﷺ يقف فيها ويتحرَّى الدعاء ويرفع يديه، وعموماً فالدعاءُ له شأنٌ عظيم في الحج والصلاة والصيام، بل له شأنٌ بالغٌ في العبادات كلِّها، بل هو روحُ العبادة ولُبُّها.

* * *

(١) صحيح البخاري (رقم:١٧٥١).

٧٧ ـ مَن تُستجابُ دعوتُهم

تقدم معنا الإشارةُ إلى أوقاتٍ وأحوالٍ تُجاب فيها الدعوات، وهي أوقاتٌ وأحوالٌ فاضلة يزداد فيها قُربُ العبدِ من ربِّه ويَعْظُم إلْحاحُه عليه، ويَقوى إقبالُه وقربه وإخلاصه، وفي السنة النبوية المباركة إشاراتٌ إلى أمور عديدة من هذا القبيل يُنبِّه فيها رسولُ الله ﷺ أنَّ من كان كذلك فإنَّ دعوتَه لا تُردُّ.

ولَعلِّي أشير هنا إلى جملةٍ من نصوص السنة الواردة فيمن لا ترد دعوتهم.

فمِمَّا ورد في السنة أنَّ دعوتهم لا ترد: الصائم حتى يفطر، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد لولده أو عليه، ودعوة المظلوم، ففي السنن الكبرى للبيهقي من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً: « ثلاثُ دعواتٍ لا تُردُّ: دعوةُ الوالد، ودعوةُ الصائم، ودعوة المسافر »[1].

وروى الترمذي وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ثلاثُ دعوات يستجاب لهنّ لا شكّ فيهنَّ: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد لولده »[2]، وقد رواه الإمام أحمد في

(١) السنن الكبرى للبيهقي (٣/ ٣٤٥)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (رقم:١٧٩٧).

(٢) سنن أبي داود (رقم:١٥٣٦)، وسنن ابن ماجه (رقم:٣٨٦٢)، وسنن الترمذي (رقم:١٩٠٥)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (رقم:٥٩٦).

مسنده بلفظ « دعوة الوالد على ولده »[(١)].

ومِمَّا ورد أيضاً في دعوة المظلوم حديثُ ابن عباس رضي الله عنهما في ذكر بعثة النَّبِيِّ ﷺ معاذاً إلى اليمن وفيه: « واتقِ دعوة المظلوم فإنَّها ليس بينها وبين الله حجاب »[(٢)].

وكُتُب السير والأخبار مليئةٌ بذكر الوقائع والشواهد على ذلك، ومِن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن عروة بن الزبير: أنَّ أروى بنت أويس ادَّعت على سعيد بن زيد أنَّه أخذ شيئاً من أرضها فخاصمته إلى مروان بن الحكم فقال سعيدٌ: أنا كنتُ آخذُ من أرضها شيئاً بعد الذي سمعتُ من رسول الله ﷺ؟ قال: وما سمعتَ من رسول الله ﷺ؟ قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « مَن أخذ شبراً من الأرض ظلماً طُوِّقه إلى سبع أرضين »، فقال له مروان: لا أسألك بيِّنة بعد هذا. فقال: اللَّهمَّ إن كانت كاذبةً فعمِّ بصرَها واقتلها في أرضها، قال: فما ماتت حتى ذهب بصرُها، ثمَّ بَيْنَا هي تمشي في أرضِها إذ وقعت في حُفرة فماتت »[(٣)].

وكذلك دلّت السنة أنَّ دعوةَ المسلم لأخيه المسلمِ بظهر الغيب لا تُرَد، ففي صحيح مسلم عن أم الدرداء رضي الله عنها: أنَّها قالت لصفوان أتريد الحج العام؟ قال: فقلت: نعم، قالت فادعُ الله لنا بخير فإنَّ النبي ﷺ كان يقول: « دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابةٌ، عند رأسه مَلَكٌ كلَّما

(١) المسند (٢/ ٢٥٨).
(٢) صحيح البخاري (رقم:٢٤٤٨).
(٣) صحيح مسلم (٣/ ١٢٣١).

دعا لأخيه بخير قال المَلَكُ الموكَّلُ به: آمين، ولك بمثل »[١].

وروى مسلم في صحيحه عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنَّه قال: « ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلاَّ قال المَلَك ولك بمثل »[٢].

ومِمَّا ورد في السنة في إجابة الدعاء ما ثبت في صحيح البخاري عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « من تعارَّ من الليل فقال: لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير، الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلاَّ الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله، ثمَّ قال: اللهمّ اغفر لي أو دعا استُجيب له، فإن توضأ وصلّى قُبلت صلاتُه »[٣].

وروى أبو داود في سننه، وأحمد في المسند، وغيرُهما عن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « ما من مسلم يبيت على ذكر الله طاهراً فيتعارَّ من الليل فيسأل الله خيراً من الدنيا والآخرة إلاَّ أعطاه الله إيّاه »[٤].

والعبدُ كلَّما كان قريباً من الله مطيعاً له محافظاً على أوامره كان حرياً بالإجابة والقبول في دعواته ومناجاته لربّه، وقد ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله تعالى قال: مَن

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٢٧٣٣).
(٢) صحيح مسلم (رقم:٢٧٣٢).
(٣) صحيح البخاري (رقم:١١٥٤).
(٤) سنن أبي داود (رقم:٥٠٤٢)، والمسند (٥/ ٢٣٤، ٢٤١، ٢٤٤)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (رقم:٥٧٥٤).

عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذ بي لأعيذنَّه، وما ترددتُ عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته »[1].

وكذلك عندما يُقبِل العبد على الله إذا مسّه الضرُّ بصدقٍ وإخلاصٍ وشدّة رغبةٍ فإنَّ دعاءَه لا يُردّ، والله يقول: {**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**}[2]، قال بعض أهل العلم في هذه الآية:

« ضَمِن الله تعالى إجابةَ المضطر إذا دعاه، وأخبرَ بذلك عن نفسه، والسببُ في ذلك أنَّ الضرورةَ إليه باللَّجَأ ينشأ عن الإخلاص وقطع القلب عما سواه، وللإخلاص عنده سبحانه موقعٌ وذمّةٌ وُجِدَ من مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر »[3].

ودعوةُ ذي النون عليه السلام التي دعا بها في بطن الحوت لها شأنٌ عظيمٌ في الإجابة والقبول، قال الله تعالى: {**وَذَا النُّون إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ**

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٦٥٠٢).

(٢) سورة النمل، الآية: (٦٢).

(٣) تفسير القرطبي (١٣/ ١٤٨).

الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي المُؤْمِنِينَ}[١]، وقد ثبت في السنة أنَّ هذه الدعوةَ العظيمة المباركة لا يدعو بها مسلم في شيء إلاّ استجاب الله له، روى الترمذي وغيره عن رسول الله ﷺ قال: « دعوةُ ذي النون إذ دعا بها وهو في بطن الحوت: لا إله إلاَّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لَم يَدْعُ بها رجل في شيء قط إلاَّ استجاب الله له »[٢].

وإذا ضمّ العبدُ إلى ذلك التوسلَ إلى الله بأعمالِه الصالحة التي قام بها في حياته متقرِّباً بها إلى الله طالباً بها مرضاته لَم تُردَّ له دعوة كما هو الشأن في النفر الثلاثة الذين أطبقت عليهم الصخرة وهم في الغار فتوسَّلَ كلُّ واحد منهم بعمل من أعماله الصالحة حتى فرّج الله عنهم بذلك وقد مضت قصّتهم كاملة.

فتقرُّبُ العبد إلى الله وإكثارُه من الأعمال الصالحة وإقبالُه على ربِّه بما يرضيه هو أعظمُ أسباب القبول وأهمُّ دواعي الإجابة، والتوفيق بيد الله وحده.

---

(١) سورة الأنبياء، الآيات: (٨٧ ، ٨٨).

(٢) سنن الترمذي (رقم:٣٥٠٥)، والمسند (١/ ١٧٠)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (رقم:٣٣٨٣).

٧٨ ـ التحذيرُ من الأدعية المبتدعة

إنَّ الدعاءَ طاعةٌ عظيمةٌ وعبادةٌ جليلةٌ يلزم المسلمَ فيها ـ شأن جميع العبادات ـ التقيّدُ بهدي الرسول الكريم ﷺ، ولزوم سنّته، واتباعُ طريقته، وسلوكُ سبيله، فإنَّ خيرَ الهدي وأكملَه وأقومَه هدي محمد ﷺ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقول كلَّ جمعة إذا خطب الناس:

« أما بعد فإنَّ أصدق الحديث كتابُ الله وخيرَ الهدي هدي محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها وكلَّ محدثة بدعة وكلَّ بدعة ضلالة وكلَّ ضلالة في النار »[1]، ولذا فإنَّ الواجب على كلِّ مسلم أن يحذر أشدَّ الحذر من المحدثات في الدين، ويلزم في جميع أمور دينه هديَ سيِّد الأنبياء والمرسَلين.

إنَّ هديَ النبي ﷺ في الدعاء هديٌ كاملٌ لا نقصَ فيه بوجه من الوجوه، فلم يَدَعْ ﷺ شيئاً من الخير والفائدة المتعلّقةِ بالدعاء إلاَّ بيّنها على أتمِّ الوجوه وأكملِها وأوفاها كما هو شأنه صلوات الله وسلامه عليه في جميع جوانب الدين، ولم يمت ﷺ حتى أنزل الله قوله: {**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا**}[2]، ومَن يتأمّل هديَه ﷺ في الدعاء يجدُه هدياً كاملاً وافياً شاملاً لا نقصَ فيه، فبيّن للأمَّة الأدعيةَ المتعلّقة بالأوقات المعيّنة أو الأمكنة المعيّنة أو الأحوال المعيّنة، ووضّح المطلق من الدعاء والمقيّد، وقد سبق ذكرُ بعض ما ورد عنه مما يتعلّق بالأوقات الفاضلة

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٨٦٧).
(٢) سورة المائدة، الآية: (٣).

التي يُستحَبُّ للمسلمين أن يتحرّوا فيها الدعاءَ، وسبق ذكرُ ما ورد عنه من بيان للأمكنة الفاضلة التي يستحب تحري الدعاء فيها، وكذلك سبق الإشارةُ إلى جملة من الأحوال الفاضلة التي يكون عليها المسلم فيستحب له فيها تحري الدعاء؛ لعِظَم قربه فيها من الله وشدَّةِ إخباته وخضوعه وذُلِّه.

وقد اشتملت أدعيةُ النبيِّ ﷺ الثابتةُ عنه جميعَ أحوال الناس من سرورٍ أو حزنٍ، وصحةٍ أو سقمٍ، ونعمةٍ أو مصيبةٍ، وسفرٍ أو إقامة وغير ذلك، فدلَّ أمّتَه ﷺ في ذلك كلِّه إلى خير ما ينبغي أن يقولوه في جميع تلك الأحوال، ولَم يَدَعْ ﷺ شيئاً من الدعاء المقرِّب إلى الله والموصِل إلى الخير والسعادة في الدنيا والآخرة إلاَّ بيَّنه للأمَّة تاماً كاملاً، كيف لا وهو القائلُ صلوات الله وسلامه عليه: « ما بَعث الله من نبِيٍّ إلاَّ كان حقاً عليه أن يدلَّ أمَّتَه على خير ما يعلمه لهم، ويُنذِرهم شرّ ما يعلمه لهم »، رواه مسلم[1].

وإنَّ من العجب حقاً أن يَدَعَ بعضُ عوامِّ المسلمين الأدعيةَ الصحيحةَ الثابتةَ عن رسول الله ﷺ وهي مجموعة في كتبٍ كثيرة معتَبَرةٍ مُتداوَلَة بين المسلمين ويُقْبِلوا على أدعيةٍ مُحْدَثَةٍ مُبتدَعَةٍ أنشأها بعضُ المتكلِّفِين، وكتبَها بعضُ المتخرِّصين دون تعويلٍ على الكتاب والسنة، ودون اعتبارٍ لِهَدْيِ خيرِ الأمَّةِ صلوات الله وسلامه عليه، فشَغَلُوا بذلكَ الناسَ عن السُّنَنِ وأوقَعوهم في البدعِ، وفي مثل هذا يقولُ بعضُ السَّلف: « ما ابتدع قومٌ بدعةً في دينهم إلاَّ نَزَع الله من سنَّتِهم مثلَها، ثمّ لا يُعيدُها إليهم إلى يوم القيامة »[2]، وكيف

(١) صحيح مسلم (رقم:١٨٤٤).
(٢) سنن الدارمي (١/ ٨٥)، والمصنف لعبد الرزاق (١/ ٩٣).

يليق بمسلم يعرفُ فضلَ الرسول ﷺ وقَدْرَه ونُصْحَه لأمَّته، ثمَّ مع ذلك يَدَعُ هديَه وأدعِيتَه العظيمة المبارَكة، ويُقْبِلُ على أدعيةِ وكتبِ هؤلاء المتخرِّصين المتَكَلِّفين.

قال أبو بكر محمد بن الوليد الطَرْطُوشيُّ صاحبُ كتاب الحوادث والبدع: « ومِن العَجب العُجاب أن تُعرِضَ عن الدعوات التي ذَكَرها الله في كتابه عن الأنبياء والأولياء والأصفياءِ مقرونةً بالإجابةِ، ثمَّ تنتقي ألفاظَ الشُّعراء والكتَّاب، كَأَنَّك قد دعوتَ في زعمِك بجميع دعواتِهم ثمّ استعنتَ بدعوات مَن سواهم »[1].

ويقول الإمام القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: {**إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**} وهو يذكر جملة من أنواع الاعتداء في الدعاء: « ومنها أن يدعو بما ليس في الكتاب والسنة فيتخيّر ألفاظاً مفقرةً، وكلماتٍ مسجَّعةً، قد وجدها في كراريس، لا أصل لها ولا معوّل عليها فيجعلها شعارَه، ويترك ما دعا به رسوله ﷺ، وكلُّ هذا يَمنع من استجابة الدعاء »[2].

وإنَّ أشدَّ ما يكون في هذا الأمر خطورةً أنَّ بعضَ هذه الأدعية المؤلّفةِ مشتملةٌ على ألفاظٍ كفرية واستغاثات شركية وشطط بالغ، قال أبو العباس أحمدُ بن إدريس القرافي بعد أن ذكر أنَّ الأصلَ في الدعاء التوقف، وذكر أنواعاً من الأدعية الكفرية الناقلة من الملّة الإسلامية:

(١) الفتوحات الربانية لابن علان (١/ ١٧).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٤٤).

« إذا تقرّر هذا فينبغي للسائلِ أن يحذرَ هذه الأدعيةَ وما يجري مجراها حَذراً شديداً؛ لما تؤدي إليه من سَخطِ الدَّيَّان والخلودِ في النيران وحبوط الأعمال وانفساخ الأنكحة واستباحة الأرواح والأموال، وهذا فسادٌ كلّه يتحصل بدعاء واحد من هذه الأدعية ولا يرجع إلى الإسلام، ولا ترتفع أكثر هذه المفاسد إلاَّ بتجديد الإسلام، والنطق بالشهادتين؛ فإن مات على ذلك كان أمره كما ذكرناه، نسأل الله تعالى العافية من موجبات عقابه »[1].

إنَّ الواجب على كلِّ مسلم أن يَحذر أشدّ الحَذر من مِثل هذه الأدعيةِ التي أَحْدَثَها بعضُ شيوخ الضلال وأئمّة الباطلِ، فصدُّوا بها الناسَ عن هَدْيِ النبي ﷺ وصرَفُوهم بها عن سنَّتِه، فضَلُّوا وأضَلُّوا كثيراً وضَلُّوا عن سواء السبيل، وإنَّ المسلم الفَطِن ليتساءل في هذا المقام ما الذي دعا أولئكَ إلى ابتكار تلك الأدعيةِ واختراعِ تلك الأورادِ رَغم ما فيها من ضلال وباطل، فلا يَجِد جواباً على ذلك إلاَّ أنَّ أولئك يريدون أكلَ أموال الناس بالباطل وتكثيرَ الأتباع والمريدين، وقد سبق أن مرَّ معنا قولُ معاذ بن جبل رضي الله عنه: « إنَّ من ورائكم فتناً يكثر فيها المال ويُفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق، والرجل والمرأة، والصغير والكبير، والعبد والحرُّ، فيوشكُ قائلٌ أن يقول ما للناس لا يتبعوني وقد قرأتُ القرآن؟ ما هم بمتبعيَّ حتى أبتدع لهم غيرَه، فإيّاكم وما ابتدع، فإنَّ ما ابتدع ضلالةٌ »[2]، رواه أبو داود في سننه والآجري في الشريعة، فمِن هؤلاء يجب أن يكون المسلم على حَذَرٍ بالغٍ

(١) الفروق للقرافي (٤/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥).

(٢) سنن أبي داود (رقم:٤٦١١)، والشريعة (رقم:٩٠، ٩١)، وصححه العلاَّمة الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود (رقم:٣٨٥٥).

وحَيْطَةٍ كاملة، وليلزم السُّنَّةَ، وليتبِّع سبيلَ أهلِها، ففي ذلك السلامة والفلاح.

* * *

٧٩ ـ خطورة دعاة الباطل وأئمَّة الضلال

لقد تضافرت الأدلّةُ وكثرت النصوصُ في الكتاب والسنة الدالّة على تحريم صَرفِ الدعاءِ لغير الله، وأنَّ ذلك نوعٌ من الشرك الناقلِ من الملَّةِ، وأنَّ الدعاءَ لا يكون إلاَّ لِمَن بيده المنع والعطاء، والخفض والرفع، والقبض والبسط، وليس لله شريك في شيء من ذلك، قال الله تعالى: {**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ**}[١]، وقال تعالى: {**مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ**}[٢]، وقال تعالى: {**وَلاَ تَدْعُ مِن دُون اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**}[٣]، ولهذا فإنَّه كيف يليق بإنسان، ويصحُّ من عاقلٍ خلقه الله فيدعو غيرَه، ويرزقُه الله ويسألُ سواه، ويعطيه الله ويُقبل على غيره، مع أنَّ كلَّ مدعوٍّ غير الله ليس بيده عطاءٌ ولا منعٌ ولا نفعٌ ولا ضرٌّ، يقول الله تعالى: {**قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاَ**}[٤]، ويقول تعالى: {**قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا**

---

(١) سورة النمل، الآية: (٦٢).

(٢) سورة فاطر، الآية: (٢).

(٣) سورة يونس، الآيتان: (١٠٦ ، ١٠٧).

(٤) سورة الإسراء، الآية (٥٦).

مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِن ظَهِيرٍ وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ}[1]، ويقول تعالى: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ}[2]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ورغم وضوحِ هذا الأمرِ وكثرةِ الشواهد عليه، وظهور دلالتها على ذلك إلاَّ أنَّ مِن الناس مَن لا يزال يفتُ في عضدهم دعاةُ الضلال وأئمةُ الباطل، فيُشبِّهون عليهم الأمورَ، ويلْبسون عليهم الحقائق، ويزيِّنون لهم الباطل، وقد خاف النبي ﷺ على أمَّته من الأئمَّة المضلِّين، روى الإمام أحمد وأبو داود والحاكم وغيرُهم بإسناد صحيح من حديث ثوبان عن النبي ﷺ أنَّه قال: « وإنَّما أخاف على أمتي الأئمةَ المضلِّين »[3]، وهذا الذي خافه النبي ﷺ على أمته قد وقع في بعض فترات التاريخ، حيث تسلَّط بعضُ دعاةِ الباطل وأئمةِ الضلال فزيَّنوا للناس دعاءَ الأحجار والتعلُّقَ بالقبور، والتقدُّمَ إليها بأنواع القرابين والنذور، قال أبو الوفاء ابنُ عقيل رحمه الله: « صبئت قلوب أهل الإلحاد لانتشار كلمة الحق وثبوت الشرائع بين الخلق والامتثال لأوامرها ...

(١) سورة سبأ، الآيتان: (٢٢ ، ٢٣).

(٢) سورة فاطر، الآيتان: (١٣ ، ١٤).

(٣) المسند (٥/ ٢٧٨، ٢٨٤)، وسنن أبي داود (رقم:٤٢٥٢)، والمستدرك (٤/ ٤٤٩) في حديث طويل، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (رقم:١٧٧٣).

ثمَّ مع ذلك لا
يرون لمقالتهم نباهةً ولا أثراً، بل الجوامع تتدفَّق زحاماً، والأذانات
تملأ أسماعهم بالتعظيم لشأن النبي ﷺ والإقرار بما جاء به، وإنفاق الأموال والأنفس في الحج مع ركوب الأخطارِ ومعاناة الأسفار ومفارقةِ الأهلِ والأولاد، فجعل بعضُهم يندسُّ في أهل النقل فيضع المفاسد
على الأسانيد، ويضع السِيَر والأخبار، وبعضُهم يروي ما يُقارب المعجزات مِن ذِكرِ خواصٍ في أحجار، وخوارق العادات في بعض البلاد، وإخبار عن الغيوب عن كثير من الكهنةِ والمنجِّمين ويُبالغ
في تقرير ذلك ... فقالوا تعالوا نكثر الجوْلان في البلاد والأشخاص والنجوم الخواص ... »[1]، إلخ كلامِه رحمه الله.

فتأمَّل أخي المسلم كيف تمكَّن هؤلاء بخفيِّ مكرهم وعِظم كيدهم من صدِّ كثير من عوام المسلمين وجهالهم عن الحقِّ والهدى الذي جاء به رسول الله ﷺ، ونقلِهم منه إلى أنواع من الضلالات وصنوفٍ من الباطل، مِن تعلُّقٍ بقبور أو تبرُّكٍ بأشجار وأحجار، أو ذبحٍ ونذر لأضرحةٍ وقِباب، ونحو ذلك من الضلال المفارق لدين الإسلام، المباينِ لِملِّة التوحيد القائمةِ على إخلاص العمل للمعبود، والمتابعةِ في ذلك كلِّه للرسول ﷺ.

ومِمَّا ينبغي أن يُعلم هنا أنَّ سببَ ضلال هؤلاء وغيرِهم مِمَّن تأثَّر بهم وسار على طريقهم ثلاثةُ أشياء:

أحدُها: إمَّا اعتمادُهم على ألفاظٍ متشابهةٍ مُجملةٍ مشكلة منقولة عن

(١) انظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص:٦٨، ٦٩).

الأنبياء، وعدلوا عن الألفاظ الصريحة المحكمة وتمسَّكوا بها، وهم كلَّما سمعوا لفظاً فيه شبهةٌ تمسَّكوا به وحملوه على مذهبهم وإن لَم يكن دليلاً على ذلك، والألفاظُ الصريحةُ المخالفةُ لذلك إمَّا أن يفوِّضوها وإما أن يتأوَّلوها كما يصنع أهل الضلال يتِّبعون المتشابه من الأدلة العقلية والسمعية، ويعدِلون عن المحكم الصريح، قال الله تعالى: {**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ**}[1].

الأمر الثاني: أخبارٌ منقولةٌ إليهم عن الأنبياء ظنُّوها صدقاً، وهي مكذوبةٌ عليهم، وَضَعها عُبَّاد الأصنام وأئمَّةُ الباطلِ انتصاراً لمذاهبهم وتأييداً لباطلهم، وليس في جميع ما يُروى في هذا الباب حديثٌ واحدٌ مرفوعٌ إلى النبي ﷺ يُعتمد عليه باتِّفاق أهل المعرفة بحديثه ﷺ، بل المرويُّ في ذلك إنَّما يَعرفُ أهلُ المعرفة بالحديث أنَّه من الموضوعات، إمَّا تعمُّداً من واضعه، وإمَّا غلطاً منه، مثل نسبتهم إلى الرسول ﷺ أنَّه قال: « لو حسَّن أحدُكم ظنَّه في حجر لنفعه الله به »[2]، ونحو ذلك من الإفك البيِّن والكذب الواضح.

الأمر الثالث: خوارقُ ظنُّوها من الآيات، وهي من أحوال الشيطان[3]، وحكاياتٌ حُكيت لهم عن أصحاب القبور مثل أنَّ فلاناً استغاث بالقبر

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (٧).

(٢) أورده ملاَّ علي قاري في الموضوعات (ص:١٨٩)، وقال: ((قال ابن تيمية: موضوع. وقال ابن القيم: هو من كلام عُبَّاد الأصنام الذين يُحسنون ظنَّهم بالأحجار. وقال ابن حجر العسقلاني: لا أصل له)).

(٣) انظر: الجواب الصحيح لابن تيمية (١/ ٣١٦ ـ ٣١٧).

الفلانيِّ في شدَّة فخُلِّص منها، وفلاناً دعاه أو دعا به في حاجة فقُضيت له، وفلاناً نزل به ضرٌّ فاسترجى صاحبَ القبر فكشف ضُرَّه، والنفوسُ مولعةٌ بقضاء حوائجها وإزالة ضروراتها، ومِن هذا المدخل نفذ الشيطانُ إلى قلوب هؤلاء، وتدرَّج بهم في دعوتهم إليه، فحسَّن للواحد من هؤلاء أولاً الدعاءَ عند القبور، وأنَّه أرجحُ منه في بيته ومسجده وأوقات سَحَرِه، فإذا تقرَّر ذلك عنده نقلَه درجةً أخرى من الدعاء عنده إلى الدعاء به والإقسام على الله به، وهذا أعظمُ من الذي قبله، فإذا قرَّر الشيطانُ عنده أنَّ الإقسامَ على الله به أبلغُ في تعظيمِه واحترامِه وأنجحُ في قضاءِ حاجته نقله درجةً أخرى إلى دعائه نفسِه من دون الله، ثمَّ ينقله بعد ذلك درجةً أخرى إلى أن يتَّخذ قبرَه وثناً يعكفُ عليه، ويوقدُ عليه القناديل، ويُعلِّقُ الستور، ويبني عليه المسجد، ويعبدُه بالسجود له والطواف به وتقبيله واستلامِه والحج إليه والذبح عنده[1]، والواجبُ الحذرُ من الشيطان وجنوده، ولزومُ سبيلِ المؤمنين بإخلاص العمل كلِّه لله عزَّ وجلَّ مع المتابعة في ذلك كلِّه للرسول الكريم ﷺ، جعلنا الله وإياكم مِن أتباعه وهدانا لزومَ سنَّتِه.

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان لابن القيم (١/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤).

٨٠ ـ خطورة التعلُّق بالقبور

لقد تقدَّم الكلامُ على فضلِ الدعاء ومكانتِه من الدِّين، وأنَّه حقٌّ خالصٌ لله لا يجوز صرفُه لغيره، كما قال تعالى: {**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلهِ فَلاَ تَدْعُو مَعَ اللهِ أَحَداً**}(١)، أي لا تشركوا مع الله أحداً، ولكن أَفرِدوا له التوحيد، وأَخلِصوا له الدِّين، والمسلمُ مطلوبٌ منه أن يسألَ اللهَ في كلِّ أحواله، ويدعو اللهَ في جميعِ حاجاته، يسأله وحده دون سواه، ويرجوه ولا يرجو غيرَه، ويُنزل حاجاته كلَّها به، ومن عجيب

أمر بعضِ الناس في هذا الباب الخطير أنَّهم أَقبلوا على غير الله من القِباب والقبور والأضرحة ونحوها، يستنجدون بأهلها ويستغيثون بهم، ويسألونهم النصرَ والرزقَ والعافيةَ وقضاءَ الديون وتفريجَ الكُربات وإغاثةَ اللهفات، وغيرَ ذلك من أنواع الطلبات، فبدَّل هؤلاء قولاً غير الذي قيل لهم، بدَّلوا الدعاءَ لهم بدعائهم من دون الله، والترحُّم عليهم بطلب الرَّحمة والمغفرة منهم، ومن المُحال أن يكون دعاءُ الموتى أو الدعاءُ بهم أو الدعاءُ عندهم أمراً مشروعاً أو عملاً صالحاً يقبله الله، فهذه سنةُ رسول الله ﷺ في أهل القبور بضعاً وعشرين سنة حتى توفاه الله وهذه سنةُ خلفائه الراشدين، وهذه طريقةُ جميع الصحابة والتابعين لهم بإحسان، هل يمكن لبشرٍ على وجه الأرض أن يأتي عن أحدٍ منهم بنقلٍ صحيح أو ضعيف أو منقطع أنَّهم كانوا إذا كان لهم حاجة قصدوا القبورَ فدعوا عندها وتمسَّحوا بها، فضلاً عن أن

---

(١) سورة الجن، الآية: (١٨).

يُصلُّوا عندها أو يسألوا الله بأصحابها، أو يسألوهم حوائجهم، ولو كان ذلك سنةً أو فضيلةً لنُقل عن الرسول الكريم ﷺ، ولَفَعله الصحابةُ والتابعون، وقد كان عندهم قبرُ النبي ﷺ وقبورُ سادات الصحابة، فما منهم مَن استغاث عند قبر صاحبٍ ولا دعاه ولا دعا به ولا دعا عنده ولا استشفى به ولا استسقى به، وحاشاهم أن يفعلوا شيئاً من ذلك، بل ثبت عنهم إنكارُ ما هو دون ذلك بكثير.

روى غيرُ واحد، عن المعرور بن سُويد قال: « صليتُ خلفَ عمرَ ابن الخطاب رضي الله عنه في طريق مكةَ صلاةَ الصبح، فقرأ فيها {**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ**}، و{**لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ**}، ثمَّ رأى الناسَ يذهبون مذاهب، فقال: أين يذهبُ هؤلاء؟ فقيل: يا أميرَ المؤمنين، مسجدٌ صلَّى فيه النبيُّ ﷺ، فهُم يُصلُّون فيه، فقال: إنَّما هلك مَن كان قبلكم بمثلِ هذا، كانوا يتَّبعون آثارَ أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبِيَعاً، فمَن أدركته الصلاةُ منكم في هذه المساجد فليُصلِّ، ومَن لا فليمضِ ولا يتعمَّدها »[(١)].

وأرسل رضي الله عنه أيضاً فقطع الشجرةَ التي بايع تحتها أصحابُ النبي ﷺ خشيةَ افتتان الناس بها[(٢)].

وروى محمد بن إسحاق في مغازيه عن خالد بن دينار، قال: حدَّثنا أبو العالية رحمه الله قال: « لَمَّا فتحنا تُستُر وَجدنا في بيت مال الهُرمزان سريراً عليه رجلٌ ميِّتٌ، عند رأسه مُصحفٌ له، فأخذنا المُصحفَ فحملناه إلى عمر

(١) المصنف لعبد الرزاق (رقم:٢٧٣٤)، والمصنف لابن أبي شيبة (٢/ ١٥٢).
(٢) رواه ابن سعد في الطبقات (٢/ ٧٦)، وصححه الحافظ في الفتح (٧/ ٥١٣).

بن الخطاب رضي الله عنه، فدعا له كعباً فنسَخَه بالعربية، فأنا أوَّلُ رجل من العرب قَرَأَه، قرأته مثل ما أقرأُ القرآنَ، فقلتُ لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال: سيرتُكم وأمورُكم ولحون كلامكم وما هو كائنٌ بعدُ، قلتُ: فما صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرِّقة، فلمَّا كان الليلُ دفنَّاه، وسوينا القبور كلَّها لنُعْميه على الناس لا ينبشونه، قلتُ: وما يرجون منه؟ قال: كانت السماءُ إذا حُبست عنهم برزوا بسريرِه فيُمطرون، فقلتُ: مَن كنتم تظنُّون الرجل؟ قال: رجلٌ يُقال له دانيال، فقلتُ: منذ كم وجدتموه مات؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة، قلتُ: ما كان تغيَّر منه شيء؟ قال: لا إلاَّ شُعيراتٌ من قفاه، إنَّ لحومَ الأنبياء لا تُبليها الأرض، ولا تأكلها السباع »، أورد هذا الأثرَ ابنُ كثير في كتاب البداية والنهاية، وقال: « إسناده صحيح إلى أبي العالية »[1].

وفي هذا الأثر دلالةٌ على ما كان عليه السلفُ رحمهم الله من حَيطةٍ كاملة وحذرٍ شديدٍ في هذا الباب الخطير، وما فعله المهاجرون والأنصارُ بتوجيه من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه من إخفاءٍ لقبر دانيال وتَعْمِيةٍ لمكانه دليلٌ على ما كانوا عليه من حيطةٍ وحذرٍ لئلا يَفتتن به الناس، ولو كان الدعاءُ عند القبور والصلاةُ عندها والتبرُّكُ بها فضيلةً وسنةً أو مباحاً لَنَصَبَ الصحابةُ هذا القبرَ عَلَماً لذلك، ودعوا عنده، وسنوا ذلك لِمَن بعدهم، ولكن كانوا أعلمَ بالله ورسولِه ودينِه مِمَّن جاء بعدهم، وكذلك التابعون لهم بإحسانٍ ساروا على

(١) البداية والنهاية (٢/ ٤٠).

هذا السبيل واقتفوا تلك الآثار، وقد كان عندهم من قبور أصحاب رسول الله ﷺ بالأمصار عددٌ كثير وهم متوافرون فما منهم مَن استغاث عند قبر صاحب ولا دعاه ولا دعا به ولا دعا عنده، ومن المعلوم أنَّ مثلَ هذا ممَّا تتوافر الهِممُ والدواعي على نقله، بل على نقل ما هو دونَه، ولم ينقل عنهم في فعل شيء من ذلك حرفٌ واحد، وحينئذ يُقال إن كان هذا الأمرُ مشروعاً وسنةً فكيف يخفى علماً وعملاً على الصحابة والتابعين وتابعيهم، وكيف تكون القرونُ الثلاثةُ المفضَّلةُ جاهلةً به مع حرصهم على كلِّ خير، وبهذا يتبيَّنُ أنَّ هذا الأمرَ ليس من دين الله ولا من شرعه، والله يقول: **{أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللهُ}**[1]، فإذا لَم يشرع اللهُ ذلك فمَن شرعه فقد شرع من الدِّين ما لَم يأذن به الله، وقد قال الله تعالى: **{قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}**[2].

لقد ذكر علماءُ الإسلام وأئمَّةُ الدِّين الأدعيةَ الشرعيةَ المأخوذةَ من الكتاب والسنةِ بحدودها الشرعيةِ وضوابطها المرعيةِ، وأعرضوا تمام الإعراضِ عن الأدعيةِ البدعية، والواجبُ اتِّباعهم في ذلك، ومَن يتأمَّل الأدعيةَ التي أحدثها الناسُ في هذا الباب ولم تكن موجودةً عند الصحابة ومَن اتَّبعهم بإحسان يجد أنَّها على ثلاث مراتب[3]:

أحدِها: أن يدعوَ غير الله وهو ميِّتٌ أو غائب سواء كان من الأنبياء أو

---

(١) سورة الشورى، الآية: (٢١).

(٢) سورة الأعراف، الآية: (٣٣).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٣٥٠ ـ ٣٥٦).

الصالحين أو غيرهم، فيقول: يا سيدي فلان أَغِثني، أو أنا أستجير بك، أو أستغيث بك، أو انصرني على عدوي، وأعظمُ من ذلك أن يقول: اغفر لي وتُب عليَّ كما يفعله طائفةٌ من الجهال المشركين، وأعظمُ من ذلك أن يسجد لقبره ويصلي إليه ويرى الصلاةَ فيه
أفضلَ من استقبال القبلة، وكلُّ ذلك من الشركِ الناقل عن ملّة الإسلام.

الثانية: أن يقال للميت أو الغائب من الأنبياء والصالحين: ادعُ اللهَ لي، أو ادع لنا ربَّك، أو اسأل الله لنا، فهذا لا يستريب عالِمٌ أنَّه غير جائز، وأنَّه من البدع التي لَم يفعلها أحدٌ من سلف الأمة المُفضية إلى الشرك بالله، بل نصَّ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنَّ ذلك عين الشرك « سواء طلب منهم قضاءَ الحاجات وتفريجَ الكربات، أو طلب منهم أن يطلبوا ذلك من الله »[(١)].

الثالثة: أن يُقال: أسألك بحقِّ فلان أو بجاه فلان عندك، أو نحو ذلك، وهذا أيضاً لَم يكن الصحابةُ رضي الله عنهم يفعلونه، ولا يُعرف هذا في شيءٍ من الأدعية المشهورة بينهم، وإنَّما يُنقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة أو موضوعة.

وينبغي أن يُعلم هنا أنَّه لو كان في شيءٍ ممَّا تقدَّم ذكرُه خيرٌ لسَبَقَنا إليه الصحابةُ ولدلُّونا عليه، فإن كان هدياً صواباً فقد ضلُّوا عنه، وهذا لا يقوله عاقل، وإن كان الذي كانوا عليه هو الهدى والحق، فماذا بعد الحقِّ إلاَّ الضلال.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص:٤٠٦).

* * *

٨١ ـ الغلُوُّ في قبور الصالِحين يصيرها أوثاناً تُعبد

إنَّ مِن أعظمِ أسباب وقوع الشرك في الدعاءِ ما أوحاه عدوُّ الله وعدوُّ عباده المؤمنين إبليسُ إلى حِزبِه وأوليائِه من الفتنة بقبور الأنبياء والأولياء والصالحين، حتى آل الأمرُ فيها إلى أن عُبد أربابُها من دون الله، وعُبدت قبورُهم واتُّخذت أوثاناً، وبُنيت عليها الهياكل، وصُوِّرت أربابها ثمَّ جُعلت تلك الصُور أجساداً لها ظِلٌّ، ثمَّ جُعلت أصناماً وعُبدت مع الله تعالى، وكان أولُ وقوع هذا الداء في قوم نوح كما أخبر الله سبحانه عنهم في كتابه حيث يقول: {**قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَ قَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا**}[١]، روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلمَّا هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسّخَ العلمُ عُبدت »[٢].

وقال ابن جرير في تفسيره: « وكان مِن خبرِ هؤلاء فيما بلغنا ما حدَّثنا به ابنُ حُميد قال: حدَّثنا مهران، عن سفيان، عن موسى، عن محمد بن قيس: أنَّ يغوث ويعوقَ ونسراً كانوا قوماً صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباعٌ يقتدون بهم، فلمَّا ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو

---

(١) سورة نوح، الآيات: (٢١ ـ ٢٤).

(٢) صحيح البخاري (رقم:٤٩٢٠).

صوَّرناهم كان أشوقَ لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوَّروهم، فلمَّا ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس فقال: إنَّما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقون المطر، فعبدوهم »[(١)].

ونُقل هذا المعنى عن عددٍ من السلف رحمهم الله، قال ابن القيم:
« قال غير واحد من السلف: كان هؤلاء قوماً صالحين في قوم نوح عليه السلام، فلَمَّا ماتوا عكفوا على قبورهم، ثمَّ صوروا تماثيلهم، ثمَّ طال عليهم الأَمَدُ فعبدوهم »[(٢)].

ولهذا تضافرت الأدلةُ وتواترت النصوص عن النبي ﷺ في المنع مِن ذلك والتحذير منه والتغليظ فيه، ولعن فاعله، ووصفِ مَن فعله بأنَّه من شرار الخلق، وأنَّ ذلك ليس من سُنَن المسلمين وإنَّما من سُنَن اليهود والنصارى، والنصوص عنه في هذا المعنى كثيرة.

روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ أم سلمة رضي الله عنها ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسةً رأتها بأرض الحَبشة وما فيها من الصُوَر، فقال: « أولئك إذا مات فيهم الرجلُ الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوَّروا فيه تلك الصُوَر، أولئك شِرار الخلق عند الله »[(٣)].

وروى مسلم في صحيحه عن جُندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمسٍ وهو يقول: « إنِّي أبرأُ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإنَّ الله قد اتَّخذني خليلاً كما اتَّخذ إبراهيم

---

(١) تفسير ابن جرير (١٢/ ٢٥٤).
(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٢٠٣).
(٣) صحيح البخاري (رقم:١٣٤١)، وصحيح مسلم (رقم:٥٢٨).

خليلاً، ولو كنتُ متَّخذاً من أمَّتِي خليلاً لاتَّخذتُ أبا بكر خليلاً، ألاَ وإنَّ مَن كان قبلكم كانوا يتَّخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتَّخذوا القبورَ مساجد فإنِّي أنهاكم عن ذلك »[(١)].

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: قاتل الله اليهودَ اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد »[(٢)]، وفي رواية لمسلم: « لعن الله اليهودَ والنصارى اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد »[(٣)].

وروى البخاري عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم قالا: « لَمَّا نزل برسول الله ﷺ طفِق يطرح خميصةً له على وجهه، فإذا اغتمَّ بها كشفها، فقال وهو كذلك: لعنةُ الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد، يُحذِّر ما صنعوا »[(٤)].

وقالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لَم يقُم منه: « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، ولولا ذلك لأُبرز قبرُه، غير أنَّه خشي أن يتخذ مسجداً »، رواه البخاري ومسلم[(٥)].

فقد نهى صلواتُ الله وسلامه عليه عن اتخاذ القبور مساجد في آخر حياته، ثمَّ إنَّه لعن ـ وهو في السياق ـ مَن فَعَلَ ذلك مِن أهل الكتاب ليحذر أمته أن يفعلوا ذلك، والأحاديث والآثار المروية في هذا الباب كثيرةٌ جدًّا.

والنبيُّ ﷺ إنَّما نهى أمته عن اتخاذ القبور مساجد بتحري الدعاء أو

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٥٣٢).
(٢) صحيح البخاري (رقم:٤٣٧).
(٣) صحيح مسلم (رقم:٥٣٠).
(٤) صحيح البخاري (رقم:٤٣٥، ٤٣٦).
(٥) صحيح البخاري (رقم:١٣٩٠، ٤٤٤١)، وصحيح مسلم (رقم:٥٢٩).

العبادة عندها سَدًّا لذريعة الشرك، ولأنَّه مظنَّةُ اتخاذها أوثاناً، قال الإمام الشافعي رحمه الله: « وأكره أن يُعظَّم مخلوق حتى يُجعل قبرُه مسجداً مخافة الفتنة عليه وعلى مَن بعده من الناس ».

وقد ذكر هذا المعنى غيرُ واحد من أهل العلم، وأما مَن علَّل ذلك بأنَّها مظنَّةُ النجاسة لما يختلطُ بالتراب مِن صديد الموتى فقد أبعدَ غايةَ البُعد؛ لأنَّ نجاسةَ الأرض مانعٌ من الصلاة عليها، سواء كانت مقبرةً أو لَم تكن، ولأنَّ النبيَّ ﷺ قد نبَّه على العلَّة بقوله: « اللَّهمَّ لا تَجعل قبري وثناً يُعبد »، وبقوله: « إنَّ مَن كان قبلكم كانوا يتخذون القبورَ مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإنِّي أنهاكم عن ذلك ».

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: « وبالجملة فمَن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه، وفَهِم عن الرسول ﷺ مقاصدَه جزم جزماً لا يحتمل النقيض أنَّ هذه المبالغة منه باللَّعن والنهي بصيغتيه: صيغة (لا تفعلوا) وصيغة (إنِّي أنهاكم) ليس لأجل النجاسة، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة بِمَن عصاه وارتكب ما عنه نهاه، واتبع هواه، ولم يخش ربَّه ومولاه، وقلَّ نصيبُه أو عدم في تحقيق شهادة لا إله إلاَّ الله، فإنَّ هذا وأمثالَه من النبي ﷺ صيانةٌ لحِمى التوحيد أن يلحقه الشركُ ويغشاه وتجريدٌ له، وغضبٌ لربِّه أن يُعدل به سواه، فأبى المشركون إلاَّ معصيةً لأمرِه وارتكاباً لنهيه، وغرَّهم الشيطانُ فقال: بل هذا تعظيمٌ لقبور المشايخ والصالحين، وكلما كنتم أشدَّ لها تعظيماً وأشدَّ فيهم غُلوًّا كنتم بقربهم أسعدَ ومِن أعدائهم أبعدَ، ولعمر الله مِن هذا الباب بعينه دخل على عُبَّاد يغوث ويعوق ونسر، ومنه دخل على عُبَّاد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة، فجمع المشركون بين الغلوِّ فيهم

والطعن في طريقتهم، وهدى اللهُ أهلَ التوحيد لسلوك طريقتهم وإنزالهم منازلَهم التي أنزلهم الله إيَّاها من العبودية وسلب خصائص الإلهية عنهم، وهذا غاية تعظيمهم وطاعتهم »[١].

وبما تقدَّم يتبيَّن أنَّ أصلَ الشرك في الأولين والآخرين إلى قيام الساعةِ الغلوُّ في الصالحين، والله عزَّ وجلَّ إنَّما أمرنا بمحبَّتهم وإنزالهم منازلَهم من العبودية وسلبِ خصائص الإلهية عنهم، وهذا غايةُ التعظيمِ لهم وطاعتِهم واتباعِ سبيلهم، ونهانا عن الغلوِّ فيهم فلا نرفعهم فوق منازلهم ولا نحطُّهم منها؛ لما يعلمه تعالى في ذلك من الفساد العظيم، فما وقع الشركُ إلاَّ بسبب الغلوِّ فيهم، فتجد الغالين فيهم عاكفين على قبورهم يدعونهم ويسألونهم وينذرون لهم، وفي الوقت نفسه هم معرِضون عن طريقتهم وسبيلهم، بل عائبين لها ومشتغلين بقبورهم عمَّا أُمروا به ودُعوا إليه، وتعظيمُ الأنبياء والصالحين إنَّما يكون باتِّباع ما دُعوا إليه من العلم النافع والعمل الصالح، واقتفاء آثارهم وسلوك طريقتهم دون عبادتهم وعبادة قبورهم.

---

(١) إغاثة اللَّهفان (١/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩).

٨٢ ـ إذا سألتَ فاسأل الله

لا شكّ أنَّ كلَّ مسلم يدعو الله تبارك وتعالى، يدعوه وهو يرجو أن يجيب دعاءَه ويحقّقَ رجاءَه، ويعطيه سُؤْله، إلاَّ أنَّ الدعاءَ له شروطٌ عظيمة وآداب مهمة ينبغي على المسلم أن يعتنيَ بها ويحافظَ عليها؛ ليُستجاب له بتحقيقها دعاؤه، وليتحقق له بتكميلها أملُه بالله ورجاؤه، وهذه الشروطُ والآدابُ وإن كانت جميعُها مهمةً عظيمةً إلاَّ أنَّها متفاوتةٌ في الأهميَّةِ بعضها أهمّ من بعض، فمنها شروطُ صحةٍ لا يُستجاب الدعاء إلاَّ بها، ومنها آدابٌ وسُننٌ ومُكمّلات، والمسلم الموفَّقُ يحافظ على ذلك كلِّه ويعتني به جميعه ليَكمُل له نصيبُه من الخير.

وقد مرَّ معنا الإشارةُ إلى جملةٍ طيبةٍ من شروط الدعاء وآدابِه، ولا سيما عند ذكرِ حديث أبي هريرة رضي الله عنه المخرَّج في صحيح مسلم أنَّ النبي ﷺ قال: « إنَّ الله طيِّبٌ لا يقبل إلاَّ طيِّباً، وإنَّ اللهَ تعالى أَمَر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى: {**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**}[(١)]، وقال: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**}[(٢)]، ثمَّ ذكر الرجلَ يطيل السفرَ أشعثَ أغبرَ يمدُّ يديه إلى السماء يا ربّ يا ربّ ومطعمُه حرام، ومشربُه حرام، وملبسُه حرام، وغُذِيَ بالحرام، فأنَّى يستجاب لذلك »[(٣)]. وفي قوله ﷺ في هذا الحديث « فأنَّى يستجاب

(١) سورة المؤمنون، الآية: (٥١).
(٢) سورة البقرة، الآية: (١٧١).
(٣) صحيح مسلم (رقم:١٠١٥).

لذلك » إشارةٌ إلى أنَّ لقبول الدعاء واستجابته شروطاً لا بد من تحقيقها وضوابطَ لا بد من التزامها، والمخلُّ بها حري به ألاَّ يستجاب دعاؤه.

ويأتي في مقدمة شروط الدعاء بل وفي مقدمة شروط كلِّ طاعة يَتقرب بها العبدُ إلى الله الإخلاصُ لله تبارك وتعالى فهو شرطٌ أساسٌ وقَيدٌ مُهمٌّ، لا قبول للدعاء ولا لأي عبادةٍ إلاَّ بتحقيقه والإتيان به، قال الله تعالى: **{أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ}**[١]، وقال تعالى: **{وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء}**[٢]، وقال تعالى: **{فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ}**[٣]، وقال تعالى: **{قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ}**[٤]، وثبت في الحديث أنَّ النبي ﷺ قال لابن عباس رضي الله عنهما: « إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله، واعلم أنَّ الأمَّةَ لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيء لَم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء لَم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلامُ وجَفَّت الصُّحف »[٥].

فقوله ﷺ « إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله » أمرٌ بالإخلاصِ لله تعالى في السؤال والاستعانة بأن لا يُسأل إلاَّ الله، ولا يُستعان

---

(١) سورة الزمر، الآية: (٣).
(٢) سورة البينة، الآية: (٥).
(٣) سورة غافر، الآية: (١٤).
(٤) سورة الأعراف، الآية: (٢٩).
(٥) المسند (١/٢٩٣)، وسنن الترمذي (رقم:٢٥١٦)، وصححه العلاَّمة الألباني رحمه الله في صحيح سنن الترمذي (رقم:٢٠٤٣).

إلاَّ به، وهذا أمرٌ متعيِّنٌ على كلِّ مسلم « لأنَّ السؤالَ فيه إظهارُ الذُّلِّ من السائل والمسكنةِ والحاجةِ والافتقارِ، وفيه الاعترافُ بقُدرةِ المسؤول على دفع هذا الضررِ ونيلِ المطلوب وجلبِ المنافعِ ودرءِ المضارِ، ولا يصلحُ الذُّلُّ والافتقارُ إلاَّ لله وحده؛ لأنَّه حقيقةُ العبودية »(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « ومِن أعظم الاعتداء والعدوان والذُّلِّ والهوان أن يُدعى غير الله، فإنَّ ذلك من الشركِ، والله لا يغفر أن يُشرك به، و{**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**}(٢)، {**فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**}(٣)، وسؤالُ المخلوق محرَّمٌ لغير الحاجة [أي فيما يَقدرُ عليه]، كما ثبت عن النبيِّ ﷺ في الأحاديث الصحيحة في تحريم المسألة له ولغيره، كحديث حكيم وقبيصة وغيرهما، ففي حديث حكيم بن حزام قال: « سألتُ رسول الله ﷺ فأعطاني، ثمَّ سألتُه فأعطاني، ثمَّ سألتُه فأعطاني، ثمَّ قال: يا حكيم إنَّ هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلوةٌ، فمَن أخذه بطيب نفس بورك له فيه، ومَن أخذه بإشراف نفسٍ لَم يُبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خيرٌ من اليد السفلى »، أخرجاه(٤).

وعن عوف بن مالك الأشجعي قال: « كنَّا عند رسول الله ﷺ سبعةً أو ثمانيةً، فقال: ألا تُبايعون؟ فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلامَ نُبايعك يا رسول الله؟ قال: على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٨١).
(٢) سورة لقمان، الآية: (١٣).
(٣) سورة الكهف، الآية: (١١٠).
(٤) صحيح البخاري (رقم:١٤٧٢)، وصحيح مسلم (رقم:١٠٣٥).

الخمس، وأن تُطيعوا ـ وأسرَّ كلمةً خفية ـ ولا تسألوا الناسَ شيئاً، قال: فلقد رأيتُ بعضَ أولئك النفر يسقط سوطُ أحدهم فما يسأل أحداً أن يناوله إياه » رواه مسلم[(١)] ...

وعن قبيصة بن مخارق الهلاليِّ أنَّه قال: « تحملتُ حَمالةً فأتيتُ رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: أَقِم حتى تأتينا الصدقةُ فنأمرَ لك بها، ثمَّ قال: يا قبيصة إنَّ المسألةَ لا تحلُّ إلاَّ لأحدِ ثلاثة: رجلٌ تحمَّل حَمالةً فحلَّت له المسألةُ حتى يصيبها ثمَّ يمسك، ورجلٌ أصابته جائحةٌ اجتاحت مالَه فحلَّت له المسألةُ حتى يصيب قَواماً من عيش، ورجلٌ أصابته فاقةٌ حتى يقول ثلاثةٌ مِن ذوي الحِجى من قومه: لقد أصابت فلاناً فاقةٌ، فحلَّت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش، أو قال: سداداً، فما سواهنَّ مِن المسألة يا قبيصة فسُحْتٌ يأكلها صاحبُها سُحْتاً »، رواه مسلم وأبو داود والنسائي[(٢)].

وتركُ السؤال للمخلوق اعتياضاً بسؤال الخالق أفضلُ مطلقاً، كما قال تعالى: ﴿**فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ**﴾ ....

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: « أصابتني فاقةٌ فأتيتُ النبيَّ ﷺ فوجدته يخطبُ الناسَ وهو يقول: يا أيُّها الناس، والله مهما يكونُ عندنا من خيرٍ فلن ندَّخره عنكم، وإنَّه مَن يستغن يُغنه الله، ومن يستعف يُعفَّه الله، ومَن يتصبَّر يصبِّره الله، وما أُعطي أحدٌ عطاء خيراً وأوسعَ من الصبر، فقلتُ

---

(١) صحيح مسلم (رقم:١٠٤٣).

(٢) صحيح مسلم (رقم:١٠٤٤)، وسنن أبي داود (رقم:١٦٤٠)، وسنن النسائي (٥/ ٨٩).

في نفسي: والذي بعثك بالحقِّ لا أسألكَ شيئاً، فرجعتُ فأغنى اللهُ وجاء بخيرٍ »[١]، فأبو سعيد فهِم من كلام النبي ﷺ أنَّ تركَ سؤالِه تعفُّفاً واستغناءً خيرٌ له من سؤالِه، فإذا كان تركُ سؤال الأنبياء في حياتهم أفضلَ مع الحاجة والفاقة، ومع عدم الحاجة يكون حراماً، فكيف سؤالُ الغائب والميِّت منهم ومِن غيرهم ... »[٢].

وقال رحمه الله: « ... فإنَّ سؤالَ المخلوقين فيه ثلاثُ مفاسد: مفسدةُ الافتقار إلى غير الله، وهي من نوع الشرك، ومفسدةُ إيذاء المسؤول وهي من نوع ظلم الخلق، وفيه ذُلٌّ لغير الله، وهو ظلمٌ للنفس، فهو مشتملٌ على أنواع الظلم الثلاثة »[٣] اهـ كلامُه رحمه الله.

والمسلمُ الموفَّقُ يعلم علمَ يقين أنَّه لا ينفع ولا يضرُّ ولا يُعطي ولا يمنع غيرُ الله، ولهذا فهو يُفرده وحده بالخوف والرجاء، والمحبَّة والسؤال، والتضرُّع والدعاء، والذُّلِّ والخضوع، وإنَّا لنرجوه سبحانه أن يوفِّقنا وإيَّاكم لتحقيق ذلك، وألاَّ يكِلنا إلى أحد سواه، فإنَّه سبحانه نِعم المسؤول ونِعم المرجو والمستعان.

---

(١) صحيح البخاري (رقم:١٤٦٩، ٦٤٧٠)، وصحيح مسلم (رقم:١٠٥٣) بلفظ مقارب.

(٢) تلخيص الاستغاثة (١/ ٢١٠ ـ ٢١٦) باختصار.

(٣) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (ص:٦٦).

٨٣ ـ ترويجُ أهل الباطل للأدعية الباطلة بالحكايات المُلفَّقة

سبق الكلامُ على أهميَّةِ الإخلاصِ في الدعاء وأنَّه شرطٌ هامٌّ من شروطِ قبوله، وأنَّ عدمَ إخلاصِه لله من أعظم الاعتداء والعدوان، والذُّلِّ والهوان، سواءٌ في ذلك مَن دعا غيرَ الله دعاءً مستقِلاًّ، أو جعله واسطةً بينه وبين الله، فإنَّ ذلك من أعظمِ الإثمِ وأشدِّ الضلال، والله يقول: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ الله مَن لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ**﴾[1].

وها هنا أمرٌ لا بدَّ من التنبيه عليه، وهو أنَّ طائفةً من الضُّلال من عُبَّاد القبور والأضرحة والقِباب ونحوها قد يلبِّسون على العوام وجهَّال الناس في هذا الباب بذكرِ بعض القصص والأخبار بأنَّ فلاناً دعا عند قبر فلانٍ فأُجيب، وأنَّ جماعاتٍ دعوا عند قبور جماعاتٍ من الأنبياء والصالحين فاستجيب لهم الدعاء، وكقولهم: إنَّ قبرَ فلان ترياقُ المجرِّبين، وزعمهم بأنَّه عند القبور تُقال العثراتُ، وتستجابُ الدعواتُ، وتتنزَّلُ الرحمات، وأنَّ بعضَهم رأى منامات في الدعاء عند قبور بعض الأشياخ، وجرَّب أقوامٌ استجابة الدعاء عند قبور معروفة، ونحو ذلك مِمَّا لبَّس به هؤلاء الضُّلاّل على بعض جُهال المسلمين، فصرفوهم بذلك عن التوحيد الخالص واليقين الصادق والثقة بالله إلى التعلُّق بالقبورِ والعكوفِ عندها والاستغاثةِ بأهلها ودعائِهم من دون الله.

وما مِن ريبٍ أنَّ القَصصَ والحكاياتِ لها تأثيرٌ بالغٌ في قلوب العامَّةِ

(١) سورة الأحقاف، الآية: (٥).

والجُهال، فكم أوقعت كثيراً منهم في صنوف الضَلال وأنواعٍ من الباطل، والواجبُ على عبد الله المسلمِ أن لا يَبْنِيَ دينَه على شيء من ذلك؛ إذ لا عبرةَ به ولا مُعوَّلَ عليه، ولا حُجَّة فيه وإنَّما الحُجَّةُ في كتاب الله تعالى وسنَّةِ رسوله ﷺ، لا في الحكايات المختلقَة والقصص الملَفَّقةِ والأخبار المزوَّرة.

قال الإمام العلاَّمة ابن القيم رحمه الله وهو بصدد بيان بعض الأمور التي أوقعت بعضَ الناسِ في الافتتان بالقبور والتعلُّقِ بها مع أنَّ ساكنيها أمواتٌ لا يملكون لهم ضرًّا ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، قال رحمه الله: « ومنها [أي الأمور التي أدَّت إلى ذلك]: حكايات حُكيت لهم عن تلك القبور أنَّ فلاناً استغاث بالقبر الفلاني في شدَّة فخلص منها، وفلاناً دعاه أو دعا به في حاجة فقُضيت له، وفلاناً نزل به ضرٌّ فاسترجى صاحبَ ذلك القبر فكشف ضُرَّه، وعند السَدنة والمَقَابريَّة مِن ذلك شيءٌ كثير يطول ذكرُه، وهم مِن أكذبِ خَلق الله تعالى على الأحياء والأموات ... »، إلى آخر كلامه رحمه الله[1].

وما كان لهذا التقرير الفاسد والاستدلال الباطل أن يَرُوجَ بين أحد من المنتسبين للإسلام والمنتمين لهذه الملَّة الحنيفية؛ لولا غلبةُ الجهل وقلَّةُ العلم بحقيقة ما بعث الله به رسولَه ﷺ، بل جميعَ الرسل من تحقيق التوحيد وقطع أسباب الشرك ووسائلِه.

وقد ذكر أهل العلم أجوبةً كثيرةً ووجوهاً عديدة في الردِّ تُبيِّن وهاءَ هذا الاستدلال وفسادَه، ومِن تلك الأجوبة:

أنَّ دينَ الله تامٌّ كاملٌ لا نقص فيه، والله يقول: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ**

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٢٣٣).

دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا}[١]، فما لَم يكن ديناً زمن نبيِّنا ﷺ وأصحابه فليس اليوم ديناً، ولن يكون ديناً إلى أن تقوم الساعة، والله جلَّ وعلا لا يقبل في الدِّين إلاَّ ما دلَّ عليه كتابه وسُنَّة نبيِّه ﷺ، وأما الحكاياتُ والمناماتُ والقَصصُ والأخبارُ فليست مما يُقام عليه شرعٌ أو يُبنى عليه دينٌ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « وإنَّما المتَّبع عند علماء الإسلام في إثبات الأحكام هو كتابُ الله وسنةُ رسوله ﷺ وسبيلُ السابقين الأولين، ولا يجوز إثباتُ حكم شرعي بدون هذه الأصول الثلاثة نصًّا أو استنباطاً بحال »[٢].

ولَم يرِد في تحرِّي الدعاء عند القبور آيةٌ مُحكمةٌ ولا سنَّةٌ متَّبَعةٌ ولم يُنقل في جواز ذلك شيءٌ ثابتٌ عن القرون الثلاثة المفضَّلة التي أثنى عليها رسول الله ﷺ حيث قال: « خير أمتي القرن الذي بُعثتُ فيهم ثمَّ الذين يلونهم ثمَّ الذين يلونهم »[٣]، ولم يُنقل شيءٌ من ذلك عن إمامٍ معروف، ولا عالِمٍ متَّبَع.

ثمَّ إنَّ كثيراً من هذه الحكايات والمنامات التي تُروى في هذا الباب لا تصح عمَّن نُقلت عنه، وإنَّما هي متقوَّلةٌ مكذوبةٌ مفتراةٌ، ولا سيما منها ما يُنسب إلى بعض أهل العلم والفضل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « وهذا والحمد لله لَم يُنقل عن إمام معروف ولا عالم متَّبَع، بل المنقول في ذلك إمَّا أن يكون كذباً على صاحبه، وإما أن يكون المنقولُ من هذه الحكايات عن مجهول لا يُعرف، ومنها ما قد يكون صاحبُه قاله أو فعله

---

(١) سورة المائدة، الآية: (٣).
(٢) اقتضاء الصراط (ص:٣٤٤).
(٣) صحيح مسلم (رقم:٢٥٣٤)، والمسند (٢/ ٢٢٨).

باجتهاد يخطئ فيه ويُصيب، أو قاله بقيود وشروط كثيرة على وجه لا محذور فيه، فحُرِّف النقلُ عنه كما أنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا أذِن في زيارة القبور بعد النهي عنها فَهِمَ المبطلونَ أنَّ ذلك هو الزيارةُ التي يفعلونها من حجها للصلاة عندها والاستغاثة بها »[1]. اهـ.

ثمَّ إنَّ قضاءَ حاجات بعض هؤلاء الداعينَ وتحقُّقَ رغباتهم لا يدلُّ على صحَّةِ عملِهم وسلامتِه، فقد تكون الإجابةُ استدراجاً وابتلاءً وامتحاناً، فليس مجرَّدُ كونِ الدعاءِ حصل به المقصودُ أو تحقَّقَ به المرادُ دليلاً على أنَّه سائغٌ في الشريعة، فإنَّ حصولَ التأثير ليس دليلاً على المشروعية، فالسِّحرُ والطِلسمات والعين وغيرُ ذلك من المؤَثِّرات في العالم بإذن الله قد يقضي الله بها كثيراً من أغراض النفوس الشرِّيرة، ومع ذلك فهي محرَّمةٌ وباطلةٌ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « وليس مجرَّد كون الدعاء حصل به المقصود ما يدلُّ على أنَّه سائغٌ في الشريعة، فإنَّ كثيراً من الناس يدعون مِن دون الله من الكواكب والمخلوقين، ويحصُلُ ما يحصل من غرضِهم، وبعضُ الناس يقصدون الدعاء عند الأوثان والكنائس وغير ذلك، ويدعو التماثيل التي في الكنائس ويحصل ما يحصل من غرضه، وبعض الناس يدعو بأدعيةٍ محرَّمة باتِّفاق المسلمين ويحصل ما يحصل من غرضهم.

فحصول الغرض ببعض الأمور لا يستلزم إباحته، وإن كان الغرض مباحاً، فإنَّ ذلك الفعل قد يكون فيه مفسدة راجحة على مصلحته، والشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإلاَّ فجميع المحرَّمات من الشرك والخمر والميسر والفواحش والظلم قد يحصل لصاحبه

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص:٣٤٣ ـ ٣٤٤) مختصراً.

به منافع ومقاصد، لكن لَّما كانت مفاسدُها راجحةً على مصالحها نهى الله ورسوله عنها كما أنَّ كثيراً من الأمور كالعبادات والجهاد وإنفاق الأموال قد تكون مضرَّةً، لكن لَمَّا كانت مصلحتُه راجحةً على مفسدتِه أمر به الشارع، فهذا أصل يجب اعتبارُه »[1].

ثمَّ إنَّ تلك التأثيرات قد تكون من الشيطان فإنَّه قد يتراءى لبعض هؤلاء في صورة من يعظِّمُه أو يعتقد فيه أو ينتسب إليه، وقد يخاطبُ هؤلاء أو يقضي بعض حوائجهم بإذن الله فيكونُ فتنةً لهم ويُظنُّ أنَّ ذلك كرامةٌ لهؤلاء المدعوِّين، وما هو في الحقيقة إلاَّ فتنة، ولا يعلم هؤلاء أنَّ هذا من جنس ما تفعله الشياطين بعُبَّاد الأوثان حيث تتراءى أحياناً لِمَن يعبدها وتخاطُبهم ببعض الأمور الغائبة وتقضي لهم بعض طلباتهم فكان ذلك أعظمَ أسباب عبادة الأوثان والتعلُّقِ بها.

والحاصلُ أنَّ مثلَ تلك الحكايات لا يستقيمُ الاحتجاجُ بها ولا يصح الاعتمادُ عليها، ولا يُبنى دينُ الله على شيءٍ منها وإنَّما يُبنى على ما جاء في الكتاب والسنة لا على الظنون والتخرُّصات والقَصص والحكايات والتجارب والمنامات، أعاذنا الله من الزَّلَلِ ووفّقنا لصائبِ القول وصحيحِ العمل.

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥).

٨٤ ـ من آداب الدعاء عدم استعجال الإجابة

إنَّ من آداب الدعاء العظيمة ألاَّ يستعجلَ الدعاء ويستبطئ الإجابةَ، فيستحسر ويمل ويترك الدعاءَ، ويقع في اليأس من روْح الله والقنوط من رحمته، وقد ورد في الحديث عن النبيِّ ﷺ النهيُ عن استعجال الدعاء وأنَّ ذلك من موانع إجابته وأسباب عدم قبوله، ففي الصحيحين
عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: « يُستجاب لأحدكم ما لَم يعجَل، يقول: دعوتُ فلم يستجب لي »[١]، وفي لفظٍ
عند مسلم: « لا يزال يُستجابُ للعبد ما لَم يَدعُ بإثم أو قطيعة رحم ما لَم يستعجل، قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال: يقول: قد دعوتُ وقد دعوتُ، فلَم أر يستجيبُ لِي، فيستحسر عند ذلك ويدَعَ الدعاءَ »[٢].

قال ابن حجر رحمه الله: « وفي هذا الحديث أدبٌ من آداب الدعاء، وهو أنَّه يُلازِم الطلبَ ولا ييأس من الإجابة؛ لِمَا في ذلك من الانقياد والاستسلام وإظهار الافتقار، حتى قال بعضُ السلف: لأنا أشدُّ خشية أن أُحرَم الدعاء من أن أُحرَم الإجابة ... وقال الداودي: يُخشى على مَن خالف وقال: قد دعوتُ فلم يستجب لي أن يُحرم الإجابة وما قام مقامها من الادخار والتكفير »[٣].

ونقل عن ابن بطَّال أنَّه قال في شرح الحديث: « المعنى أنَّه يسأم فيترك

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٦٣٤٠)، وصحيح مسلم (رقم:٢٧٣٥).
(٢) صحيح مسلم (رقم:٢٧٣٥).
(٣) فتح الباري (١١/ ١٤١).

الدعاء، فيكون كالمانِّ بدعائه، أو أنَّه أتى من الدعاء ما يستحق به الإجابة، فيصير كالمُبَخِّل للرَّبِّ الكريم الذي لا تعجزه الإجابة ولا يُنقصه العطاء ».

إنَّ الواجبَ على مَن أراد أن يُحقِّق الله رجاءَه وأن يُجيب دعاءَه أن يدعو ربَّه وهو موقنٌ بالإجابة؛ عظيمُ الثقة بالله، شديدُ الرجاء فيما عنده.

قال ابن رجب رحمه الله: « ومِن أعظم شرائطه [أي الدعاء] حضورُ القلب ورجاءُ الإجابة من الله تعالى كما خرَّج الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، فإنَّ الله لا يقبلُ دعاءً من قلبِ غافلٍ لاَهٍ »(١)، وفي المسند عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: « إنَّ هذه القلوبَ أوعيةٌ، فبعضُها أوعى من بعض، فإذا سألتم اللهَ فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإنَّ اللهَ لا يستجيبُ لعبدٍ دعاءً من ظهرِ قلبٍ غافل »(٢)، ولهذا نُهي العبدُ أن يقول في دعائه: « اللَّهمَّ اغفر لي إن شئتَ، ولكن ليعزِم المسألةَ فإنَّ الله لا مكره له »(٣)، ونُهي أن يستعجل ويترك الدعاء؛ لاستبطاء الإجابة، وجُعل ذلك من موانع الإجابة، حتى لا يقطع رجاءَه من إجابة دعائه ولو طالت المُدَّة، فإنَّه سبحانه يحبُّ الملحِّين في الدعاء ... فما دام العبدُ يُلحُّ في الدعاء ويطمع في الإجابة من غير قطع الرجاء، فهو قريبٌ من الإجابة، ومن أدمَن قَرْعَ الأبواب يوشك أن يُفتح له » اهـ(٤).

---

(١) سنن الترمذي (رقم:٣٤٧٩)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (رقم:٢٤٥).

(٢) المسند (٢/ ١٧٧)، وانظر: الصحيحة (رقم:٥٩٤).

(٣) صحيح مسلم (رقم:٢٦٧٩).

(٤) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤).

وكيف لا يكون المسلمُ واثقاً بربِّه والأمورُ كلُّها بيده، ومعقودةٌ بقضائه وقَدَرِه، فما شاء الله كان كما شاء، في الوقت الذي يشاء، على الوجه الذي يشاء، من غير زيادة ولا نقصان ولا تقدُّم ولا تأخُّر، وحُكمه سبحانه نافذٌ في السموات وأقطارها وفي الأرض وما عليها وما تحتها وفي البحار والجوِّ، وفي سائر أجزاء العالَم وذرَّاته يُقلِّبها ويصرفها ويُحدث فيها ما يشاء **{مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ}**[1]، أحاط بكلِّ شيء علماً، وأحصى كلَّ شيء عدداً، ووسع كلَّ شيء رحمة وحكمة، له الخلقُ والأمر، وله المُلكُ والحمد، وله الدنيا والآخرة، وله النعمة والفضل، وله الثناء الحسن، شملت قدرتُه كلَّ شيء، ووسعت رحمتُه كلَّ شيء **{يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ}**[2]، لا يتعاظمه ذنبٌ أن يغفرَه، ولا حاجةٌ يُسألها أن يعطيها، لو أنَّ أهلَ سمواته وأهل أرضه إنسهم وجِنَّهم حيَّهم وميِّتهم صغيرَهم وكبيرَهم رطبهم ويابسهم قاموا في صعيد واحد فسألوه فأعطى كلَّ واحد منهم ما سأله ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة، **{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}**[3]، ولهذا فإنَّ مِمَّا يتنافى مع تمام الإيمان به وكمال توحيده سبحانه أن يدعوَه العبدُ وهو غير عازم في مسألته؛ بأن يقول في دعائه: اللَّهمَّ ارحمني إن شئت، أو اللَّهمَّ اغفر لي إن شئت، أو اللَّهمَّ وفِّقني إن شئت، ونحوَ ذلك لِما في هذا القول من إيهام الاستغناء عن الله وعدم الثقةِ فيما عنده، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا

(١) سورة فاطر، الآية: (٢).
(٢) سورة الرحمن، الآية: (٢٩).
(٣) سورة يس، الآية: (٨٢).

يقولنَّ أحدُكم: اللَّهمَّ اغفر لي إن شئتَ، اللَّهمَّ ارحمني إن شئتَ، ولكن ليعزم المسألةَ وليُعظِّم الرغبة، فإنَّ اللهَ تعالى لا يتعاظمه شيء أعطاه »، وهذا لفظ مسلم[١].

وفي الصحيحين أيضاً من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا دعا أحدكم فليعزم في الدعاء، ولا يَقُل: اللَّهمَّ إن شئتَ فأعطِني، فإنَّ الله لا مستكره له »[٢].

وقد أورد الإمام المجدِّد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله هذا الحديث في كتاب التوحيد، وترجم له بقوله: « باب قول: اللَّهمَّ اغفر لي إن شئت »، وهو رحمه الله ينبِّه بهذه الترجمة إلى أنَّ عدمَ العزم في الدعاء وتعليقه بالمشيئة ممَّا يتنافى مع التوحيد الواجب الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم؛ لأنَّ قولَ القائلِ: « اللَّهمَّ اغفر لي إن شئتَ »، يدلُّ على فتورٍ في الرغبة، وقلَّةِ اهتمامٍ في الطلب، وكأنَّ هذا القول يتضمَّن أنَّ هذا المطلوبَ إن حصلَ وإلاَّ استغنى عنه، ومَن كان هذه حاله لَم يتحقق من حاله الافتقارُ والاضطرارُ الذي هو روحُ العبادة ولُبُّها، وكان ذلك دليلاً على قلَّة معرفته بذنوبه وسوء عاقبتها وقلَّة معرفته برحمة ربِّه، وشِدَّة احتياجه إليه، وضعف يقينه بالله عزَّ وجلَّ وإجابته للدعاء.

ولهذا قال في الحديث: « وليَعزِم المسألةَ »، أي ليجْزِم في طلبته، ويحقق رغبته، ويتيقَّن الإجابة، فإنَّه إذا فعل ذلك دلَّ على علمه بعظيم ما يطلب من

(١) صحيح مسلم (رقم:٢٦٧٩).
(٢) صحيح البخاري (رقم:٦٣٣٨)، صحيح مسلم (رقم:٢٦٧٨).

المغفرة والرحمة، وعلى أنَّه مفتقرٌ إلى ما يطلب مضطرٌّ إليه، وعلى أنَّه محتاجٌ إلى الله مفتقرٌ إليه، لا يستغني عن مغفرته ورحمته طرفةَ عين[١].

ولهذا فإنَّ الواجبَ على المسلم إذا دعا الله أن يجتهدَ ويُلحَّ في الدعاء، ولا يَقُل: « إن شئتَ »، كالمستثنِي، بل يدعو دعاءَ البائس الفقير بإلحاحٍ وصِدق وجِدٍّ واجتهاد، مع الثقة الكاملة بالله والطمع فيما عنده، وحسن الظنِّ به سبحانه، وهو جلَّ وعلا يقول كما في الحديث القدسي: « أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني »، أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما[٢].

وإنَّا نسأل الله الكريم أن يرزقنا حسنَ الظنِّ به وعظيم الثقة فيما عنده، وأن يُوفِّقنا لكلِّ خير يحبه ويرضاه في الدنيا والآخرة.

---

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد (ص:٦٥١ ـ ٦٥٢).

(٢) صحيح البخاري (رقم:٧٤٠٥)، وصحيح مسلم (رقم:٢٦٧٥).

٨٥ ـ أهميَّة حضور القلب في الدعاء وجُملة من الآداب الأخرى

إنَّ الدعاءَ من أقوى الأسباب التي تُجلبُ بها الأمور المحبوبة، وتدفع بها الأمور المكروهة، لكنه قد يتخلَّف أثرُه وتضعف فائدتُه، وربَّما تنعدم لأسباب منها: إمَّا ضعف في نفس الدعاء، بأن يكون دعاءً لا يحبُّه الله لِما فيه من العدوان، وإمَّا لضعف القلبِ وعدم إقباله على الله وقت الدعاء، وإمَّا لحصول المانع من الإجابة من أكل الحرام، ورَيْنِ الذنوب على القلوب، واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتهما عليها؛ إذ إنَّ هذه الأمور تُبطل الدعاءَ، وتُضعف من شأنِه.

ولهذا فإنَّ من الضوابط المهمَّة والشروطِ العظيمةِ التي لا بدَّ من توفرها في الدعاء حضورَ قلب الداعي وعدم غفلته،؛ لأنَّه إذا دعا بقلب غافلٍ لاهٍ ضعُفت قوةُ دعائه، وضعُف أثرُه، وأصبح شأنُ الدعاء فيه بمنزلة القوس الرخو جدًّا، فإنَّه إذا كان كذلك خرج منه السهم خروجاً ضعيفاً، فيضعف بذلك أثرُه، ولهذا فإنَّه قد ورد عن النبي ﷺ الحثُّ على حضور القلب في الدعاء، والتحذيرُ من الغفلة، والإخبارُ بأنَّ عدمَ ذلك مانعٌ من موانع قبوله.

روى الإمامُ أحمد في مسنده من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قال: « القلوبُ أوعيةٌ، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتُم اللهَ عزَّ وجلَّ أيُّها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإنَّ اللهَ لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلبٍ غافلٍ »[1]، وإسناده ضعيف؛ لأنَّ فيه عبد الله بن لهيعة سيء الحفظ،

(١) المسند (٢/ ١٧٧).

وباقي رجاله ثقات، إلاَّ أن له شاهدا يتقوَّى به عند الإمام الترمذي في سننه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه[١].

ومعنى الحديث صحيحٌ؛ إذ لا بدَّ للمسلم مع الدعاء مِن حضور القلب وعدم الغفلة والإيقان بالإجابة، ولهذا فقد عدَّ الإمام العلاَّمةُ ابن القيم رحمه الله في كتابه الجواب الكافي غفلةَ القلبِ وعدمَ حضوره مانعاً من موانع إجابة الدعاء، واحتجَّ على ذلك بهذا الحديث ثمَّ قال:
« وهذا دواءٌ نافعٌ مزيلٌ للداء، ولكن غفلة القلب تُبطل قوَّته »، وقال رحمه الله: « وإذا جُمع مع الدعاء حضورُ القلب وجَمعِيَّته بكليَّتِه على المطلوب، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة، وهو الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبة، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تُقضى الصلاة من ذلك اليوم، وآخر ساعة بعد العصر، وصادف خشوعاً في القلب وانكساراً بين يدي الربِّ، وذُلاًّ له، وتضرُّعاً ورِقَّةً، واستقبل الداعي القبلةَ، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثمَّ ثنَّى بالصلاة على محمد عبده ورسوله، ثمَّ قدَّم بين يدي حاجته التوبةَ والاستغفار، ثمَّ دخل على الله، وألحَّ عليه في المسألة، وتَملَّقه ودعاه رغبة ورهبة، وتوسَّل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدَّم بين يدي دعائه صدقةً، فإنَّ هذا الدعاءَ لا يكاد يُردُّ أبداً، ولا سيما إن صادف الأدعيةَ التي أخبر النبي ﷺ أنَّها مظنَّةُ الإجابةِ، أو أنَّها متضمِّنَةٌ للاسم الأعظم ». اهـ كلامه رحمه الله[٢].

---

(١) سنن الترمذي (رقم:٣٤٧٩)، وانظر: الصحيحة (رقم:٥٩٤).
(٢) الجواب الكافي (ص:٩).

وهو كلامٌ عظيم النفع، مشتملٌ على ذِكر جملة من الشروط المهمَّة والآداب العظيمةِ التي لا يكاد يُرَدُّ الدعاء حال توفرها، ويُمكن تلخيص هذه الآداب في الأمور التالية:

الأول: حضورُ القلب وجَمعِيَّتُه بكليَّته على المطلوب.

الثاني: تحرِّي أوقات الإجابة.

الثالث: أن يكون عن خشوع في القلب وتذلُّل وتضرُّع ورِقَّةٍ وانكسارٍ بين يدي الله عزَّ وجلَّ.

الرابع: أن يستقبل الداعي القبلةَ.

الخامس: أن يكون على طهارة.

السادس: أن يرفع يديه إلى الله عزَّ وجلَّ عند الدعاء.

السابع: أن يبدأ دعاءَه بحمد الله وحسن الثناء عليه، ثمَّ يُثَنِّي بالصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد ﷺ.

الثامن: أن يقدِّم بين يدي حاجته وطلبه التوبةَ والاستغفارَ.

التاسع: أن يُلحَّ على الله ويتملَّقه ويُكثر من مناجاته.

العاشر: أن يجمع في دعائه بين الرغبة والرهبة.

الحادي عشر: أن يتوسَّل إلى الله بأسمائه الحسنى وصفاته العظيمة وتوحيده.

الثاني عشر: أن يُقدِّم بين يدي دعائه صدقة.

الثالث عشر: أن يتخيَّر الأدعية الجامعة التي أخبر النبي ﷺ أنَّها مظنَّةُ الإجابة، أو أنَّها متضمِّنةٌ لاسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى.

فإذا جمع المسلمُ في دعائه هذه الأمورَ العظيمةَ، فإنَّ دعاءَه لا يكاد يُردُّ أبداً، إلاَّ أنَّ ها هنا أمراً نبَّه عليه أهل العلم لا بدَّ من العناية به وتحقيقه، وهو أنَّ الداعيَ ينبغي له مع قيامه بالدعاء مستوفياً لشروطه وآدابه أن يستتبع ذلك القيامَ بلوازم ذلك ومُتَمِّماته، وذلك بالسعي والجدِّ والاجتهاد في نيل المطلوب « فسؤال الله الهدايةَ يستدعي فِعلَ جميعِ الأسبابِ التي تُدركُ بها الهدايةُ؛ العلميةُ والعمليةُ، وسؤالُ الله الرحمةَ والمغفرةَ يقتضي مع ذلك فعل الممكن من الأسباب التي تُنال بها الرحمة والمغفرة، وهي معروفة في الكتاب والسنة، وإذا قال الداعي: اللَّهمَّ أَصلِح لي ديني الذي هو عِصمةُ أمري، وأَصلِح لي دنياي التي فيها معاشي، إلى آخره يقتضي في هذا الطلب والالتجاء إلى الله أن يَسعى العبدُ في إصلاح دينه بمعرفة الحقِّ واتِّباعه، ومعرفة الباطل واجتنابه، ودفع فتن الشبهات والشهوات، ويقتضي أن يسعى ويقومَ بالأسباب التي تَصلُحُ بها دنياه، وهي متنوعةٌ بحسب أحوال الخلق، وإذا قال الداعي: **{رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}**[1]، فمع هذا التضرع إلى الله يسعى في شكر نعم الله عليه وعلى والديه اعترافاً وثناءً وحمداً واستعانةً بها على طاعته، وتعرّف الأعمال الصالحة التي ترضي الله والعمل بها، والسعي في تربية الذرية تربية إصلاحية دينية، وهكذا جميع الأدعية صريحة في الاتكال والتضرع إلى الله والالتجاء إليه في حصول المطالب المتنوعة، وصريحة في الاجتهاد في فعل كلِّ سبب ينال به

(١) سورة الأحقاف، الآية: (١٥).

ذلك المقصود، فإنَّ الله تعالى جعل المطالبَ كلَّها أسباباً بها تنال، وأمرَ بفعلها مع قوة الاعتماد على الله، والدعاء يعبر عن قوة الاعتماد على الله، ولهذا كان رُوحَ العبادة ومُخَّها، وإذا سأل العبدُ ربَّه أن يتوفاه مسلماً وأن يتوفاه مع الأبرار كان سؤالاً لحسن الخاتمة، ويستدعي فعل الأسباب والتوفيق للأسباب التي تنال بها الوفاة على الإسلام، ولهذا يقول الله تعالى: {**وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ**}[1]، وذلك بفعل الأسباب والاعتماد على مسبِّبها »[2]، وهو الله وحده الذي بيده أزمة الأمور.

* * *

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٠٢).

(٢) مجموع الفوائد واقتناص الأوابد لابن سعدي (ص:٩٨).

٨٦ ـ افتقارُ العبدِ إلى الله

إنَّ من الخصال الكريمة والخلال العظيمة التي ينبغي أن يتصفَ بها مَن يدعو اللهَ عزَّ وجلَّ أن يعلم علمَ يقينٍ أنَّه مفتقرٌ إلى الله عزَّ وجلَّ، محتاجٌ إليه، لا يستغني عنه طرفة عين، وذلك أنَّ الإنسان بل وجميعَ المخلوقات عبادٌ لله تعالى، فقراءُ إليه، مماليكُ له، وهو ربُّهم ومليكُهم وإلَهُهم، لا إله لهم سواه، فالمخلوقُ ليس له من نفسه شيءٌ أصلاً، بل نفسُه وصفاتُه وأفعالُه وما ينتفع به أو يستحقه وغيرُ ذلك إنَّما هو من خلق الله، والله عزَّ وجلَّ ربُّ ذلك كلِّه، ومليكُه وبارئُه وخالقُه ومصوِّرُه، ومدبِّرُ شؤونه، فما شاء الله كان وما لَم يشأ لَم يكن، فلا رادَّ لقضائه ولا معقِّب لحكمه {**مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ**}[1].

فالمخلوقُ فقيرٌ إلى الله، محتاجٌ إليه، ليس فقيراً إلى سواه، يقول الله: {**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمْ الفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ**}[2]، فليس المخلوق مستغنياً بنفسه ولا بغير ربِّه سبحانه؛ إذ إنَّ ذلك الغيرَ فقيرٌ أيضاً، محتاجٌ إلى الله، ولهذا قيل استغاثةُ المخلوق بالمخلوقِ كاستغاثة الغريق بالغريق، وقيل: استغاثةُ المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون.

وقد جاء في الحديث القدسي أنَّ الله تبارك وتعالى يقول: « يا عبادي كلُّكم ضالٌّ إلاَّ مَن هديتُه، فاستهدوني أهدِكم، يا عبادي كلُّكم جائعٌ إلاَّ مَن

(١) سورة فاطر، الآية: (٢).

(٢) سورة فاطر، الآية: (١٥).

أطعمته، فاستطعِموني أُطعمكم، يا عبادي كلُّكم عارٍ إلاَّ من كسوتُه، فاستكسوني أكسُكم، يا عبادي إنَّكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوبَ جميعاً فاستغفروني أغفر لكم ... »[١]، قال ابن رجب رحمه الله: « هذا يقتضي أنَّ جميع الخلق مُفتَقِرون إلى الله تعالى في جلب مصالِحِهم، ودفع مضارِّهم، في أمور دينهم ودنياهم، وأنَّ العبادَ لا يملكون لأنفسهم شيئاً من ذلك كلِّه، وأنَّ من لَم يتفضّل الله عليه بالهدى والرزق فإنَّه يحرمهما في الدنيا، ومن لَم يتفضَّل الله عليه بمغفرة ذنوبه أَوْبَقته خطاياه في الآخرة »[٢]. اهـ كلامه رحمه الله.

فالأمورُ كلُّها بيده، الهدايةُ والعافيةُ والرزقُ والصحةُ وغيرُ ذلك، وما شاء سبحانه من ذلك كان، وما لَم يشأ لَم يكن {**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**}[٣]، قال تعالى: {**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**}[٤]، فعطاؤُه سبحانه كلام، وعذابُه كلام، فإذا أراد شيئاً من عطاء أو عذاب أو غير ذلك قال له كن فيكون، ولهذا فكيف ـ والأمر كذلك ـ يُلجأ إلى سواه، أو يُخضع لمن دونه، أو يُطلب ويدعى غيره؟

ولهذا قال الله تعالى: {**فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ**}[٥] « فالعبد لا بدَّ له من رزقٍ، وهو محتاجٌ إلى ذلك، فإذا طلب رزقَه من الله صار

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٢٥٧٧).
(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٧ ـ ٣٨).
(٣) سورة يس، الآية: (٨٢).
(٤) سورة النحل، الآية: (٤٠).
(٥) سورة العنكبوت، الآية: (١٧).

عبداً لله، فقيراً له، وإذا طلبه من مخلوق صار عبداً لذلك المخلوق فقيراً له »[١].

إنَّ فقرَ المخلوق واحتياجَه لربِّه أمرٌ ذاتيٌّ له، لا وجود له بدونه، لكنَّ المخلوقين يتفاوتون في إدراك ذلك الافتقار أو العزوب عنه، والعبد فقيرٌ إلى الله من جهتين، من جهة العبادة، ومن جهة الاستعانة كما قال الله سبحانه: {**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**}، فالعبد يفتقر إلى الله من جهة أنَّه معبودُه الذي يحبُّه حبَّ إجلال وتعظيم، وقلبُه لا يصلح ولا يفلح، ولا يُسرُّ ولا يلتذُّ، ولا يطيب ولا يسكن، ولا يطمئن إلاَّ بعبادة ربِّه والإنابة إليه، ولو حصل له كلُّ ما يلتذُّ به من المخلوقات لَم يطمئن ولم يسكن، إذ فيه فقرٌ ذاتي إلى ربِّه من حيث هو معبودُه ومحبوبُه ومطلوبُه، وبهذا يحصل له الفرحُ والسرورُ واللذَّةُ والنِّعمةُ والسكونُ والطمأنينة، والعبد يفتقر إلى الله من جهة استعانته به للاستسلام لأمره، والانقياد لحكمه، والخضوع لشرعِه؛ إذ لا يقدر على تحصيل شيء من ذلك والقيام به إلاَّ إذا أعانه الله »[٢].

وها هنا قاعدةٌ مهمةٌ نبّه عليها أهلُ العلم، وهي أنَّ كلَّ حيٍّ سوى الله، فهو فقيرٌ إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، فلا بدَّ له من أمرين:

أحدهما: هو المطلوب المحبوب الذي ينتفع به ويتلذذ به.

والثاني: هو المعين الموصل لذلك المقصود والمانعُ لحصول المكروه، والدافعُ له بعد وقوعه.

---

(١) العبودية لابن تيمية (ص:٢٢).

(٢) انظر: العبودية لابن تيمية (ص:٢٩)، ومجموع الفتاوى له (١٤/ ٣١).

فهنا أربعة أشياء يحتاج إليها الإنسان:

أحدها: أمر محبوب مطلوب الوجود.

والثاني: أمر مكروه مبغض مطلوب العدم.

والثالث: الوسيلة إلى حصول المحبوب.

والرابع: الوسيلة إلى دفع المكروه.

فهذه أربعة أمور ضرورية للعبد بل ولكلِّ حيّ، لا يقوم وجودُه ولا يكون صلاحُه إلاَّ بها.

إذا عُرف هذا فالله سبحانه هو المطلوبُ المعبودُ المحبوبُ وحده، لا شريك له، وهو وحده المُعِينُ للعبد على حصول مطلوبه، فلا معبودَ سواه، ولا مُعينَ على المطلوب غيره، فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعة المتقدمة دون ما سواه، وهذا معنى قول العبد {**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**}، فإنَّ هذه العبادةَ تتضمن المقصودَ المطلوبَ على أكملِ الوجوه، والمستعان هو الَّذي يُستعان به على حصول المطلوب ودفع المكروه، وفي القرآن الكريم سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين:

أحدها: قوله تعالى: {**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**}.

الثاني: قوله تعالى: {**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**}(١).

الثالث: قوله تعالى: {**فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ**}(٢).

---

(١) سورة هود، الآية: (٨٨)، والشورى، الآية: (١٠).

(٢) سورة هود، الآية: (١٢٣).

الرابع: قوله تعالى: {رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا}[1].

الخامس: قوله تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ}[2].

السادس: قوله تعالى: {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابْ}[3].

السابع: قوله تعالى: {وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً رَبُّ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً}[4].

إنَّ حاجةَ العبد إلى أن يعبد الله وحده ولا يُشرك به شيئاً في محبَّتِه، ولا في خوفِه، ولا في رجائِه، ولا في التوَكُّلِ عليه، ولا في التذَلُّلِ والتعظيمِ والتقرُّبِ أعظمُ من حاجة الجسد إلى روحه، والعين إلى نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظيرٌ تُقاس به، فالعبدُ لا بدّ له من إلَهِه الحق في كلِّ حالة وكلِّ دقيقة وكلِّ طرفة عين، وضرورته وحاجته إليه لا تشبهها ضرورة ولا حاجة، بل هي فوق كلِّ ضرورة وأعظم من كلِّ حاجة، والقرآنُ الكريم مملوءٌ مِن ذكرِ حاجةِ العباد إلى الله دون ما سواه، ومِن ذكرِ نعمائه عليهم، ومِن ذكرِ ما وعدهم في الآخرة من صنوف النعيم واللّذات، وعلمُ العبد بهذا يحقِّقُ له تمامَ التوكُّلِ على الله، وكمالَ الشكر له، ومحبّته على إحسانه واللجوءَ إليه وحده دون ما

(١) سورة الممتحنة، الآية: (٤).

(٢) سورة الفرقان، الآية: (٥٨).

(٣) سورة الرعد، الآية: (٣٠).

(٤) سورة المزمل، الآية: (٩).

سواه في الأمور كلِّها، صغيرِها وكبيرِها، دقيقِها وجليِّها[١].

وإنا لنسأل الله الكريم أن يوفقنا لتحقيق ذلك وحسن القيام به، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقلَّ من ذلك، وأن يهدينا إليه صراطاً مستقيماً.

* * *

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١/ ٢٠ ـ ٣٦)، وطريق الهجرتين لابن القيم (ص:١٠٠ ـ ١٠٤).

٨٧ ـ جملةٌ من آداب الدعاء

إنَّ من آداب الدعاء المهمَّة وأسباب قبوله العظيمة أن يسبق الدعاءَ توبةٌ من العبد إلى الله عزَّ وجلَّ من جميع ذنوبه وخطاياه، فيُقرُّ بذنبه، ويعترف بتقصيره، ويندم على تفريطه، فإنَّ تراكمَ الذنوب واجتماعَ الخطايا سببٌ من أسباب عدم الإجابة، كما قال بعض السلف: « لا تستبطئ الإجابةَ وقد سددتَ طُرُقَها بالمعاصي »، وقد نظم بعضُهم هذا المعنى في بيتين من الشعر فقال:

نحن ندعو الإلـهَ في كلِّ كرب ثمَّ ننساه عند كشف الكروب

كيـف نـرجـو إجـابـةً لـدعاءٍ قد سـددنا طـريقَهـا بالذنــوب

وقد سبق أن مرَّ معنا حديثُ النبي ﷺ عندما ذكر الرجلَ يطيل السفر أشعث أغبر يَمدُّ يديه إلى السماء يقول: يا رب يا رب، ومطعمُه حرام، وملبسُه حرام، وغُذِيَ بالحرام، فأنَّى يُستجاب لذلك، فاستبعد النبي ﷺ إجابةَ دعاء مَن كانت هذه حاله « وقد يكون ارتكاب المحرمات الفعليةُ مانعاً من الإجابة أيضاً، وكذلك ترك الواجبات »[(١)].

ولهذا فإنَّ مَن أراد أن يجيب الله دعاءَه ويُحقق رجاءَه، فعليه أن يتوب إلى الله توبةً نصوحاً من ذنوبه وخطاياه، والله جلّ وعلا لا يتعاظمه ذنبٌ أن يغفره، ولا حاجةٌ يُسألها أن يعطيها، وقد كان أنبياء الله ورسلُه يُرَغِّبون أممَهم ويحثُّونهم على التوبة والاستغفار، ويُبيِّنون لهم أنَّ ذلك سببٌ من أسباب

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٧٥).

إجابة الدعاء ونزول الأمطار وكثرة الخير وانتشار البركة في الأموال والأولاد، قال تعالى عن نوح عليه السلام أنَّه قال لقومه: {**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَكُمْ أَنْهَارًا**}(١)، وقال عن هود عليه السلام أنَّه قال لقومه: {**وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ**}(٢)، وقال تعالى: {**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**}(٣)، وقال تعالى: {**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**}(٤)، وقال تعالى: {**وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا**}(٥).

فالتوبةُ إلى الله واستغفارُه سببُ نزول الخيرات وتوالي البركات وإجابة الدعوات، يُروى أنَّ أميرَ المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج يستسقي فلم يزد على الاستغفار حتى رجع، فأُمطروا فقالوا:
ما رأيناك استسقيتَ؟ فقال: « لقد طلبتُ المطرَ بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر، ثمَّ قرأ: {**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ**

(١) سورة نوح، الآيات: (١٠ ـ ١٢).
(٢) سورة هود، الآية: (٥٢).
(٣) سورة الأعراف، الآية: (٩٦).
(٤) سورة الأنعام، الآيتان: (٤٢ ، ٤٣).
(٥) سورة هود، الآية: (٣).

عَلَيْكُم مِدْرَارًا} »[١].

وقال ابن صَبيح: « شكا رجلٌ إلى الحسن البصري رحمه الله الجدوبةَ، فقال له: استغفر الله، وشكا إليه آخر الفقر، فقال له: استغفر الله، وقال له آخر: ادع الله أن يرزقني ولداً، فقال له: استغفر الله، وشكا إليه آخر جفاف بستانه، فقال له: استغفر الله، فقلنا له في ذلك؟ فقال: ما قلت من عندي شيئاً، إنَّ الله تعالى يقول في سورة نوح: {**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَكُمْ أَنْهَارًا}** »[٢].

ومعنى الآية: « أي إذا تُبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه، كثر الرزق عليكم وأسقاكم من بركات السماء، وأنبتَ لكم من بركات الأرض، وأنبتَ لكم الزرعَ، وأدر لكم الضرع، وأمدَّكم بأموالٍ وبنينَ، أي أعطاكم الأموالَ والأولادَ وجعل لكم جنَّاتٍ فيها أنواع الثِّمار وخلَّلها بالأنهار الجارية بينها »[٣]، إلى غير ذلك من صنوف الخيرات وأنواع العطايا والهبات، وسيأتي الكلام على الاستغفار، فضله وأهميته وفوائده في الدنيا والآخرة.

ومن آداب الدعاء المهمة أن يدعو المسلم ربَّه وهو في حال تضرُّعٍ وخشوعٍ وخضوعٍ وتَذلُّلٍ، بل إنَّ ذلك « هو روحُ الدعاء ولبُّه ومقصودُه، فإنَّ الخاشعَ الذليلَ إنَّما يسأل مسألةَ مسكين ذليل قد انكسر قلبُه وذلَّت

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٩٨).
(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٨٧)، والطبراني في الدعاء (رقم:٩٦٤).
(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٦٠).

جوارحُه وخشع صوتُه »[1]، قال الله تبارك وتعالى: {**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**}، فأمر سبحانه بدعائه بتضرُّع وخفية، وحذَّر في هذا السياق من الاعتداء، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « ومِن العدوان أن يدعوه غير متضرِّع، بل دعاءُ هذا كالمستغني المدلي على ربِّه، وهذا من أعظم الاعتداء لمنافاته لدعاء الذليل، فمَن لَم يسأل مسألة مسكين متضرِّع خائف فهو مُعتد »[2].

وقد سبق الكلامُ على الاعتداء في الدعاء وأنواعه، وأنَّ كلَّ تجاوز لما حدَّته الشريعة في ذلك فهو اعتداء.

ومِن آداب الدعاء الإلحاحُ على الله وكثرةُ سؤاله وعدمُ السآمة والملل « والله يحبُّ الملحِّين في الدعاء، ولهذا تجد كثيراً من أدعية النبي ﷺ فيها من بسط الألفاظ وذكر كلِّ معنى بصريح لفظه، دون الاكتفاء بدلالة اللفظ الآخر عليه ما يشهد لذلك، كقوله ﷺ في حديث علي رضي الله عنه الذي رواه مسلم في صحيحه: « اللَّهمَّ اغفر لي ما قدَّمتُ وما أخرتُ وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به منِّي، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر لا إله إلاَّ أنت »[3]، ومعلومٌ أنَّه لو قيل: اغفر لي كلَّ ما صنعت كان أوجز، ولكن لفظ الحديث في مقام الدعاء والتضرُّع وإظهار العبودية والافتقار باستحضار الأنواع التي يتوب العبدُ منها تفصيلاً أحسن وأبلغ من الإيجاز والاختصار، وكذلك قوله ﷺ في الحديث الآخر: « اللَّهمَّ اغفر لي ذنبي كلَّه دقَّه وجُلَّه، سرَّه وعلانيته، أوَّلَه

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٦).

(٢) الفتاوى (١٥/ ٢٣).

(٣) صحيح مسلم (رقم:٧٧١).

وآخره »[١]، وفي الحديث: « اللَّهمَّ اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به منِّي، اللَّهمَّ اغفر لي جدي وهَزلي وخطئي وعمدي وكلُّ ذلك عندي »[٢]، وهذا كثيرٌ في الأدعية المأثورة، فإنَّ الدعاءَ عبوديةٌ لله وافتقارٌ إليه وتذلُّلٌ بين يديه، فكلَّما كثَّره العبدُ وطوَّله وأعاده وأبداه ونوَّع جُملَه كان ذلك أبلغَ في عبوديته وإظهار فقره وتذلُّلِه وحاجته، وكان ذلك أقربَ له من ربِّه وأعظمَ لثوابه، وهذا بخلاف المخلوق، فإنَّك كلَّما كثرت سؤاله وكررت حوائجك إليه أبرمته وثقلت عليه وهنتَ عليه، وكلما تركت سؤاله كان أعظمَ عنده وأحبَّ إليه، والله سبحانه كلَّما سألته كنتَ أقربَ إليه وأحبَّ إليه، وكلَّما أَلْححت عليه في الدعاء أحبَّكَ، ومَن لَم يسأل الله يغضب عليه.

فالله يغضب إن تركتَ سؤاله   وبُنَيُّ آدم حين يُسأل يغضب »[٣].

وقد روي في سنن أبي داود وغيره من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: « أنَّ رسول الله ﷺ كان يُعجبه أن يدعو ثلاثاً ويستغفر ثلاثا »[٤]، وقال الأوزاعي رحمه الله: « كان يُقال: أفضل الدعاء الإلحاح على الله والتضرع »[٥].

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٤٨٣).
(٢) صحيح مسلم (رقم:٢٧١٩).
(٣) جلاء الأفهام لابن القيم (ص:٢٠٣).
(٤) سنن أبي داود (رقم:١٥٢٤)، المسند (١/ ٣٩٤، ٣٩٧)، وأورده العلاَّمة الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (رقم:٤٩٨٤).
(٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٨).

٨٨ ـ تعرَّف إلى الله في الرَّخاءِ يعرفك في الشدَّة

تقدَّم معنا ذكر ثلاثة آدابٍ للدعاء عظيمة، وهي أن يقدم العبدُ بين يدي دعائه توبة من ذنوبه وخطاياه، وأن يكون دعاؤه لربِّه في حال تضرُّع وخشوعٍ وخضوع، وأن يُلحَّ على الله في الدعاء ويُكثر من سؤاله دون سآمة أو ملل، وهذه جملة أخرى من آداب الدعاء التي ينبغي أن يعتني بها المسلم.

فمِن آداب الدعاء المهمة أن لا يقتصرَ المسلم على دعائه ربَّه في حال الشدَّة فقط، بل الواجب أن يدعوَ ربَّه في سرَّائه وضرَّائه، وشدَّته ورخائه، وصحته وسقمه، وفي أحواله كلِّها، وملازمةُ المسلم للدعاء حال الرخاءِ، ومواظبتُه عليه في حال السرَّاء سببٌ عظيمٌ لإجابة دعائه عند الشدائد والمصائب والكُرَب، وقد جاء في الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ قال: « مَن سرَّه أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب فلْيُكثِر الدعاءَ في الرخاء »، رواه الترمذي، والحاكم، وغيرُهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وسنده حسن[1].

وقد ذمَّ الله المشركين في مواطن كثيرة من كتابه العزيز بأنَّهم لا يلجأون إلى الله ولا يُخلصون الدِّين إلاَّ في حال شدَّتهم، أمَّا في حال رخائهم ويُسرهم وسرَّائهم، فإنَّهم يشركون مع الله غيرَه، ويُقبلون على أوثان لا تَملِكُ لهم شيئاً ولا تنفعهم ولا تضرُّهم، فيَسْتَنْجِدون بها ويستغيثون

(١) سنن الترمذي (رقم:٣٣٨٢)، والمستدرك (١/ ٥٤٤)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (رقم:٦٢٩٠).

بها ويُنزلون بها حاجاتهم وطلباتهم، يقول الله تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ للهِ أَندَادًا}[(١)]، ويقول تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ}[(٢)]، ويقول تعالى: {فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ}[(٣)]، ويقول تعالى: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ}[(٤)]، والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ، وهي تدلُّ دلالة واضحة على ذمِّ مَن لا يعرف الله إلاَّ في حال ضرَّائه وشدَّته، أمَّا في حال رخائه فإنَّه يكون في صدود وإعراض ولَهوٍ وغفلة وعدم إقبال على الله تبارك وتعالى.

ولهذا فإنَّ الواجبَ على المسلم أن يُقبلَ على الله في أحواله كلِّها في اليُسرِ والعُسرِ، والرخاءِ والشدِّةِ، والغنى والفقرِ، والصحةِ والمرضِ، ومَن تعرَّف على الله في الرخاء عرفه الله في الشدَّة، فكان له معيناً وحافظاً ومؤيِّداً وناصراً.

ولهذا قال النبي ﷺ كما في حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما

---

(١) سورة الزمر، الآية: (٨).
(٢) سورة يونس، الآية: (١٢).
(٣) سورة الزمر، الآية: (٤٩).
(٤) سورة فصلت، الآية: (٥١).

المشهور: « تعرَّف إلى الله في الرَّخاء يعرفك في الشدَّة »[١].

قال ابن رجب رحمه الله في جزء له أفرده في شرح هذا الحديث:
« المعنى أنَّ العبدَ إذا اتقى الله وحفظ حدودَه وراعى حقوقه في حال رخائه وصحته، فقد تعرَّف بذلك إلى الله، وكان بينه وبينه معرفة، فعرفه ربُّه في الشدَّة، وعرف له عملَه في الرخاء، فنجَّاه من الشدائد بتلك المعرفة ... وهذا التعرُّفُ الخاص هو المشار إليه في الحديث الإلَهي « ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ـ إلى أن قال ـ ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه »[٢] »[٣].

ثمَّ أورد عن الضحاك بن قيس أنَّه قال: « اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدَّة، إنَّ يونس عليه السلام كان يذكر اللهَ، فلمَّا وقع في بطن الحوت قال الله تعالى: {**فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**}[٤]، وإنَّ فرعونَ كان طاغياً ناسياً لذكر الله، فلمَّا أدركه الغرقُ قال: آمنتُ، فقال الله تعالى: {**آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**}[٥] »، فمَن لَم يتعرَّف إلى الله في الرخاء فليس له أن يعرفه في الشدَّة لا في الدنيا ولا في الآخرة.

---

(١) المسند (١/٣٠٧)، وصححه العلاَّمة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (رقم:٢٩٦١).
(٢) صحيح البخاري (رقم:٦٥٠٢).
(٣) نور الاقتباس لابن رجب (ص:٤٣).
(٤) سورة الصافات، الآيتان: (١٤٣ ، ١٤٤).
(٥) سورة يونس، الآية: (٩١).

قال رجل لأبي الدرداء: « أوصِنِي، فقال: اذكر الله في السرَّاء يذكرك الله عزَّ وجلَّ في الضرَّاء »[١].

وعنه رضي الله عنه أنَّه قال: « ادع الله في يوم سرَّائك لعلَّه أن يستجيب لك في يوم ضرَّائك »[٢].

وإنَّ من التعرُّف على الله في الرخاء أن يجتهد العبدُ في حال رخائه بالتقرُّب إلى الله وطلبِ مرضاته، والإكثار من الأعمال الصالحة المُقرِّبة إليه، كالبر والصلة، والصدقة والإحسان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك من وجوه البِرِّ وسُبل الخير « وحديث الثلاثة الذين دخلوا الغارَ وانطبقت عليهم الصخرةُ يشهد لهذا، فإنَّ الله فرج عنهم بدعائهم بما كان منهم من الأعمال الصالحة الخالِصة في حال الرخاء من بر الوالدين، وترك الفجور، والأمانة الخفية »[٣].

وحديث هؤلاء مشهور خرَّجه الإمام البخاري في مواطن عديدة من صحيحه، وخرَّجه مسلم وغيرُهما من الأئمة، ولفظ الحديث في باب: حديث الغار من كتاب: أحاديث الأنبياء من صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قال: « بينما ثلاثة نفر مِمَّن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطرٌ، فأَوَوا إلى غار فانطبق عليهم، فقال بعضُهم لبعض: إنَّه والله يا هؤلاء لا يُنجيكم إلاَّ الصدقُ، فلْيدعُ كلُّ رجل منكم بما يعلم أنَّه قد صَدَقَ

(١) حلية الأولياء (١/ ٢٠٩).
(٢) المصنف لعبد الرزاق (١١/ ١٨٠)، وشعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٥٢)، وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٤٧٥ ـ ٤٧٦).
(٣) نور الاقتباس لابن رجب (ص:٤٦).

فيه، فقال واحدٌ منهم: اللَّهمَّ إن كنتَ تعلم أنَّه كان لي أجيرٌ عمل لي على فَرَق من أرُزٍّ فذهب وتركه، وأنِّي عمدتُ إلى ذلك الفرَق فزرعته، فصار من أمره أنِّي اشتريتُ منه بقراً، وأنَّه أتاني يطلبُ أجرَه، فقلتُ له: اعمد إلى تلك البقر فسُقها، فقال لي: إنَّما لي عندك فرَق من أَرُزٍّ، فقلتُ له: اعمد إلى تلك البقر، فإنَّها من ذلك الفَرَق، فساقها، فإن كنتَ تعلم أنِّي فعلتُ ذلك من خشيتِك ففرِّج عنَّا، فانساخت عنهم الصخرةُ، فقال الآخر: اللَّهمَّ إن كنتَ تعلمُ أنَّه كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنتُ آتيهما كلَّ ليلةٍ بلبن غنم لي، فأبطأتُ عنهما ليلة، فجئتُ وقد رَقَدَا، وأهلي وعِيالي يتضاغون من الجوع، وكنتُ لا أسقيهم حتى يشرب أبواي، فكرهتُ أن أوقظهما، وكرهتُ أن أدعهما فيستكنَّا لشربتهما، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجرُ، فإن كنتَ تعلم أنِّي فعلتُ ذلك من خشيتك ففرِّج عنَّا، فانساخت عنهم الصخرةُ حتى نظروا إلى السماء، فقال الآخر: اللَّهمَّ إن كنتَ تعلم أنَّه كان لي ابنةُ عمٍّ من أحبِّ الناس إليَّ، وإنِّي راودتُها عن نفسها فأَبَتْ إلاَّ أن آتيها بمائة دينار، فطلبتُها حتى قدرتُ، فأتيتُها بها فدفعتُها إليها فأمكنتني من نفسها، فلمَّا قعدتُ بين رِجليها فقالت: اتَّق الله ولا تفُضَّ الخاتَم إلاَّ بحقِّه، فقمتُ وتركتُ المائةَ دينار، فإن كنتَ تعلم أنِّي فعلتُ ذلك من خشيتك ففرِّج عنَّا، ففرَّج الله عنهم فخرجوا »[1].

فكانت أعمالُ هؤلاء الثلاثة الصالحةُ سبباً لتفريج همِّهم وكشف كربتهم وإجابة دعوتهم وتحقيق أملهم ورجائهم، فلمَّا تعرَّف هؤلاء إلى ربِّهم في حال

---

(١) صحيح البخاري (٣٤٦٥).

رخائهم، تعرَّف إليهم ربُّهم سبحانه في حال شدَّتهم، فأمدَّهم بعونه، وأحاطهم بحفظه، وكلأهم برعايته وعنايته، وهو وحده الموفِّق والمعين لا شريك له.

* * *

٨٩ ـ رفع اليدين في الدعاء

إنَّ من آداب الدعاء العظيمة رفعَ اليدين في الدعاء إلى الله عزَّ وجلَّ؛ لثبوت ذلك عن النبي ﷺ في أحاديث كثيرة عدَّها بعضُ أهل العلم في جملة ما تواتر فيه النقلُ عن النبيِّ الكريم ﷺ، قال السيوطي في شرحه لتقريب الإمام النووي رحمهما الله ممثِّلا لِما تواتر معناه عن النبي ﷺ:

« فقد ورد عنه ﷺ نحوُ مائة حديث فيه رفعُ يديه في الدعاء، وقد جمعتها في جزء، لكنها في قضايا مختلفة، فكلُّ قضية منها لَم تتواتر، والقدر المشترَك فيه هو الرفعُ عند الدعاء تواتَر باعتبار المجموع »[1].

وعقد الإمام البخاري رحمه الله في كتابه الصحيح في كتاب الدعوات منه باباً بعنوان: رفع الأيدي في الدعاء، وأورد تحته عن أبي موسى الأشعري قال: « دعا النبيُّ ﷺ ثمَّ رفع يديه، ورأيتُ بياضَ إبطيه »[2]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: « رفع النبيُّ ﷺ يديه وقال: اللَّهمَّ إنِّي أبرأُ إليك ممَّا صنع خالد »[3]، وعن أنس، عن النبي ﷺ:
« رفع يديه حتى رأيتُ بياض إبطيه »[4].

وقد أشار شارح الصحيح الحافظُ ابن حجر رحمه الله إلى كثرة الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ في هذا المعنى، وذكر جملةً من الأحاديث في ذلك، منها:

---

(١) تدريب الراوي (٢/ ١٨٠).
(٢) صحيح البخاري (٧/ ١٩٨) تعليقاً.
(٣) صحيح البخاري (٧/ ١٩٨) تعليقاً.
(٤) صحيح البخاري (رقم:٦٣٤١).

حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: « قدم الطُفيل بن عمرو على النبي ﷺ فقال: إنَّ دوساً عصت فادعُ اللهَ عليها، فاستقبل القبلةَ ورفع يديه، فقال: اللَّهمَّ اهدِ دوساً »، أخرجه الإمام البخاري في الأدب المفرد، وهو في الصحيحين دون قوله: « ورفع يديه »[1].

ومنها: حديث جابر بن عبد الله: « أنَّ الطفيل بن عمرو هاجر ... »، وذَكَر قصَّةَ الرَّجل الذي هاجر معه، وفيه: فقال النبي ﷺ: « اللَّهمَّ ولِيَدَيْه فاغفر، ورفع يديه »، قال الحافظ: « وسنده صحيح، وأخرجه مسلم »[2].

وحديث عائشة: « أنَّها رأت النبي ﷺ يدعو رافعاً يديه يقول: اللَّهمَّ إنَّما أنا بشر ... »، الحديث[3]، قال الحافظ: « وهو صحيح الإسناد ».

قال الحافظ: « ومن الأحاديث الصحيحة في ذلك ما أخرجه المصنِّف [أي البخاري] في جزء رفع اليدين: « رأيتُ النبيَّ ﷺ رافعاً يديه يدعو لعثمان »[4]، ولمسلم من حديث عبد الرحمن بن سمرة في قصة الكسوف: « فانتهيتُ إلى النبيِّ ﷺ وهو رافعٌ يديه يدعو »[5]، وعنده في حديث عائشة في الكسوف أيضاً « ثمَّ رفع يديه يدعو »[6]، وفي حديثها عنده في دعائه لأهل البقيع: «

(١) الأدب المفرد (رقم:٦١١)، وانظر: صحيح البخاري (رقم:٢٩٣٧).
(٢) الأدب المفرد (رقم:٦١٤)، وهو في صحيح مسلم (رقم:١١٦)، دون قوله: ((ورفع يديه)).
(٣) الأدب المفرد (رقم:٦١٣).
(٤) رفع اليدين (رقم:١٥٧).
(٥) صحيح مسلم (رقم:٩١٣).
(٦) صحيح مسلم (رقم:٩٠١).

فرفع يديه ثلاث مرَّات »، الحديث[١]، ومن حديث أبي هريرة الطويل في فتح مكة: « فرفع يديه وجعل
يدعو »[٢]، وفي الصحيحين من حديث أبي حُميد في قصة ابن اللُّتْبِيَّة: « ثمَّ رفع يديه حتى رأيتُ عفرة إبطيه يقول: اللَّهمَّ هل بلَّغت »[٣]، ومن حديث عبد الله بن عمرو: « أنَّ النبيَّ ﷺ ذكر قولَ إبراهيم وعيسى فرفع يديه وقال: اللَّهم أمتي »[٤]، وفي حديث عمر: « كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحيُ يُسمع عند وجهه كدويِّ النحل، فأنزل الله عليه يوماً ثمَّ سُرِيَّ عنه فاستقبل القبلة ورفع يديه ودعا »، والحديث أخرجه الترمذي واللفظ له، والنسائي والحاكم[٥]، وفي حديث أسامة: « كنت ردف النبيِّ ﷺ بعرفات فرفع يديه يدعو، فمالت به ناقته فسقط خطامها فتناوله بيده وهو رافعٌ اليدَ الأخرى »، أخرجه النسائي بسند جيِّد[٦]، وفي حديث قيس بن سعد عند أبي داود: « ثمَّ رفع رسول الله ﷺ يديه وهو يقول: اللَّهمَّ صلواتك ورحمتك على

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٩٧٤).
(٢) صحيح مسلم (رقم:١٧٨٠).
(٣) صحيح البخاري (رقم:٢٥٩٧)، وصحيح مسلم (رقم:١٨٣٢).
(٤) صحيح مسلم (رقم:٢٠٢).
(٥) سنن الترمذي (رقم:٣١٧٣)، والنسائي في الكبرى (رقم:١٤٣٩)، والمستدرك (٢/ ٣٩٢).
وقال النسائي: ((هذا حديث منكر، لا نعلم أحداً رواه غير يونس بن سليم، ويونس بن سليم لا نعرفه، والله أعلم)).
(٦) السنن الكبرى (رقم:٤٠٠٧)، والصغرى (٥/ ٢٥٤).

آل سعد بن عبادة »، الحديث، وسنده جيِّد[١]، والأحاديث في ذلك كثيرة ».
اهـ كلام الحافظ رحمه الله[٢]، وقد تقصَّى فيه جملةً مباركة من أحاديث رفع الأيدي في الدعاء.

ومن الأحاديث الثابتة في ذلك ما رواه الترمذي وأبو داود وغيرهما عن سلمان الفارسي رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: « إنَّ ربَّكم حيِّيٌ كريم، يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً »[٣].

فهذه الأحاديثُ وما جاء في معناها تدلُّ على أنَّ من آداب الدعاء العظيمة رفع اليدين إلى الله، وأنَّ ذلك من أسباب إجابة الدعاء وقبوله، ودلَّت السنة أيضاً أنَّ لرفع اليدين في الدعاء صفاتٍ ثلاث ترجع إلى نوع الدعاء، فإذا كان ابتهالاً، وهو شدة المبالغة في الطلب فلرفع اليدين فيه صفة، وإذا كان دعاءً ومسألةً فللرفع فيه صفة، وإذا كان استغفاراً أو توحيداً وتمجيداً فللرفع فيه صفة، يوضح ذلك ويبيِّنه ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً وموقوفاً: « المسألة أن ترفع يديك حذو منكبيك أو نحوهما، والاستغفار أن تشير بإصبع واحدة، والابتهال أن تمدَّ يديك جميعاً »، وفي لفظ: « هكذا الإخلاص يشير بإصبعه التي تلي الإبهام، وهذا الدعاء فرفع يديه حذو منكبيه، وهذا الابتهال، فرفع يديه مدًّا »، رواه أبو داود في

---

(١) سنن أبي داود (رقم:٥١٨٥)، وذكره العلاَّمة الألباني رحمه الله في ضعيف سنن أبي داود (رقم:١١١١).
(٢) فتح الباري (١١/ ١٤٢).
(٣) سنن أبي داود (رقم:١٤٨٨)، وسنن الترمذي (رقم:٣٥٥٦)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (رقم:١٧٥٣).

سننه والطبراني في الدعاء وغيرهما[١].

قال الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد حفظه الله معلِّقاً على هذا الحديث: « وقد جاءت الأحاديثُ من فعل النبيِّ ﷺ مبيِّنة مقام كلِّ حالة من هذه الصفات الثلاث، لا أنَّها من اختلاف التنوع، وبيانها كالآتي:

المقام الأول: مقام الدعاء العام ويُسمى المسألة، ويُقال: الدعاء، وهو رفع اليدين إلى المنكبين أو نحوهما ضامًّا لهما باسطاً لبطونهما نحو السماء، وظهورهما إلى الأرض، وإن شاء قنَّع بهما وجهه وظهورهما نحو القبلة، وهذه هي الصفةُ العامة لرفع اليدين حال الدعاء مطلقاً وفي قنوت الوتر والاستسقاء أو في مواطن رفعهما الستة في الحج [أي في عرفة، والمشعر الحرام، وبعد رمي الجمرتين الصغرى والوسطى، وعلى الصفا والمروة]، وغير ذلك.

المقام الثاني: الاستغفار، ويُقال: الإخلاص، وهو رفع أصبع واحدة وهي السبابة من اليد اليمنى، وهذه الصفة خاصة بمقام الذِّكر والدعاء حال الخطبة على المنبر وحال التشهد في الصلاة، وحال الذِّكر والتمجيد والهيللة خارج الصلاة ...

المقام الثالث: الابتهال، وهو التضرُّع والمبالغة في المسألة، ويُسمى أيضاً دعاء الرَّهب، وصفته رفع اليدين مدًّا نحو السماء حتى ترى عفرة إبطيه أي

(١) سنن أبي داود (رقم:١٤٨٩)، (١٤٩٠)، والدعاء للطبراني (٢٠٨)، وصححه العلاَّمة الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود (رقم:١٣٢١، ١٣٢٢، ١٣٢٤) موقوفاً ومرفوعاً.

بياضهما، ويُقال في وصفه حتى يبدو عضداه، أي يرتفعان من المبالغة في الرفع، وهذه الصفة أخصُّ من الصفتين السابقتين في المقام الأول والثاني، وهي خاصة في حال الشدَّة والرَّهبة كحال الجدب، والنازلة بتسلُّط العدو، ونحو ذلك من مقامات الرَّهب » اهـ[(١)].

فهذه أحوال الرفع في الدعاء، وهي أحوال ثلاثة بحسب نوع الدعاء، وللموضوع صلة، والله الموفِّق.

❊ ❊ ❊

(١) تصحيح الدعاء (ص:١١٦ ـ ١١٧).

٩٠ ـ مراتب رفع اليدين في الدعاء

كان الحديث فيما سبق عن أدبٍ عظيمٍ من آداب الدعاء، وسببٍ عظيمٍ من أسباب إجابته، ألا وهو رفع اليدين إلى الله عزَّ وجلَّ عند الدعاء بتذلُّلٍ وتمسكُنٍ وافتقار، ومرَّ معنا جملةٌ من الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في ذلك، وأنَّ ذلك ممّا تواتر معناه عن رسول الله ﷺ، كما مرَّ أيضاً صفاتُ الرفع في الدعاء، وأنَّها ثلاثة بحسب نوع الدعاء، فإذا كان الدعاءُ ابتهالاً وتضرُّعاً فإنَّ رفعَ اليدين يكون بمدِّهما نحو السماء حتى يبدو بياضُ الإبط، وإذا كان الدعاءُ دعاءَ المسألة فيكون رفع اليدين إلى المنكبين أو نحوهما، وإذا كان الدعاءُ استغفاراً وتمجيداً وثناءً فإنَّ الرفعَ يكون بإصبع واحدة، وهي السبابة من اليد اليمنى.

وقد ثبت في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّه قال: « كان النبيُّ ﷺ لا يرفع يديه في شيء من دعائه إلاَّ في الاستسقاء »، متفق عليه[١].

فذهب بعضُ أهل العلم عملاً بهذا الحديث إلى أنَّ الدعاءَ لا يُشرع فيه رفع اليدين إلاَّ في الاستسقاء فقط، أمَّا سوى ذلك من الأدعية فلا يُشرع فيها رفع اليدين، لكنَّ هذا الحديث معارَضٌ بأحاديث كثيرة دالة على مشروعية رفع اليدين في الدعاء في غير الاستسقاء، ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « والصحيح الرفع مطلقاً، فقد تواتر في الصحاح: « أنَّ الطفيل

(١) صحيح البخاري (رقم:١٠٣١)، وصحيح مسلم (رقم:٨٩٥).

قال: يا رسول الله إنَّ دوساً قد عصتِ وأبت فادعُ عليهم، فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: اللَّهمَّ اهدِ دوْساً وأتِ بهم »[١]، وفي الصحيح: « أنَّه عليه الصلاة السلام لَمَّا دعا لأبي عامر رفع يديه »[٢]، وفي حديث عائشة رضي الله عنها: « لَمَّا دعا النبي ﷺ لأهل البقيع رفع يديه ثلاث مرَّات »، رواه مسلم[٣]، وفيه: « أنَّه ﷺ رفع يديه فقال: أُمَّتِي أُمَّتِي »، وفي آخره: « قال الله تعالى: إنَّا سنُرضيك في أُمَّتك ولا نسوؤك »[٤]، وفي قصة بدر لَمَّا رأى ﷺ المشركين مدَّ يديه وجعل يهتف بربِّه، فما زال يهتف بربِّه مادًّا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه[٥]، وفي حديث قيس بن سعد رضي الله عنهما: « فرفع يديه ﷺ وهو يقول: اللَّهمَّ اجعل صلاتك ورحمَتك على آل سعد بن عبادة »[٦]، وبعث جيشاً فيه عليٌّ رضي الله عنه فرفع يديه وقال: « اللَّهمَّ لا تُمتني حتى تريني عليًّا »[٧]، وفي حديث القنوت رفع يديه[٨] ...، ثمَّ ذكر شيخ الإسلام رحمه الله حديث أنس المتقدِّم في أنَّ النبي ﷺ ما كان يرفع يديه

---

(١) الأدب المفرد (رقم:٦١١)، وهو في صحيح البخاري (رقم:٢٩٣٧) دون ذكر رفع اليدين.

(٢) صحيح البخاري (رقم:٤٣٢٣)، وصحيح مسلم (رقم:٢٤٩٨).

(٣) صحيح مسلم (رقم:٩٧٤).

(٤) صحيح مسلم (رقم:٢٠٢).

(٥) صحيح مسلم (رقم:١٧٦٣).

(٦) سنن أبي داود (رقم:٥١٨٥)، وذكره العلاَّمة الألباني رحمه الله في ضعيف سنن أبي داود (رقم:١١١١).

(٧) سنن الترمذي (رقم:٣٧٣٧)، وذكره العلاَّمة الألباني رحمه الله في ضعيف سنن الترمذي (رقم:٧٨١).

(٨) المسند (٣/ ١٣٧)، والسنن الكبرى للبيهقي (٢/ ٢١١) عن أنس رضي الله عنه.

في شيء من دعائه إلاَّ في الاستسقاء، ثمَّ قال: « والجمع بين حديث أنس هذا وسائر الأحاديث ما قاله طوائف من العلماء، وهو أنَّ أنساً ذكر الرفعَ الشديد الذي يُرى فيه بياضُ إبطيه وينحني فيه بدنه، وهذا الذي سمَّاه ابنُ عباس الابتهال، فجعل المراتبَ ثلاثة: الإشارة بإصبعٍ واحدة، كما كان يفعل يوم الجمعة على المنبَر، والثانية: المسألة، وهو أن يجعل يديه حذو منكبيه، كما في أكثر الأحاديث، والثالث: الابتهال، وهو الذي ذكره أنس، ولهذا قال: « كان يرفع يديه حتى يُرى بياض إبطيه »[1]، وهذا الرفعُ إذا اشتدَّ كان بطون يديه مِمَّا يَلِي وجهه والأرض، وظهورُهما مما يلي السماء، ويؤيِّد هذا التأويل ما روى أبو داود في مراسيله من حديث أبي أيوب سليمان بن موسى الدِّمشقي رحمه الله قال: « لَم يحفظ من رسول الله ﷺ أنَّه رفع يديه الرفع كلَّه إلاَّ في ثلاثة مواطن: الاستسقاء، والاستنصار، وعشية عرفة، ثمَّ كان بعدُ رفعاً دون رفع »[2]. قال: وقد يكون أنسٌ أراد بالرفع على المنبر يوم الجمعة كما في مسلم وغيره: « أنَّه كان لا يزيد على أن يرفع إصبعه المسبِّحة »[3]، قال: وفي هذه المسألة قولان هما وجهان في مذهب الإمام أحمد، يعني في رفع الخطيب يديه، قيل: يُستحب، قاله ابنُ عقيل، وقيل: لا بل يُكره، وهو أصح ». اهـ[4].

وقال الحافظ ابنُ حجر في الجمع بين حديث أنس والأحاديث الأخرى الدالة على مشروعية الرفع في سائر الأدعية: « لكن جُمع بينه وبين أحاديث

(١) صحيح البخاري (رقم:١٠٣٠)، (١٠٣١).
(٢) المراسيل (رقم:١٤٨).
(٣) انظر: صحيح مسلم (رقم:٨٧٤).
(٤) انظر: شرح ثلاثيات المسند للسفاريني (١/ ٦٥٣ ـ ٦٥٤).

الباب وما في معناها بأنَّ المنفيَّ صفةٌ خاصة لا أصل الرفع، فإنَّ الرفعَ في الاستسقاء يخالف غيرَه بالمبالغة إلى أن تصير اليدان في حذو الوجه مثلاً، وفي الدعاء إلى حذو المنكبين، ولا يُعكِّر على ذلك أنَّه ثبت في كلٍّ منهما: « حتى يُرى بياض إبطيه »، بل يُجمع بأن تكون رؤية البياض في الاستسقاء أبلغ منها في غيره، وإما أنَّ الكفين في الاستسقاء يليان الأرض وفي الدعاء يليان السماء، قال المنذري: وبتقدير تعذر الجمع فجانب الإثبات أرجح. قلت: [أي ابن حجر]: ولا سيما مع كثرة الأحاديث الواردة في ذلك ». اهـ[١].

وبما تقدَّم يتبيَّن أنَّ الدعاءَ مشروعٌ فيه رفع اليدين سواء في الاستسقاء أو غيره، بل إنَّ الرفعَ من أسباب الإجابة، كما في الحديث: « إنَّ ربَّكم حيِّيٌ كريم، يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً »[٢]، أي خائبتين، لكن صفة الرفع في الاستسقاء الذي هو مقام شدَّة ورهب تكون بالمبالغة في الرفع والابتهال الشديد، وأما ما سواه فيكون الرفعُ إلى المنكبين أو نحوِهما، عملاً بجميع الأحاديث الواردة في الباب.

وقد ثبت عن أنس بن مالك رضي الله عنه في حديث آخر: « أنَّ النبيَّ ﷺ استسقى فأشار بظهر كفيه إلى السماء »، رواه مسلم[٣]، وفي ذلك إشارةٌ إلى المبالغة في رفع اليدين في حال الجدب في الاستسقاء، ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « إنَّما هو لشدَّة الرفع انحنت يدُه فصارت كفُّه مما يلي السماء لشدَّة الرفع، لا قصداً لذلك، كما جاء أنَّه رفعهما حذاء

---

(١) فتح الباري (١١/ ١٤٢).
(٢) سنن أبي داود (رقم:١٤٨٨)، وسنن الترمذي (رقم:٣٥٥٦)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (رقم:١٧٥٣).
(٣) صحيح مسلم (رقم:٨٩٦).

وجهه ».

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين حفظه الله: « رفع اليدين في الدعاء على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما وردت به السنَّة، فهذا ظاهر أنَّه يُسَن فيه الرفع، مثل دعاء الاستسقاء، والدعاء على الصفا والمروة، وفي عرفة.

والقسم الثاني: ما ورد فيه عدم الرفع مثل الدعاء في الصلاة، والتشهد الأخير.

القسم الثالث: ما لَم يرِد فيه الرفع ولا عدم الرفع، فهذا الأصل فيه أنَّ من آداب الدعاء أن يرفع الإنسانُ يديه »[١].

ثمَّ إنَّ رفعَ اليدين في الدعاء فيه من التذلُّل والخضوع والانكسار والمسكنة وإظهار الحاجة والافتقار إلى الربِّ الكريم ما يكون سبباً لقبوله وإجابته، قال السفاريني رحمه الله: « قال العلماء: إنَّما شرع رفع اليدين في الدعاء لزيادة التذلل، فيجتمع للإنسان أحوالُ الضراعة في مقام العبودية، وأيضاً فإنَّ العبدَ ربما عجز عن إيقاظ قلبه من الغفلة، وله قدرة على حركة اليد واللسان فيهما، فكان ذلك وسليةً إلى خشوع القلب، وقد قالوا: حركات الظواهر توجب بركات السرائر، وهو نظير رفع السبابة في تشهد الصلاة، فيوحِّد الجنان ويترجم اللسان وتزكيه الأركان »[٢].

---

(١) لقاء الباب المفتوح (٥١ ـ ٦٠) (ص:١٧ ـ ١٨) باختصار.

(٢) انظر: شرح ثلاثيات المسند للسفاريني (١/ ٦٥٥ ـ ٦٥٦).

٩١ ـ الدلائل والمعاني المستفادة من رفع اليدين

لا يزال الحديث ماضياً في الكلام على رفع اليدين إلى الله عزَّ وجلَّ حال الدعاء، ذالكم الأدب الرفيع من المخلوق الفقير المحتاج مع ربِّه الغنيِّ الجواد الكريم؛ حيث يُظهرُ المخلوقُ برفعه يديه احتياجَه لربِّه، وافتقارَه إليه، وذُلَّه، وخضوعَه وانكسارَه بين يدي ربِّه، وكلَّما عظمت حاجة المخلوق واشتدت رغبتُه وزاد إلحاحُه بالَغَ في رفعه يديه وزاد في مدِّهما إلى الله متذلِّلاً متوسِّلاً، ولهذا لَمَّا كان دعاءُ الاستسقاء فيه من الرغبةِ والإلحاح ما ليس في غيره كان رفعُ النبي ﷺ وإشارتُه فيه أعظمَ منه في غيره، وفي ذلك أعظمُ دلالة على توحيد الله وتعظيمه وتكبيره والإيمان بعلوِّه على خلقه وقيُّوميَّته، وغِناه الكامل عنهم وافتقارهم واحتياجهم إليه، كما قال تعالى: {**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ**}[1]، وقال تعالى: {**أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ**}[2].

ففي رفع اليدين إلى الله إقرار بقيوميّته الله جلَّ وعلا، وأنَّه قائم على كلِّ شيء، وقائم على كلِّ نفس، وأنَّه المدبِّر للأمور كلِّها، والمتصرِّف في الخلائق جميعهم، ومَن كان كذلك فهو المستحقُّ أن يُؤْلَه ويُعبد ويُصلّى له ويُسجد، وهو المستحقُّ نهاية الحبِّ مع نهاية الذُّلِّ لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله، وهو المُطاع المعبود وحده على الحقيقة {**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ البَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ**}[3]، فكلُّ عبودية لغيره

---

(١) سورة فاطر، الآية: (١٥).
(٢) سورة الرعد، الآية: (٣٣).
(٣) سورة الحج، الآية: (٦٢).

باطلة وعَناء وضلال، وكلُّ محبَّة لغيره عذاب لصاحبها، وكلُّ غِنًى لغيره فقرٌ وضلالٌ، وكل عِزٍّ بغيره ذُلٌّ وصَغار، وكلُّ تكثُّر بغيره قلَّة وفاقة، فهو الذي انتهت إليه الرغبات، وتوجَّهت نحوه الطلبات، وأنزلت ببابه الحاجات **{يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ}**[(١)].

وفي مدِّ اليدين إلى الله إقرارٌ بأنَّ الله كريمٌ جوادٌ محسنٌ، يجيب الداعين ويُغيث الملهوفين ويُعطي السائلين، لا يتعاظمه ذنبٌ أن يغفره، ولا حاجةٌ يُسألها أن يُعطيها، لو أنَّ أهلَ سمواته وأهل أرضه إنسهم وجِنَّهم حيَّهم وميِّتَهم رطبهم ويابسهم قاموا في صعيد واحد فسألوه فأعطى كلَّ واحد منهم ما سألَه ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة، وَسِعت رحمتُه كلَّ شيء، يمينه ملأى لا تُغيضُها نفقة، سحَّاء الليل والنهار، وفي الحديث: « إنَّ ربَّكم حيِّيٌ كريم، يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً »[(٢)].

وفي مدِّ اليدين إلى الله إقرارٌ بعلم الله، وإحاطته بخلقه، واطِّلاعه عليهم، وأنَّه لا تخفى عليه منهم خافية، لا يشغله سبحانه سمعٌ عن سمع، ولا تغلطه الأصوات على كثرتها واختلافها واجتماعها، بل هي عنده كصوتٍ واحد، كما أنَّ خلْقَ الخَلقِ جَميعِهم وبعثَهم عنده بمنزلة نفسٍ واحدة، يرى دبيبَ النملة السوداء على الصخرة الصَمَّاء في ظلمة الليل، ويرى تفاصيل خلق الذرَّة الصغيرة، ومُخَّها وعروقَها ولحمَها وحركتها، ويرى مدَّ البعوضة جناحَها في الليل المظلم.

---

(١) سورة الرحمن، الآية: (٢٩).

(٢) سنن أبي داود (رقم:١٤٨٨)، وسنن الترمذي (رقم:٣٥٥٦)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (رقم:١٧٥٣).

وفي مدِّ اليدين إلى الله إقرارٌ بعلوِّه على خلقِه؛ ذلك أنَّ الذين يرفعون أيديهم إلى السماء وقتَ الدعاء تقصد قلوبهم الربَّ الذي هو فوق عباده، وتكون حركةُ جوارحهم بالإشارة إلى فوق تبَعاً لحركة قلوبهم إلى فوق، وهذا أمرٌ يجده كلُّ داعٍ وَجْداً ضروريًّا، إلاَّ مَن تغيَّرت فطرتُهم وانحرفت عقيدتُهم، وعلوُّ الله على خلقه قامت عليه الأدلة الكثيرة والبراهين العديدة، فدلَّ عليه الكتاب الكريم والسنة الثابتة وإجماع الأمة والعقل السليم والفِطر المستقيمة، حُكي عن أبي جعفر الهمداني: أنَّه حضر مجلسَ أبي المعالي الجويني ـ أحدِ علماء الكلام ـ فذكر العرشَ وقال: كان الله ولا عرش، ونحو ذلك، يريد بذلك أن يتوصَّل إلى إنكار علوِّ الله، فقال له الهمداني: يا شيخ، دَعْنا من ذلك، وأخبِرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، فإنَّه ما قال عارفٌ قطُّ يا الله إلاَّ وَجدَ في قلبه ضرورة لطلب العلوِّ، لا يلتفتُ يمنة ولا يسرة، فضرب أبو المعالي على رأسه، وقال: حيَّرني الهمداني.

والهمداني رحمه الله إنَّما بيَّن ما يقوم في قلب كلِّ داعٍ عندما يقول: يا الله، مِن حركة في قلبه ضروريةٍ إلى العلوِّ، وهذا يقتضي أنَّه مركوزٌ في الفِطر أنَّ اللهَ فوق عباده عليٌّ على خلقه.

وإذا أقرَّ العبدُ بذلك يصير لقلبه صَمَدٌ يتجه إليه مناجياً له، مُطرقاً واقفاً بين يديه وقوف العبد الذليل بين يدي الملك العزيز، فيشعرُ بأنَّ كلامَه وعملَه صاعدٌ إليه معروضٌ عليه، فيستحيي أن يصعد إليه من كلامه ما يُخزيه ويفضحه هناك، ويجتهد في قول الخير وفعل الخير لعلمِه بأنَّه سبحانه {**إِلَيْهِ**

يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}[١].

ولهذا فإنَّه لا يُنكر علوَّ الله على خلقه إلاَّ ضُلال الناس وجهالهم مِمَّن تحوَّلت فطرُهم وانحرفت عقائدُهم وصدَّهم الشيطانُ عن سواء السبيل، وإلاَّ فكيف يصح من عاقل إنكارُ علوِّ الله مع كثرة الشواهد على ذلك وتنوُّعِ البراهين، مِن ذلك كما تقدَّم أنَّ المؤمنين جميعَهم عندما يدعون الله يرفعون أيديهم إلى الله ويمدُّونها نحوَه، وهذا إجماع منهم على علوِّ الله على خلقه.

قال أبو الحسن الأشعري: « ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم إذا دعوا نحوَ العرش كما لا يحطُّونها إذا دعوا نحو الأرض ».

وهذا الاحتجاجُ منه رحمه الله احتجاجٌ بإجماع المسلمين على رفع أيديهم في الدعاء على أنَّ الله فوق سمواته عالٍ على خلقه؛ لأنَّهم إنَّما يرفعون إليه نفسه لا إلى غيره.

ولهذا فإنَّ غالبَ النفاة لأَن يكون الله فوق العرش فيهم من الانحلال عن دعاء الله ومسألته وعبادته بقدر ما قام في قلوبهم من إنكارٍ لعلوِّ الله على خلقه، إلاَّ مَن يكون منهم جاهلاً بحقيقة مذهبهم فيوافقهم بلسانه على قول لا يفهم حقيقته، وفطرتُه على الصحة والسلامة، فإذا استحوذ قولُهم على قلبه انحرفت فطرتُه وتغيَّرت[٢]، فنحمد الله تعالى على السلامة من هذه الأهواء ونسأل الله رافعين أيدينا إليه الثباتَ على الحقِّ والعزيمة على الرشد،

(١) سورة: فاطر، الآية: (١٠).
(٢) انظر: نقض تأسيس الجهمية (٢/ ٤٤٥ ـ ٤٥١).

فإنَّه تبارك وتعالى نعم المجيب.

❊ ❊ ❊

٩٢ ـ رفع الأيدي إلى الله من دلائل عُلُوِّه

لقد كان الحديثُ فيما مضى عن دلالات رفع الأيدي في الدعاء إلى الله وما يتضمَّنه ذلك من الإقرار بتوحيد الله وتعظيمه، والإيمان بعلوِّه على خلقه، وغِناه الكامل عنهم، وافتقارهم إليه من جميع الوجوه، وقد مضى الإشارةُ إلى أنَّ هذا أمرٌ ـ أعني الإيمان بعُلُوِّه ـ يجده الناسُ في فطرهم صغيرُهم وكبيرُهم، عالِمهم وجاهلُهم.

يقول الإمام أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة في كتاب التوحيد: « وكما هو مفهوم في فطَر المسلمين علماؤهم وجهالهم، وأحرارهم ومماليكهم، وذكرانهم وإناثهم، بالِغيهم وأطفالهم، كلُّ من دعا الله ـ جلَّ وعلاَ ـ فإنَّما يرفع رأسه إلى السماء ويمدُّ يديه إلى الله تعالى إلى أعلاه لا إلى الأسفل »[١].

ويقول الإمام أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة رحمه الله: « ولو أنَّ هؤلاء ـ أي من ينكرون علوَّ الله ـ رجعوا إلى فطرهم وما ركبت عليه خلقتهم من معرفة الخالق سبحانه، لَعلموا أنَّ الله تعالى هو العلي وهو الأعلى، والأيدي ترفع بالدعاء إليه، والأممُ كلّها عربُها وعجمُها تقول إنَّ الله في السماء ما تركت على فطرها »[٢]. اهـ.

فالإيمان بعلوّ الله على خلقه مستقرٌّ في الفطر السليمة، ثابتٌ في نصوص

---

(١) التوحيد لابن خزيمة (١/ ٢٥٤).

(٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة (ص:١٨٣) باختصار.

الكتاب والسنّة، متقرّرٌ في العقول القويمة، مجمعٌ عليه بين علماء الأمّة، ولذا كان توجّهُ الناس عند الدعاء بقلوبهم وإشارتهم ورفع أيديهم إنَّما يكون إلى العلوّ لا إلى جهة أخرى، وهذا أمرٌ فطريٌّ ضروريٌّ عقلي، يجده كلُّ داع في قلبه، فالقلب عند التوجه والسؤال والدعاء والابتهال والمناجاة له وِجهة واحدة يقصدها ويتَّجِه إليها هي إلى الله عزَّ وجلَّ في علوِّه، لا يتّجه إلى يمين أو شمال أو أسفل أو نحو ذلك، وإنَّما يتجه إلى العلوّ، وهذا أمرٌ ضروري لا ينفك منه القلب إلاَّ إذا فسد وانتكس وأظلم وتحول عن الفطرة.

ولهذا ترى في أحوال الداعين والذاكرين أنَّه يحصل من بعضهم حركة في جوارحهم اضطراراً إلى فوق إلى جهة العلو، وذلك تبعاً لحركة قلوبهم بالإشارة أو الإصبع أو العين أو الرأس أو غير ذلك من الإشارات الحسية، وهذا أمرٌ قد تواترت به السنن عن النبي ﷺ واتفق عليه المسلمون، ولذا تراهم يقولون بألسنتهم ارفعوا أيديكم إلى الله ونحو ذلك من العبارات، وهذا إخبار منهم عن أنفسهم أنَّهم يقصدون الإشارة إلى الله ورفع الأيدي إليه سبحانه وتعالى.

وقد تواتر من هديِ النَّبِيِّ ﷺ رفعُ الأيدي إلى الله في الدعاء، والإشارةُ بالسبابة من اليد اليمنى يدعو بها في خطبة الجمعة وفي التشهد في الصلاة، ورفعُ البصر إلى السماء، والإشارةُ بالإصبع إلى السماء ونحوُ ذلك.

أما رفعه يديه في الدعاء فهو ثابتٌ في أحاديث كثيرة جداً، وقد مضى معنا ذكرُ جملةٍ منها.

وأمّا إشارتُه بالسبابة من اليد اليمنى يدعو بها في خطبة الجمعة فهو ثابتٌ

فيما رواه حصين بن عبد الرحمن قال: « رأى عمارة بن رؤيبة بشرَ بن مروان وهو يدعو في يوم الجمعة فقال عمارة: قبّح الله هاتين اليدين، لقد رأيتُ رسول الله ﷺ وهو على المنبر ما يزيد على هذه
ـ يعني السبابة ـ »، وفي رواية « رأيتُ رسول الله ﷺ وهو على المنبر يخطب إذا دعا يقول هكذا فرفع السبابة وحدها »(١).

وأمَّا إشارتُه بالسبابة من اليد اليمنى يدعو بها في التشهد فثابتٌ فيما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: « كان رسول الله ﷺ إذا جلس في الصلاة وضع يديه على ركبتيه، ورفع إصبعه اليمنى التي تلي الإبهام فدعا بها، ويده اليسرى على ركبته باسطها عليها »، وفي رواية « كان إذا جلس في الصلاة وضع كفَّه اليمنى على فخذه اليمنى، وقبض أصابعه كلَّها، وأشار بإصبعه التي تلي الإبهام، ووضع كفَّه اليسرى على فخذه اليسرى »، رواهما مسلم، وأحمد، وغيرُهما(٢). وفي الباب أحاديث عديدة.

وأمَّا رفعُه بصرَه إلى السماء فيقول الله تعالى: {**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا**}(٣)، قال ابن عباس رضي الله عنهما: « كان أوّل ما نُسخ من القرآن القبلة، وذلك أنَّ رسول الله ﷺ لَمَّا هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود، فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان يحب قبلة إبراهيم، فكان

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٨٧٤)، والمسند (٤/ ١٣٦)، وسنن أبي داود (رقم:١١٠٥).
(٢) صحيح مسلم (رقم:٥٨٠)، والمسند (٢/ ٦٥)، وسنن النسائي (٣/ ٣٦).
(٣) سورة البقرة، الآية: (١٤٤).

يدعو إلى الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله: {**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ**} إلى آخر الآية.

وفي صحيح البخاري عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: « أنَّ رسول الله ﷺ خطب الناسَ يوم النحر، وقال: « يا أيها الناس أيُّ يوم هذا؟ قالوا: هذا يوم حرام، قال: فأيُّ بلدٍ هذا؟ قالوا: بلدٌ حرام، قال: فأيُّ شهرٍ هذا؟ قالوا: شهرٌ حرام، قال: فإنَّ دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكم حرامٌ كحُرمَةِ يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا ـ فأعادها مراراً ثمَّ رفع رأسه ـ فقال: اللَّهمَّ هل بلَّغت، اللَّهمَّ هل بلّغت »[1].

وأمَّا إشارتُه بإصبعه إلى السماء فقد ثبت في حديث جابر بن عبد الله في ذكر حجة الوداع، وفيه أنَّ رسول الله ﷺ قال في خطبته يوم عرفة: ألا هل بلّغت؟ فقالوا: نعم، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكتها إليهم ويقول: اللَّهمَّ اشهد ـ ثلاث مرّات ـ »، أخرجه مسلم في صحيحه[2].

والنصوص في هذا المعنى العظيمِ كثيرةٌ، وهي دالَّةٌ دلالةً ظاهرةً على علوِّ الله جلَّ وعلا وفوقيته، وأنَّه تبارك وتعالى الكبيرُ المتعال، ولهذا تقصده القلوبُ، وتصمدُ إليه الخلائق، ويرفعون أكفّهم إليه عند دعائهم وسؤالهم، ويشيرون إليه في علوِّه بأصابعهم موحِّدين له مقرِّين بعظمته، خلافاً للمنكرين لعلوِّ الله من أهل الضلال والباطل، فإنَّ هؤلاء في الحقيقة ينكرون حقيقة كونه أحداً صمداً، ويجحدون حقيقةَ دعائِه وصدق التوجه إليه،

---

(١) صحيح البخاري (رقم:١٧٣٩).
(٢) صحيح مسلم (رقم:١٢١٨).

ويسوغون الإشراك به، ويعطِّلون صفاتِ كماله، والله المستعان، وهو الهادي وحده إلى سواء السبيل.

* * *

٩٣ ـ الأخطاء المتعلّقة برفع اليدين

لا يزال حديثُنا عن رفع الأيدي في الدعاء، وقد سبق الكلامُ على فائدة ذلك وأهميته في الدعاء، وأنَّه سببٌ من أسباب قبوله؛ لِمَا في ذلك من إظهار الافتقار والاستكانة والحاجة إلى الربِّ الكريم، حيث يمدُّ العبدُ يديه إليه مستطعماً، سائلاً، متذلِّلاً، والله جلَّ وعلا لا يردُّ يدين مُدَّت إليه صفراً خائبتين.

وإنَّ مِمَّا يجب على المسلم أن يعتني به في هذا الباب الحرصَ على معرفة هدي النبي ﷺ في ذلك، وترسُّمَ خطاه، ولزومَ منهجه، والبعدَ عما أحدثه الناس من صفاتٍ في الرفع وهيئات، وحركات لَم تثبت عن خير الأمة وأكملهم دعاءً وطاعةً لله رسول الله ﷺ، وقد ثبت في الحديث عن النبي ﷺ أنَّه قال: « إذا سألتم اللهَ فاسألوه ببطون أكفِّكم، ولا تسألوه بظهورها »[1]، وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً ومرفوعاً « المسألةُ أن ترفع يديك حذوَ منكبيك، أو نحوهما، والاستغفارُ أن تشير بأصبع واحدة، والابتهال أن تمدَّ يديك جميعاً »[2]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في التعليق على هذا الحديث:

« فجعل المراتبَ ثلاثة: الإشارة بأصبع واحدة كما كان يفعل يوم الجمعة على المنبر، والثانية: المسألة، وهو أن يجعل يديه حذو منكبيه كما في أكثر

---

(١) سنن أبي داود (رقم:١٤٨٦)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (رقم:٥٩٥).

(٢) سنن أبي داود (رقم:١٤٨٩)، (١٤٩٠)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (رقم:٦٦٩٤).

الأحاديث، والثالثة: الابتهال »[١]. اهـ. فعلى المسلم أن ينظر إلى الثابت عن النبي ﷺ في ذلك فيلتزمُه ويتقيّدُ به، فهديُه ﷺ خير الهدي، وليحذر المسلم من تكلّفات الناس وتجاوزاتهم في هذا الباب، فقد كان السلف رحمهم الله يحذرون من جعلِ صفة من الصفات المأثورة في غير موضعها المشروع، كمن يرفع يديه في الدعاء وهو على المنبر يوم الجمعة في غير الاستسقاء، مع أنَّ رفع اليدين في الدعاء مشروعٌ في غير هذا الموطن.

روى مسلم في صحيحه عن عمارة بن رؤيبة أنَّه رأى بشرَ بن مروان على المنبر رافعاً يديه، فقال: « قبّح الله هاتين اليدين، لقد رأيتُ رسول الله ﷺ ما يزيد على أن يقول بيده هكذا، وأشار بإصبعه المسبِّحة »[٢]، فكيف بمن يخترع في الرفع صفات لا أساس لها أو حركات لا أصل لها، ومن يتأمّل أحوالَ الداعين يرى منهم عجباً في هذا الباب[٣].

ومن ذلك أنَّ بعض الداعين ينزل في رفعه يديه مفرّقتين أو مجموعتين إلى ما تحت السرّة أو إلى السرَّة، ولا يخفى ما في ذلك من عدم المبالاة، وقلّة الاهتمام بهذا الأمر العظيم.

ومنهم من يجعل يديه عندما يرفعهما مفرّقتين، رؤوسُ الأصابع إلى القبلة والإبهامان إلى السماء، ولا يخفى ما في ذلك من المخالفة لقول النبي ﷺ في الحديث المتقدم « إذا سألتم اللهَ فاسألوه ببطون أكفّكم ».

---

(١) انظر: ثلاثيات المسند للسفاريني (١/ ٦٥٣).

(٢) صحيح مسلم (رقم:٨٧٤).

(٣) انظر: تصحيح الدعاء للشيخ بكر أبو زيد (ص:١٢٦ ـ ١٢٩).

ومنهم من يقلّب يديه إذا رفعهما في الدعاء إلى جهات عديدة أو يقوم بهزّهما أو يحركهما حركات متنوّعة.

ومنهم من إذا دعا أو قبل أن يدعو يمسح إحدى اليدين بالأخرى أو ينفض يديه ونحو ذلك، ومنهم من يُقبِّلُ يديه بعد رفعهما للدعاء، وهذا لا أصل له.

ومنهم من إذا دعا مسح وجهه بيديه بعد الدعاء، وهذا ورد فيه بعض الأحاديث إلاَّ أنَّها لا تثبت عن النبي ﷺ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « وأمّا رفع النبي ﷺ يديه في الدعاء فقد جاء فيه أحاديث كثيرةٌ صحيحةٌ، وأمّا مسحه وجهه بيديه فليس عنه فيه إلاَّ حديثٌ أو حديثان لا يقوم بهما حجة »[1].

ومن الهيئات المحدَثة في رفع اليدين تقبيل الإبهامين ووضعُهما على العينين عند ذكر اسم النبي ﷺ في الأذان أو غيره، وقد روي في ذلك حديثٌ باطلٌ لا يصح عن النبي ﷺ، ولفظه: « من قال حين يسمع أشهد أنَّ محمداً رسول الله: مرحباً بحبيبي وقرة عيني محمد بن عبد الله
ثمَّ يُقبِّل إبهامَه ويجعلهما على عينيه لَم يعمَ ولم يرمد أبداً »، وقد
نصَّ غيرُ واحدٍ من أهل العلم على أنَّ هذا الحديث باطلٌ لا يصح عن النبي ﷺ[2]، ومن خزعبلات المتصوِّفة أنَّ بعضهم ينسب ذلك لقول الخضر عليه

(١) الفتاوى (٢٢/٥١٩)، وانظر: جزء في مسح الوجه باليدين بعد رفعهما للدعاء للشيخ بكر أبو زيد.
(٢) انظر: الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة (ص:٢٠).

السلام[١].

ومن الأمور المحدثة في ذلك ما يفعله بعضهم حيث يجمع أصابع يده اليمنى ويجعلها على عينه اليمنى وأصابع يديه اليسرى على عينه اليسرى ثمَّ يُهَمْهِم بالقراءة أو الدعاء.

ومن الأمور التي تُفعل ولم تثبت أنَّ بعضَهم يجعلُ يدَه اليمنى على رأسه عقب السلام من الصلاة يدعو، ويستنِدون في ذلك إلى ما يُروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّه قال: « كان رسول الله ﷺ إذا قضى صلاته مسح جبهته بيده اليُمنى ويقول: بسم الله الذي لا إله إلاَّ هو الرحمن الرحيم، اللَّهمَّ أذهب عنّي الغمَّ والحزن »، رواه الطبراني في الأوسط والبزار، وهو حديث لَم يثبت عن النبي ﷺ[٢]، ومِن الأخطاء في هذا الباب أنَّ بعضَ المصلِّين قد يشير بالسَّبَّابتين في التشهد، وقد ثبت في الحديث: « أنَّ النبيَّ ﷺ مرَّ على إنسان يدعو وهو يشير بأصبعيه السبابتين فقال رسول الله ﷺ: أَحِّد أحِّد »، رواه الترمذي[٣].

ومن المخالفات في هذا الباب أنَّ بعضَ الدَّاعين قد يُخصِّص أوقاتاً يرفع فيها يديه بالدعاء دون مستند شرعي لذلك التخصيص كمن يرفع يديه بعد إقامة الصلاة وقبل تكبيرة الإحرام، وكرفع اليدين عقب السلام من الصلاة المفروضة جماعياً أو كلٌّ بمفرده، قال سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن

---

(١) انظر: كشف الخفاء للعجلوني (٢/ ٢٧٠).

(٢) المعجم الأوسط (رقم:٢٤٩٩).

(٣) سنن الترمذي (رقم:٣٥٥٧)، وصححه العلاَّمة الألباني رحمه الله في صحيح سنن اللترمذي (رقم:٢٨٢٠).

باز رحمه الله: « لَم يصح عن النبي ﷺ أنَّه كان يرفع يديه بعد صلاة الفريضة، ولم يصح ذلك أيضاً عن أصحابه رضي الله عنهم فيما نعلم، وما يفعله بعضُ الناس من رفع أيديهم بعد صلاة الفريضة بدعةٌ لا أصل لها »[(١)].

ومِن ذلك أيضاً رفع الأيدي بالدعاء بعد سجود التلاوة، وكذلك رفعهما عند رؤية الهلال ونحو ذلك.

والحاصل أنَّ المواضعَ التي وُجدت في عهد النبي ﷺ ولم يثبت أنَّ النبي ﷺ رفع فيها يديه لا يجوز الرفع فيها؛ لأنَّ فعلَه سنةٌ، وتركَه سنةٌ، وهو ﷺ الأسوةُ الحسنة فيما يأتي ويذر[(٢)]، والواجب التقيُّد بما جاء عنه ﷺ وترك ما سوى ذلك.

* * *

(١) مجموع فتاواه (١١/ ١٨٤).

(٢) انظر: مجموع فتاوى الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله (١١/ ١٧٨ ـ ١٨٣).

٩٤ ـ استقبال الداعي القبلة

إنَّ من آداب الدعاء أن يستقبلَ الداعي القبلةَ وقت دعائه، ذلك أنَّ القبلةَ هي الجهة الفاضلة التي أُمر المسلمون بالاتّجاه إليها في عبادتهم، فكما أنَّها قبلةٌ للمسلمين في الصلاة فهي قبلةٌ لهم في الدعاء، وقد ثبت استقبالُ النبي ﷺ للقبلة عند دعائه في أحاديث عديدة.

من ذلك ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: « استقبل النبي ﷺ الكعبةَ فدعا على نفر من قريش، على شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عقبة، وأبي جهل بن هشام، فأشهد بالله لقد رأيتهم صرعى قد غيّرتهم الشمس وكان يوماً حاراً »[1].

وخرّج مسلم في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: « لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألفٌ، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً فاستقبل نبيُّ الله ﷺ القبلةَ ثمَّ مدَّ يديه، فجعل يهتف بربِّه: اللَّهمَّ أنجز لي ما وعدتني، اللَّهمَّ آتِ ما وعدتني، اللَّهمَّ إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض، فما زال يهتف بربِّه ماداً يديه مستقبلَ القبلة حتى سقط رداؤُه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءَه فألقاه على منكبيه ثمَّ التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتُك ربَّك، فإنَّه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: {**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**}[2] فأمدَّه الله بالملائكة

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٣٩٦٠)، وصحيح مسلم (٣/ ١٤٢٠).
(٢) سورة الأنفال، الآية: (٩).

».[1]

وخرّج البخاري ومسلم عن عبد الله بن زيد قال: « خرج النبيُّ ﷺ إلى هذا المصلَّى يستسقي فدعا واستسقى ثمَّ استقبل القبلة وقلب رداءَه »[2].

وثبت كذلك استقبالُ القبلة في الدعاء في الحج على الصفا والمروة وفي عرفة وعند المشعر الحرام وعند الجمرة الأولى والثانية، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، وهي تدلُّ على مشروعية استقبال القبلة وقت الدعاء، وأنَّ ذلك أفضلُ وأكملُ للداعي، على أنَّ ذلك ليس لازماً ولا واجباً في الدعاءِ؛ لأنَّ النبي ﷺ ثبت عنه أنَّه دعا وهو غير مستقبل القبلة، وقد عقد الإمام البخاري في كتاب الدعوات من صحيحه باباً بعنوان « الدعاء غير مستقبل القبلة »، وخرّج فيه حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: « بينا النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة فقام رجلٌ فقال: يا رسول الله ادع اللهَ أن يسقينا، فتغيّمت السماء ومطرنا حتى ما كاد الرجلُ يَصِل إلى منزله، فلم تزل تمطر إلى الجمعة المقبلة، فقام ذلك الرجل أو غيرُه فقال: ادع اللهَ أن يصرفه عنّا، فقد غرقنا، فقال: اللَّهمَّ حوالَينا ولا علَينا، فجعل السّحابُ يتقطّع حول المدينة ولا يمطرُ أهلَ المدينة »[3]، ومعلومٌ أنَّ الخطيب وقت الخطبة يكون معطياً القبلة ظهره، فهذا فيه دلالة على أنَّ استقبال القبلة ليس شرطاً في الدعاء، لكنَّه هو الأولى والأكمل، قال شيخ الإسلام: « ولهذا كان النبي ﷺ إذا اجتهد في الدعاء يستقبلها كما فعله في أثناء الاستسقاء الذي رفع فيه يديه رفعاً تامًّا، فعن عباد

(١) صحيح مسلم (رقم:١٧٦٣).
(٢) صحيح البخاري (رقم:١٠٢٣، ٦٣٤٣)، وصحيح مسلم (رقم:٨٩٤).
(٣) صحيح البخاري (رقم:٦٣٤٢).

بن تميم عن عمّه: « أنَّ رسول الله ﷺ خرج بالناس يستسقي، فصلّى بهم ركعتين جهر بالقراءة فيهما وحوّل رداءه، ورفع يديه فدعى واستسقى واستقبل القبلة »[(١)]، رواه الجماعة أهل الصحاح والسنن والمسانيد، كالبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم، فأخبر أنَّه استقبل القبلةَ التي هي قبلة الصلاة في أثناء دعاء الاستسقاء »[(٢)].

وقال رحمه الله: « إنَّ المسلمين مجمعون على أنَّ القبلة التي يُشرع للداعي استقبالها حين الدعاء هي القبلة التي شرع استقبالها حين الصلاة، فكذلك هي التي شرع استقبالها حين ذكر الله كما تستقبل بعرفة والمزدلفة وعلى الصفا والمروة، وكما يستحب لكلِّ ذاكرٍ لله وداعٍ أن يستقبل القبلةَ كما ثبت عن النبي ﷺ أنَّه كان قد يقصد أن يستقبل القبلة حين الدعاء، كذلك هي التي يشرع استقبالها بتوجه الميِّت إليها، وتوجيه النسائك والذبائح إليها، وهي التي يُنهى عن استقبالها بالبول والغائط، فليس للمسلمين بل ولا لغيرهم قبلتان أصلاً في العبادات التي هي من جنسين كالصلاة والنسك فضلاً عن العبادات التي هي من جنس واحد وبعضها متصلٌ ببعض، فإنَّ الصلاةَ فيها الدعاء في الفاتحة وغيرها، والدعاء نفسه هو الصلاة، قد سمّاه الله في كتابه صلاةً حيث قال: ﴿**وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ**﴾[(٣)]، وفي الصحيح عن عبد الله بن أبي أوفى « أنَّ النبي ﷺ كان إذا أتاه قومٌ بصدقتهم صلّى عليهم، وإنَّ أبي أتاه بصدقةٍ فقال: اللَّهمَّ صلِّ على آل أبي

(١) انظر: صحيح البخاري (رقم:١٠٢٤).
(٢) انظر: نقض التأسيس لابن تيمية (٢/ ٤٥٩).
(٣) سورة التوبة، الآية: (١٠٣).

أوفى »[١]، وقد قال تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**}[٢]، وقد علّم النبي ﷺ أمّته الصلاةَ عليه في غير حديث
في الصحاح وغيرها، وفي جميعها إنّما يعلّمها الدعاء له بصلاة الله وبركاته ...
» إلى آخر كلامه رحمه الله[٣].

وقد ذكر ذلك في سياق ردِّه على مَن ينكر علوَّ الله كالجهمية ومَن تأثّر بهم مِن أهل الأهواء حيث يزعمون أنَّ رفعَ الأيدي في الدعاء إلى العلوِّ إنَّما يُشرع لأنَّ السماءَ قبلةُ الدعاء كما أنَّ الكعبة قبلةُ الصلاة، فجعلوا بذلك قبلتين للمسلمين قبلةً للدعاء وهي السماء، وقبلةً للصلاة وهي الكعبة، وقد ألجأهم إلى هذا التقرير الفاسد إنكارُهم لعلوِّ الربِّ تبارك وتعالى على خلقه، وتعسُّفُهم في حمل النصوص الكثيرة الدالّة على علوِّ الله على غير وجهها ومرادها بأنواعٍ من التأويلات، وصنوفٍ من التحريفات التي هي في الحقيقة نوعٌ من الإلحاد في آيات الله وأسمائه وصفاته، والله يقول: {**وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**}[٤]، ويقول: {**إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا**}[٥]، وقد بيّن رحمه الله في سياق رده عليهم: أنَّ القبلةَ هي ما يستقبله الإنسان بوجهه، والاستقبال ضد الاستدبار، فالقبلةُ ما يستقبله الإنسان ولا يستدبره، فأما ما يرفع الإنسان إليه يده أو رأسه أو بصره فهذا باتّفاق الناس لا يسمّى قبلةً؛ لأنَّ الإنسان لَم يستقبله

---

(١) صحيح البخاري (رقم:١٤٩٧)، وصحيح مسلم (رقم:١٠٧٨).
(٢) سورة الأحزاب، الآية: (٥٦).
(٣) نقض التأسيس (٢/ ٤٥٢ ـ ٤٥٣).
(٤) سورة الأعراف، الآية: (١٨٠).
(٥) سورة فصلت، الآية: (٤٠).

كما

لا يستدبر الجهةَ التي تقابلُه، ومن استقبل شيئاً فقد استدبر ما
يقابله كما أنَّ من استقبل الكعبة فقد استدبر ما يقابلها، ومعلومٌ
أنَّ الداعي لا يكون مستقبلاً للسماء ومستدبراً للأرض، بل يكون مستقبلاً لبعض الجهات إمّا القبلة أو غيرها، مستدبراً لما يقابلُها كالمصلي، فظهر أنَّ جعل ذلك قبلةً باطلٌ في العقل واللغة والشرع بطلاناً ظاهراً لكلِّ أحد[1].

والمقصود أنَّ قبلةَ المسلمين في الدعاء هي قبلتهم في الصلاة، أمّا رفعهم لأيديهم عند الدعاء إلى السماء فلأنَّ ربَّهم الذي يدعونه ويسألونه ويرجونه ويطمعون في نيل ثوابه ورحمته ويخافونه في سمائه مستوٍ على عرشه، بائنٌ من خلقه، يسمع دعاءَهم ويُجيب نداءَهم، كما قال سبحانه: {**الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى وَإِن تَجْهَرْ بِالقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى**}[2].

---

(١) انظر: نقض التأسيس (٢/ ٤٦٢).

(٢) سورة طه، الآيات: (٥ ـ ٨).

٩٥ ـ من آداب الدعاء

إنَّ من ضوابط الدعاء المهمة وآدابه العظيمة أن يقدِّم المسلم بين يدي دعائه الثناءَ على ربِّه بما هو أهلُه من نعوت الجلال، وصفات العظمة والكمال، وذكر جوده وفضله وكرَمه وعظيم إنعامه، وذلك أنَّه أبلغُ ما يكون في حال السائل والطالب ثناؤُه على ربِّه، وحمدُه له، وتمجيدُه، وذكرُ نعمه وآلائه، وجعل ذلك كلِّه بين يدي مسألته وسيلةً للقبول ومفتاحاً للإجابة.

ومَن يتأمّل الأدعيةَ الواردة في الكتاب والسنة يجد كثيراً منها مبدوءاً بالثناء على الله وعدِّ نِعمه وآلائه، والاعتراف بفضله وجوده وعطائه، ومن الأمثلة على ذلك الدعاءُ العظيم الذي اشتملت عليه سورة الفاتحة التي هي أعظم سور القرآن الكريم وأجلُّها لاشتمالها على أجلِّ المطالب العالية، وأعلى المقاصد الجليلة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

« ولهذا كان أنفعُ الدعاء وأعظمُه وأحكمُه دعاءَ الفاتحة {**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ**}، فإنَّه إذا هداه هذا الصراط أعانه على طاعته وترك معصيته فلم يصبه شرٌّ لا في الدنيا ولا في الآخرة »[١].اهـ

فهذا الدعاءُ العظيم مبدوءٌ بالثناء على الله وحمده وتمجيده، مما هو سببٌ لقبوله، ومفتاحٌ لإجابته، يوضِّح ذلك ويبيِّنه ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « قال

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٢١٥ ـ ٢١٦).

الله تعالى: قَسَمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبدُ {**الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ**} قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال {**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**} قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال {**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**} قال الله تعالى: مجّدني عبدي، وقال مرّة: فوّض إليّ عبدي، فإذا قال {**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**} قال: هذه بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال {**اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ**} قال هذا لعبدي ولعبدي ما سأل »[١]. فعلّم سبحانه عباده في هذه السورةِ العظيمةِ كيف يدعونه ويسألونه ويتوسّلون إليه، قال ابن القيم رحمه الله: « ولما كان سؤال الله الهدايةَ إلى الصراط المستقيم أجلَّ المطالب ونيلُه أشرفَ المواهب، علّم الله عبادَه كيفيةَ سؤاله، وأمرهم أن يقدِّموا بين يديه حمدَه والثناء عليه وتمجيدَه، ثمَّ ذكر عبوديتهم وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم، توسلٌ إليه بأسمائه وصفاته وتوسلٌ إليه بعبوديته، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يُردُّ معهما الدعاء ... إلى أن قال رحمه الله: وقد جَمعت الفاتحة الوسيلتين، وهما التوسلُ بالحمد والثناء عليه وتمجيده، والتوسلُ إليه بعبوديته وتوحيده، ثمَّ جاء سؤال أهم المطالب وأنجح الرغائب وهو الهداية بعد الوسيلتين، فالداعي به حقيقٌ بالإجابة.

ونظير هذا دعاء النبي ﷺ الذي كان يدعو به إذا قام يصلي من الليل، رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما « اللَّهمَّ لك الحمد أنت نورُ السموات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمدُ أنت قيُّوم

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٣٩٥).

السموات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمد أنت الحقُّ، ووعدُك حقٌّ، ولقاؤُك حقٌّ، والجنّةُ حقٌّ، والنار حقٌّ، والنبيّون حق، والساعةُ حق، ومحمد ﷺ حق، اللَّهمَّ لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، أنت إلَهي لا إله إلاَّ أنت »[1]، فذكر التوسل إليه بحمده والثناء عليه وبعبوديته له ثمَّ سأله المغفرة »[2].اهـ.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في شرحه لهذا الحديث: « وفيه استحبابُ تقديم الثناء على المسألة عند كلِّ مطلوب اقتداءً به ﷺ »[3].

ومن الأمثلة على ذلك دعاء يوسف عليه السلام: {**رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيث فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**}[4]، ودعاء أيوب عليه السلام، قال تعالى: {**وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلعَابِدِينَ**}[5]، ودعاءُ أولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض {**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ**

---

(١) صحيح البخاري (رقم:١١٢٠).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٢٣ ـ ٢٤).
(٣) فتح الباري (٣/ ٥).
(٤) سورة يوسف، الآية: (١٠١).
(٥) سورة الأنبياء، الآيات: (٨٣ ، ٨٤).

فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}[١]، ودعاءُ الملائكة {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ}[٢]، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ جداً، يطول عدُّها، فينبغي على المسلم أن يحافظ على هذا الأدب الرفيع عند سؤاله له سبحانه بأن يُثْنِيَ عليه ويَحمده ويمجّده، ويعترف بفضله وإنعامه، ثمَّ يسأله بعد ذلك ما يشاء من خَيْرَي الدنيا والآخرة.

كما ينبغي للمسلم أيضاً بين يدي دعائه أن يصلي على صفيِّ الله وخليله وعبده ورسوله نبيِّنا محمد ﷺ، وقد جاء الحثُّ على ذلك في أحاديث عديدة منها: حديث فَضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: « سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو في صلاته فلم يصلِّ على النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: عجل هذا، ثمَّ دعاه فقال له ولغيره: إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه ثمَّ ليصلِّ على النبي ﷺ ثمَّ ليدع بعد بما شاء »[٣]. ولهذا ثلاث مراتب:

أحدها: أن يصلي على النبي ﷺ قبل الدعاء، وبعد حمد الله تعالى.

والمرتبة الثانية: أن يصلي عليه في أول الدعاء وأوسطه وآخره.

والمرتبة الثالثة: أن يصلي عليه في أوله وآخره ويجعل حاجته متوسطة بينهما. والصلاة على النبي ﷺ للدعاء مثل المفتاح، قال ابن القيم رحمه الله: « فمفتاح الدعاء الصلاة على النبي ﷺ كما أنَّ مفتاح الصلاة الطهور ».

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٩١).

(٢) سورة غافر، الآية: (٧).

(٣) المسند (٦/١٨)، وسنن أبي داود (رقم:١٤٨١)، وسنن الترمذي (رقم:٣٤٧٧)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (رقم:٦٤٨).

ثمَّ نقل عن أحمد بن أبي الحوراء قال: سمعت أبا سليمان الداراني يقول « من أراد أن يسأل الله حاجته فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ وليسأل حاجته، وليختم بالصلاة على النبي ﷺ، فإنَّ الصلاةَ على النبي ﷺ مقبولةٌ، والله أكرمُ أن يردَّ ما بينهما »[1].

* * *

(١) جلاء الأفهام (ص:٢٦٠ ـ ٢٦٢).

٩٦ ـ من آداب الدعاء

مِمَّا ينبغي للمسلم تجنُّبه في دعائه تكلُّفُ السجع في الدعاء، وتكلُّفُ صنعة الكلام له، قال الإمام البخاري رحمه الله في كتاب الدعوات من صحيحه: « بابُ ما يُكره من السجع في الدعاء »، ثمَّ ساق بسنده إلى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « حَدِّث الناس كلَّ جُمُعة مرّة، فإن أبيتَ فمرّتين، فإن أكثرت فثلاث مرّات، ولا تُملَّ الناس هذا القرآن، ولا ألفينَّك تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم فتقصُّ عليهم فتقطع عليهم حديثهم فتملّهم، ولكن أنصت، فإذا أمروك فحدّثهم وهم يشتهونه، فانظر السَّجعَ من الدعاء فاجتنبه، فإنِّي عهدتُ رسولَ الله ﷺ وأصحابَه لا يفعلون إلاَّ ذلك ـ يعني لا يفعلون إلاَّ ذلك الاجتناب ـ »(١).

والسَّجعُ هو الكلام المقفّى من غير مراعاة وزن، وتكلّف ذلك في الدعاء أمرٌ مكروهٌ لَم يكن عليه النبي ﷺ، ولا أحدٌ من أصحابه، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: « فإني عهدتُ رسولَ الله ﷺ وأصحابَه لا يفعلون إلاَّ ذلك الاجتناب »، قال الأزهري رحمه الله: « وإنَّما كرهه ﷺ لمشاكلته كلام الكهنة، كما في قصة المرأة من هُذيل »(٢)، يشير إلى ما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: « اقتتلت امرأتان من هُذيل فرمَتْ إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ، فقضى رسول الله ﷺ أنَّ ديةَ جنينها غرَّةٌ: عبدٌ أو وليدةٌ،

(١) صحيح البخاري (رقم:٦٣٣٧).
(٢) فتح الباري (١١/ ١٣٩).

وقضى بدية المرأة على عاقلتها وورثها وَلَدَها ومَن معهم، فقال حَمَلُ بنُ النابغة الهُذلي: يا رسول الله كيف أغرمُ من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهلّ؟ فمثلُ ذلك يُطلُّ [أي يُهدر]، فقال رسول الله ﷺ: « إنَّما هذا من إخوان الكهان »[١]. من أجل سجعه الذي سجع.

ولذا عدَّ بعضُ أهل العلم تكلُّفَ السجع في الدعاء في جملة موانع الإجابة، قال القرطبي رحمه الله: « ومنها: أن يدعو بما ليس من الكتاب والسنة فيتخيَّر ألفاظاً مفقرة، وكلمات مسجعةً، قد وجدها في كراريس لا أصل لها ولا معوَّل عليها، فيجعلها شعارَه، ويترك ما دعا به رسوله ﷺ، وكلُّ هذا يمنع من استجابة الدعاء »[٢].

والسجعُ المذمومُ هو المتكلَّف الذي يجتهد صاحبُه في تصنعه، فيشغله ذلك عن الإخلاص والخشوع، ويُلهيه عن الضراعة والافتقار، فأمَّا إن وُجد وحصل بلا تصنُّع ولا تكلُّف ومِن غير قصدٍ إليه فلا بأس به.

قال السفاريني رحمه الله: « ولا يتكلَّف السجع في الدعاء، فإنَّه يُشغل القلبَ ويُذهب الخشوعَ، وإن دعا بدعوات محفوظة معه له أو لغيره من غير تكلُّف سجع فليس بممنوع »[٣].

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله في شرحه لحديث ابن عباس المتقدِّم في ذمِّ السجع في الدعاء: « ولا يَرِد على ذلك ما وقع في الأحاديث الصحيحة؛

(١) صحيح مسلم (رقم:١٦٨١).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٦٦).
(٣) غذاء الألباب (١/ ٤٠٩).

لأنَّ ذلك كان يصدر من غير قصدٍ إليه؛ ولأجل هذا
يجيء في غاية الانسجام، كقوله ﷺ في الجهاد: « اللَّهمَّ مُنزلَ الكتاب، سريع الحساب، هازم الأحزاب »[١]، وكقوله ﷺ: « صدق وعده وأعزَّ جندَه ... »، الحديث[٢]، وكقوله: « أعوذ بك من عَين لا تدمع، ونفسٍ لا تشبع، وقلب لا يخشع »[٣]، وكلُّها صحيحة »[٤].

وينبغي للداعي أن يتجنَّب اللَّحنَ في الدعاء، ولا سيما إذا كان اللَّحنُ مُحِيلاً للمعنى، مُخِلاًّ بالمقصود، مفسداً للمراد، فإنَّ الإعرابَ عمادُ الكلام، وبه يستقيم المعنى، وبعدمِه يختلُّ ويفسد، وربَّما انقلب المعنى باللَّحنِ إلى معنى باطل أو دعاء محرَّم أو نحو ذلك.

ولهذا قال أبو عثمان المازني لبعض تلاميذه: « عليك بالنحوِ، فإنَّ بني إسرائيل كفرت بحرف ثقيلٍ خفَّفوه، قال الله عزَّ وجلَّ لعيسى: إنِّي ولَّدتُكَ »، فقالوا: إنِّي وَلَدتُك »، فكفروا ».

ويُذكر عن الأصمعيِّ: أنَّه مرَّ برجل يقول في دعائه: يا ذو الجلال والإكرام، فقال له: ما اسمك؟ قال ليث، فأنشأ يقول:

يُنادي ربَّه باللَّحن ليثُ ... لذاك إذا دعاه لا يُجيبُ[٥].

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٢٩٣٣، ٢٩٦٦)، وصحيح مسلم (رقم:١٧٤٢).
(٢) صحيح البخاري (رقم:٢٩٣٣، ٢٩٦٦)، وصحيح مسلم (رقم:١٧٤٢).
(٣) صحيح مسلم (رقم:٢٧٢٢) بلفظ مقارب.
(٤) فتح الباري (١١/ ١٣٩).
(٥) انظر: شأن الدعاء للخطابي (١٩ ـ ٢٠).

ولهذا ينبغي على الداعي تجنُّبُ اللَّحنِ في الدعاء إن كان مستطيعاً لذلك قادراً عليه، وإلاَّ فإنَّ اللهَ جلَّ وعلاَ لا يُكلِّف نفساً إلاَّ وُسعها.

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن رجل دعا دعاء ملحوناً فقال له رجل: ما يقبل الله دعاءً ملحوناً؟

فأجاب رحمه الله بما نصُّه: « مَن قال هذا القول فهو آثمٌ مخالفٌ للكتاب والسنة، ولما كان عليه السلف، وأمَّا مَن دعا اللهَ مخلصاً له الدين بدعاء جائز سمعه الله وأجاب دعاءَه سواء كان مُعرباً أو ملحوناً، والكلام المذكور لا أصل له، بل ينبغي للداعي إذا لَم تكن عادتُه الإعرابَ أن لا يتكلَّف الإعرابَ، قال بعضُ السلف: إذا جاء الإعرابُ ذهب الخشوعُ، وهذا كما يُكره تكلُّف السجع في الدعاء، فإذا وقع بغير تكلُّف فلا بأس به، فإنَّ أصلَ الدعاء من القلب، واللسان تابعٌ للقلب.

ومَن جعل همَّتَه في الدعاء تقويمَ لسانِه أضعفَ توجه قلبه، ولهذا يدعو المضطرُّ بقلبِه دعاءً يُفتح عليه لا يحضره من قبل ذلك، وهذا أمرٌ يَجده كلُّ مؤمن في قلبه، والدعاءُ يجوز بالعربية، وبغير العربية، والله سبحانه يعلم قصدَ الداعي ومرادَه، وإن لَم يُقوِّم لسانه فإنَّه يعلم ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تنوُّع الحاجات »[1].

ولا يجوز للمسلم أن يتحرَّى في دعائه أنغاماً معيَّنة أو تكلُّفات في الأداء مِن خفض ورفع أو تطريب أو ترجيع أو نحو ذلك، مما يُسمِّيه البعض في زماننا ابتهالات ويجعل له أداءً معيَّناً شبيهاً بالتغنِّي، فمِثل هذا لا يجوز؛ لأنَّ

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٤٨٨ ـ ٤٨٩).

مقامَ الدعاء مقامُ طلبٍ وإظهارِ حاجة وخشوع وتضرُّعٍ إلى الله، وليس مقامَ تغنٍ، وهو مقامُ خضوع وعبوديةٍ، وليس مقامَ إظهارٍ للصناعة النغمية، وهو مقامُ ذُلٍّ وخضوعٍ وإيمان، وليس مقامَ شغلٍ للخواطر بتنميق الأداء وإقامة الأوزان، والله وحده الهادي والموفِّق، وهو وحده المستعان.

* * *

٩٧ ـ التحذير من السماعات المبتدعة

لا يزالُ حديثُنا موصولاً ببيان ضوابط الدعاء المشروع الذي كان عليه سيِّد الأنبياء والمرسَلين، واتَّبعه فيه سادات الأولياء والصالحين من الصحابة والتابعين، وهو وحده المقبول عند الله، دون ما أحدثه المحدثون، وأنشأه المتكلِّفون، ممن هجروا الأذكارَ المشروعة، والأدعيةَ المأثورة، واستبدلوها بسماعات مبتدَعة ، وتعبدٍ بإنشادِ أشعارٍ، وأراجيزَ محدثةٍ اتَّخذوها أوراداً، ووظَّفوا لها أوقاتاً، وادّعوا أنَّ تأثيرها في القلوب أبلغُ، وتحريكَها للنفوس أقوى، فمالت لها قلوبُهم، واطمأنَّت إليها نفوسُهم، وآثروها على الأذكار المشروعة والأدعية المأثورة.

وما مِن ريبٍ أنَّ هذا حدَثٌ في الدين، ومخالفةٌ لِهَدي سيِّد الأنبياء والمرسلين، والنقولُ عن أهل العلم في ذمِّ ذلك، والتحذيرِ منه، والنهيِ عنه، وبيانِ أنَّه من البدع المحدَثة كثيرةٌ جداً.

يقول الإمام الشافعي رحمه الله: « خرجتُ من بغداد وخلَّفتُ بها شيئاً أحدثه الزنادقة، يُسمّونه التغبير، يصدّون الناسَ به عن القرآن ».

والتغبيرُ ذكرٌ أحدثه هؤلاء بنوعٍ من التغنّي بالشعر مع ضربِ قضيبٍ على جلدٍ أو نحوِ ذلك.

ولَمَّا سُئل عنه الإمامُ أحمدُ رحمه الله، قال: « بدعةٌ محدثةٌ »[1].

---

(١) انظر: كتاب الكلام على مسألة السماع لابن القيم (ص:١١٩ ـ ١٢٨).

ويقول محمد بن الوليد الطرطوشي: « ومِن العَجب العُجاب أن تُعرِضَ عن الدعوات التي ذَكَرها الله في كتابه عن الأنبياء والأولياء والأصفياءِ مقرونةً بالإجابةِ، ثمَّ تنتقي ألفاظَ الشُّعراء والكتَّاب، كَأنَّك قد دعوتَ في زعمِك بجميع دعواتِهم ثمّ استعنتَ بدعوات مَن سواهم »[1]. اهـ.

وقد نبّه أهلُ العلم على أنَّ السماعَ على نوعين:

نوعٌ هو سماعُ لهوٍ وطربٍ، فهذا حكمه محرَّمٌ وباطلٌ، وقد بسط غيرُ واحدٍ من أهل العلم الأدلّة على منعه وتحريمه، منهم ابن القيِّم رحمه الله في كتابه إغاثةُ اللهفان.

والنوعُ الثاني: السماعُ المحدَثُ على وجهِ التديُّن والتقرُّب إلى الله تعالى، فهذا يُقال فيه إنَّه بدعةٌ ضلالةٌ، فإنَّ اللهَ جلَّ وعلا إنَّما يُتقرَّبُ إليه بما شرع لا بالأهواء والمحدثات والبدع، وقد ضمّ بعضُ هؤلاء إلى ذلك على وجه التديُّن والتقرُّب التلحينَ والتطريبَ وآلاتِ اللهو، والتصفيق والتمايل، ونحو ذلك من الأعمال التي يقومون بها ويُؤدّونها بزعمهم تقرُّباً إلى الله جلَّ وعلاَ، وطلباً لثوابه، ولا ريب أنَّ ذلك من أقبح الأعمال ، وأقبح أنواع الاعتداء في الذكر والدعاء.

وهكذا صار هؤلاء يترقَّون في درجاتِ الباطل ويتمادون في الغي والضلال إلى أن بلغوا إلى هذه الحال المُزْرِية والنهاية المؤسفة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « فإنَّ أصلَ سماع القصائد كان تلحيناً بإنشاد قصائدَ مرقِّقةٍ للقلوب تحرِّك المحبةَ والشوقَ أو الخوفَ والخشيةَ

---

(١) الفتوحات الربانية لابن علان (١/ ١٧).

أو الحزن والأسف وغيرَ ذلك، وكانوا يشترطون له المكان والإمكان والخلاّن، فيشترطون أن يكون المجتمعون لسماعها من أهل الطريق المريدين لوجه الله والدار الآخرة، وأن يكون الشعرُ المنشدُ غيرَ متضمنٍ لما يُكره سماعُه في الشريعة، وقد يشترط بعضُهم أن يكون القوَّالُ منهم، وربّما اشترط بعضُهم ذلك في الشاعر الذي أنشأ تلك القصائد، وربّما ضمُّوا إليه آلةً تُقوِّي الصوتَ وهو الضربُ بالقضيب على جلد مخدةٍ أو غيرها وهو التغبيرُ.

ومن المعلوم أنَّ استماع الأصوات يوجب حركة النفس بحسب ذلك الصوت الذي يوجب الحركة ... وللأصوات طبائعُ متنوِّعة، تتنوع آثارها في النفس، وكذلك للكلام المسموع نظمه ونثره، فيجمعون بين الصوت المناسب والحروف المناسبة لهم.

وهذا الأمر يفعله بنو آدم من أهل الديانات البدعية كالنصارى والصابئة، وغير أهل الديانات مِمَّن يحرك بذلك حبه وشوقه ووجده
أو حزنه وأسفه أو حميّته وغضبه أو غير ذلك، فخلف بعد أولئك
من صار يجمع عليه أخلاطاً من الناس ويرون اجتماعهم لذلك
شبكة تصطاد النفوس بزعمهم إلى التوبة والوصول في طريق أهل الإرادة ...»[1]. الخ كلامه.

وقد سُئل رحمه الله عن رجلٍ من المعروفين بالخير أراد تتويب جماعةٍ يجتمعون على قصد الكبائر من القتل وقطع الطريق والسرقة وشرب الخمر

(١) الاستقامة (١/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦).

وغير ذلك، فلم يمكنه إلاَّ أن يقيم لهم سماعاً يجتمعون فيه بهذه النية، وهو بدفٍّ بلا صلاصل، وغناءُ المغني بشعرٍ مباح بغير شبابة، فلمَّا فعل هذا تاب منهم جماعةٌ، وأصبح مَن لا يصلي ويسرق ولا يزكي يتورَّعُ عن الشبهات، ويُؤدي المفروضات، ويتجنَّب المحرَّمات، فهل يُباح فعلُ هذا السماع لهذا الشيخ على هذا الوجه لِما يترتَّب عليه من المصالح مع أنَّه لا يمكنه دعوتهم إلاَّ بهذا؟

فقال رحمه الله في جوابه على هذا السؤال: « إنَّ الشيخَ المذكورَ قصد أن يُتوِّب المجتمعين على الكبائر فلم يُمكنه ذلك إلاّ بما ذكره من الطريق البدعي، يدلُّ أنَّ الشيخَ جاهلٌ بالطرق الشرعية التي بها تتوبُ العصاة، أو عاجزٌ عنها، فإنَّ الرسولَ ﷺ والصحابةَ والتابعين كانوا يدعون مَن هو شرٌّ من هؤلاء مِن أهل الكفر والفسوقِ والعصيان بالطرق الشرعية التي أغناهم الله بها عن الطرق البدعية، فلا يجوز أن يُقال إنَّه ليس في الطرق الشرعية التي بعث الله بها نبيَّه ما يتوب به العصاة، فإنَّه قد عُلم بالاضطرار والنقل المتواتر أنَّه قد تاب من الكفر والفسوق والعصيان مَن لا يُحصيه إلاَّ الله تعالى من الأمم بالطرق الشرعية التي ليس فيها ما ذكر من الاجتماع البدعي بل السابقون والأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان وهم خيرُ أولياء الله المتقين من هذه الأمة تابوا إلى الله تعالى بالطرق الشرعية، لا بهذه الطرق البدعية، وأمصارُ المسلمين وقراهم قديماً وحديثاً ممَّن تاب إلى الله واتَّقاه، وفعل ما يحبُّه الله ويرضاه بالطرق الشرعية لا بهذه الطرق البدعية، فلا يُمكن أن يُقال إنَّ العصاةَ لا تمكن توبتهم إلاَّ بهذه الطرق البدعية، بل قد يُقال: إنَّ في الشيوخ مَن يكون جاهلاً بالطرق الشرعية عاجزاً عنها، ليس عنده علمٌ

بالكتاب والسنة وما يُخاطِب به الناسَ ويُسمعهم إيَّاه مِمَّا يتوب الله عليهم به، فيعدِلُ هذا الشيخُ عن الطرق الشرعيةِ إلى الطرق البدعية »[1]، إلى آخر كلامه رحمه الله، وهو عظيمُ الفائدة، جليلُ النفع، غنيٌّ عن البيان والتعليق، وللموضوع صلة، وبالله وحده التوفيق والسداد.

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٢٠ ـ ٦٣٥).

٩٨ ـ الفرق بين السماع المشروع والسماع المحدَث

سبق الحديثُ عمَّا أحدثه بعضُ الناس في الذِّكر والدعاء من السماعات المُحدَثة، والتعبُّدِ لله باتِّخاذ أراجيز وأشعارٍ أوراداً لهم، فجَنَى عليهم ذلك جنايات بالغة، وأفسد عليهم مسلكَهم، وصدَّهم عن الذِّكر القويم والدعاء السليم الوارد في هدي سيِّد الأنبياء والمرسَلين نبيِّنا محمد ﷺ.

والواجب على كلِّ مسلم أن يُفرِّق بين السماع الذي ينتفع به في الدِّين المتقرِّر في شرع ربِّ العالمين، وبين السماعات المحدَثة التي أنشأها واخترعها بعضُ الناس على وفق أهوائهم.

فأما السماع الذي شرعه الله تعالى لعباده وكان سلفُ الأمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم يجتمعون عليه لصلاح قلوبهم وزكاةِ نفوسهم، فهو سماعُ آياتِ الله تعالى، وهو سماع النبيّين والمؤمنين وأهل العلم، قال الله تعالى لَمَّا ذكر مَن ذَكره من الأنبياء: {**أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وبُكِيًّا**}[(١)]، وقال تعالى: {**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**}[(٢)]، وقال تعالى: {**إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا**}[(٣)]، وقال

(١) سورة مريم، الآية: (٥٨).
(٢) سورة الأنفال، الآية: (٢).
(٣) سورة الإسراء، الآيات: (١٠٧ ـ ١٠٩).

تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ}[١].

وبهذا السماع أَمَر الله تعالى عباده كما قال تعالى: {وَإِذَا قُرِئَ القُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[٢]، وعلى أهله أثنى كما في قوله تعالى: {فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}[٣]، وقال في الآية الأخرى: {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا القَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ}[٤]، فالقولُ الذي أُمروا بتدبُّره هو القولُ الذي أُمروا باستماعه، وقد قال تعالى: {أَفَلاَ يَتَدبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}[٥]، وقال تعالى: {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ}[٦].

وكما أثنى الله على هذا السماع ذمَّ المُعرضين عنه فقال: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا}[٧]، وقال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا القُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ}[٨]، وقال تعالى: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا القُرْآنَ مَهْجُورًا

---

(١) سورة المائدة، الآية: (٨٣).
(٢) سورة الأعراف، الآية: (٢٠٤).
(٣) سورة الزمر، الآيات: (١٧ ، ١٨).
(٤) سورة المؤمنون، الآية: (٦٨).
(٥) سورة محمد، الآية: (٢٤).
(٦) سورة ص، الآية: (٢٩).
(٧) سورة لقمان، الآية: (٧).
(٨) سورة فصلت، الآية: (٢٦).

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا}[(١)]، وقال تعالى: {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ}[(٢)]، وقال تعالى: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ}[(٣)]، وقال تعالى: {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا وَجَعَلْنَا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا}[(٤)].

فهذا هو السماعُ الذي شرعه الله لعباده، ورتَّب لهم عليه الأجورَ الكثيرةَ والخيراتِ العظيمةَ في الدنيا والآخرة، وعلى هذا السماع كان أصحابُ رسول الله ﷺ يجتمعون، فكانوا إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأَ والباقون يستمعون، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى رضي الله عنه: « يا أبا موسى ذكِّرنا ربَّنا، فيقرأ وهم يسمَعون »[(٥)]، وهذا هو السماعُ الذي كان النبيُّ ﷺ يشهده مع أصحابه ويستدعيه منهم، كما في الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبيُّ ﷺ: « اقرأ عليَّ القرآن، قلتُ: أقرأه عليك وعليك أُنزل، فقال: إنِّي أحِبُّ أن أسمعه من غيري، فقرأتُ عليه سورة النساء حتى بلغت: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ

(١) سورة الفرقان، الآيات: (٣٠ ، ٣١).
(٢) سورة المدثر، الآية: (٤٩ ـ ٥١).
(٣) سورة فصلت، الآية: (٥).
(٤) سورة الإسراء، الآيات: (٤٥ ، ٤٦).
(٥) رواه ابن سعد في الطبقات (٤/ ١٠٩)، وأورده الذهبيُّ في السير (٢/ ٣٩٨).

وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا}[1] قال: حسبُك، فنظرتُ فإذا عيناه تذرفان"[2].

فهذا هو سماعُ أهل الإيمان الذي مَن سمعه وآمن به واتبعه اهتدى وأفلح، ومَن أعرض عنه شقيَ وضلَّ، ثمَّ إنَّ له من الآثار الإيمانية والمعارف القدسية والأحوال الزكية والنتائج المحمودة في الدنيا والآخرة ما لا يُعدُّ ولا يُحصى.

وأمَّا سماعُ المكاء والتصدية، وهو التصفيقُ بالأيدي والصفيرُ ونحوُه، فهذا هو سماع المشركين الذي ذكره الله تعالى في قوله: {وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً}[3]، فأخبر عنهم أنَّهم كانوا يتَّخذون التصفيقَ باليد، والتصويت بالفم قُربةً وديناً، ولم يكن النبيُّ ﷺ وأصحابُه يجتمعون على مثل هذا السماع ولا حضروه، ولم يكن في القرون الثلاثة المفضلة من أهل الدِّين والصلاح والعبادة مَن يَجتمع
على مثل هذا المكاء والتصدية، لا بدُفٍّ ولا بكفٍّ ولا بقضيبٍ،
وإنَّما أُحدث هذا بعد ذلك في أواخر المائة الثانية، فلمَّا رآه الأئمةُ أنكروه، وقد مرَّ قولُ الإمام الشافعي والإمام أحمد رحمهما الله في ذلك، فمَن فعل هذه الأمورَ على وجه الديانة والتقرُّبِ إلى الله عزَّ وجلَّ فلا ريب في ضلالته وجهالته وانحرافه عن الصراط المستقيم.

وأمَّا إذا فعلها الإنسان على وجه التمتُّع واللعب، فمذهبُ الأئمة

(١) سورة النساء، الآية: (٤١).

(٢) صحيح البخاري (رقم:٤٥٨٢)، وصحيح مسلم (رقم:٨٠٠).

(٣) سورة الأنفال، الآية: (٣٥).

الأربعة أنَّ آلات اللَّهو كلَّها حرامٌ، فقد ثبت في صحيح البخاري وغيره: أنَّ النبيَّ ﷺ أخبر أنَّه سيكون من أمته من يستحلُّ الحرَ والحريرَ والخمرَ والمعازف[(١)]، والمعازفُ هي الملاهي، جمع معزفة، وهي الآلة التي يُعزف بها، أي يُصوَّت بها، ولا خلاف بين أهل العلم وأئمة السلف في تحريم ذلك[(٢)].

وينبغي أن يُعلم أنَّ ثمَّةَ فرقاً بين مَن يفعل هذه الأمور على وجه اللهو واللعب، وبين من يفعلها على وجه التديُّن والتعبُّد، فإنَّ الأولَ يفعل ذلك وهو لا يعدُّه من صالح عمله، ولا يرجو به الثواب، بل ربَّما كان يفعله وهو يشعر بالذنب والخطأ، أما مَن فعله على وجه التقرُّب والتعبُّد، وأنَّه طريقٌ إلى الله تعالى، فإنَّه يتَّخذه دِيناً، وإذا نُهي عنه كان كمن يُنهى عن دينه، ورأى أنَّه قد انقطع عن الله، وحرم نصيبَه من الله تعالى إذا تركه، فهؤلاء ضلاَّلٌ باتفاق المسلمين، وهذا الأمر أحبُّ إلى إبليس من الأول؛ لأنَّ العاصيَ يعلمُ أنَّه عاصٍ فيتوب، والمبتدعُ يحسب أنَّ الذي يفعله طاعة فلا يتوب، فالبدعةُ أحبُّ إلى إبليس من المعصية، حمانا الله وإياكم منه، وهدانا إلى صراطه المستقيم.

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٥٥٩٠).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١١/ ٥٥٧ ـ ٥٨٦).

٩٩ ـ الدعاء للمسلمين

إنَّ من الأمور المهمَّة التي ينبغي أن يلحظها المسلمُ في الدعاء، بل قد عدَّه بعضُ أهل العلم في جملة آداب الدعاء العنايةَ بالدعاء للمسلمين بالتوفيق والمغفرة والرحمة والإعانة على الخير؛ إذ إنَّ الجميعَ مشتركون في الحاجة إلى ذلك، وما من ريب أنَّ كلَّ مسلمٍ يحبُّ من إخوانِه المسلمين أن يدعوا له، ويُسَرُّ بذلك، ويتمنى زيادته، والمسلمُ يُحبُّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه من الخير، فكما أنَّه يحبُّ ذلك لنفسه فينبغي
أن يكون معتنياً بذلك تجاه إخوانه المسلمين بحب الخير لهم، والدعاء لهم، والاستغفار ونحو ذلك، ومَن كان هذا شأنُه مع إخوانه المسلمين قيَّض الله له من إخوانه من يدعون له ويستغفرون له، والمسلم ينتفع بدعوة أخيه المسلم حيًّا وميِّتاً.

وإذا نظر المسلمُ إلى أحوال إخوانه المسلمين وجدها أحوالاً متفاوتة، وكلُّ واحد منهم بحاجة إلى دعاءِ إخوانه، فذاك مريضٌ يعاني من المرض ويُكابد آلامَه، ولربما يكون قد أمضى في مرضه الأسابيعَ العديدة أو الشهورَ الطويلة، وقد لا يغمض له جفن، ولا يهدأ له بالٌ في آلامٍ متعبة وأوجاع مؤلمة، فهو بحاجة إلى دعاء إخوانه المسلمين له بأن يشفي الله مرضَه، ويزيل بأسه، ويفرج همَّه، ويكشف كربَه، ويُلبسَه ثوبَ الصحة والعافية.

روى أبو داود والترمذي، وقال: « حسن »، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: « مَن عاد مريضاً لَم يحضر أجلُه فقال عنده سبعَ

مرَّات: أسأل الله العظيم ربَّ العرش العظيم أن يشفيك إلاَّ عافاه الله »[١].

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: « كان رسول الله ﷺ إذا أتى المريض يدعو له قال: اللَّهمَّ ربَّ الناس أذهب الباس، واشفِ أنت الشافي، لا شفاء إلاَّ شفاؤك، شفاءً لا يغادر سُقماً »[٢].

ومن المسلمين مَن اخترمته المنيَّةُ وأدركه الموتُ، فهو في قبره محتَجزٌ، وبأعماله مرتَهن، وبما قدَّمت يداه مجزيٌّ، فهو بحاجة إلى دعاء إخوانه المسلمين بأن يُقيلَ الله عثرتَه، ويغفرَ زلَّتَه، ويتجاوزَ عن خطيئته، قال الله تعالى: **{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}**[٣]، قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله: « هذا شاملٌ لجميع المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين التي من فروعها أن يدعو بعضُهم لبعض وأن يحبَّ بعضُهم بعضاً، ولهذا ذكر الله في هذا الدعاء نفيَ الغلِّ عن القلب، الشامل لقليله وكثيره، الذي إذا انتفى ثبت ضدُّه وهو المحبَّةُ بين المؤمنين والموالاةُ والنصحُ ونحوُ ذلك ممَّا هو من حقوق المؤمنين ... »[٤].

ومن المسلمين مَن يعيشون في بلدانهم في فتن مؤرقة، وحروبٍ مهلكة، وبلاء شديد، قد تسلَّط عليهم عدوُّهم، فأُريقت فيهم الدماء، ورُمِّلت النساء،

---

(١) سنن أبي داود (رقم:٣١٠٦)، وسنن الترمذي (رقم:٢٠٨٣)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (رقم:٦٣٨٨).

(٢) صحيح البخاري (رقم:٥٦٧٥)، وصحيح مسلم (٤/ ١٧٢٢).

(٣) سورة الحشر، الآية: (١٠).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٨/ ١٠٣).

ويُتِّمَ الأطفالُ، ونُهبت الأموالُ، وهم بحاجة إلى الدعاء لهم بأن يُنفِّسَ اللهُ كربَهم، ويفرج هَمَّهم، ويكبِتَ عدوَّهم، وينشرَ الأمنَ والاطمئنانَ بينهم، وقد كان من هدي النبيِّ الكريم ﷺ القنوتُ في النوازل التي تنزل بالمسلمين، فيدعو للمسلمين بالنصر والنجاة، ولعدوِّهم بالهزيمةِ والهلاك، كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: « أنَّ رسول الله ﷺ قنتَ في صلاة العَتَمَةِ شهراً يقول في قنوته: اللَّهمَّ أنْجِ الوليدَ بن الوليد، اللَّهمَّ أنْجِ سلمةَ بنَ هشام، اللَّهمَّ أنْجِ عيَّاشَ بن أبي ربيعة، اللَّهمَّ أنْجِ المستضعفين من المؤمنين، اللَّهمَّ اشدد وطأتَك على مُضر، اللَّهمَّ اجعلها عليهم سنينَ كسِنِي يوسف، قال أبو هريرة: وأصبح ذات يوم فلم يدعُ لهم، فذكرتُ ذلك له، فقال: أَوَما تراهم قد قَدِموا »[1].

وثبت في الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: « قنتَ النبيُّ ﷺ شهراً يدعو على رِعْلٍ وذكوان ويقول: عُصيَّة عَصت الله ورسولَه »[2].

وكذلك قنوتُ أبي بكر الصديق رضي الله عنه في محاربة الصحابة لمسيلمة الكذاب، وعند محاربة أهل الكتاب، وكذلك قنوتُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفيه يقول: « اللَّهمَّ عَذِّب كفرةَ أهل الكتاب الذين يصدُّون عن سبيلك، ويجحدون آياتك، ويكذبون رسلَك، ويتعدَّون حدودَك ... »، إلى آخر دعائه رضي الله عنه[3].

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٨٠٤)، وصحيح مسلم (١/ ٤٦٧)، واللفظ له.

(٢) صحيح البخاري (رقم:٤٠٩٤).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٢/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣)، وزاد المعاد لابن القيم (١/ ٢٨٥).

=

ومِن المسلمين مَن أرقهم الفقرُ، وأقعدتهم الحاجةُ، فمنهم مَن قد لا يجد لباساً يواريه، أو مسكناً يؤويه، أو طعاما يُشبعه ويغذيه، أو شراباً يرويه، بل منهم مَن أدركه حتفُه في مجاعات مهلكة، وقَحْطٍ مفجع، فهم بحاجة إلى دعوات صادقة بأن يغني الله فقيرَهم، ويُشبعَ جائعَهم، ويكسو عاريَهم، ويَسُدَّ حاجتَهم، ويكشفَ فاقتَهم، إلى غير ذلك من أنواع الاهتمام بأمور المسلمين وحبِّ الخيرِ لهم، والدعاء لهم، وذلك كلُّه منطلقٌ من الرابطة الإيمانية التي تجمعهم وتؤلف بينهم، قال الله تعالى: {**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**}[1]، وقال تعالى: {**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**}[2]، وفي الحديث يقول ﷺ: « مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمِهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمى »، رواه البخاري ومسلم[3].

وفي صحيح مسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « المسلمون كرجل واحد، إن اشتكى عينُه اشتكى كلُّه، وإن اشتكى رأسُه اشتكى كلُّه »[4].

وثبت عن النبيِّ ﷺ من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله

وأثر عمر أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٢/ ١٥٥ ـ ١٥٦) وغيره ـ مع اختلاف في اللفظ عما أورد هنا ـ وقد صحَّحه الألبانيُّ في تعليقه على صحيح ابن خزيمة، وصحَّحه قبله الحافظ ابن حجر في نتائج الأفكار (٢/ ١٥٠).

(١) سورة الحجرات، الآية: (١٠).

(٢) سورة التوبة، الآية: (٧١).

(٣) صحيح البخاري (رقم:٦٠١١)، وصحيح مسلم (رقم:٢٥٨٦).

(٤) صحيح مسلم (رقم:٤/ ٢٠٠٠).

عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشُدُّ بعضُه بعضاً »[1].

وروى الطبراني عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه أنَّه سمع النبيَّ ﷺ يقول: « لن تؤمنوا حتى تراحموا، قالوا: يا رسول الله كلُّنا رحيم، قال: إنَّه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنَّها رحمةُ الناس رحمةُ العامة »[2].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، فينبغي على المسلم أن يكون مراعياً لحقوق إخوانه المسلمين، مُحبًّا الخيرَ لهم، رحيماً بهم، عَطوفاً عليهم، داعياً لهم بالتوفيق والسداد، والخير والفلاح، والصلاح والاستقامة.

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٦٠٢٦)، وصحيح مسلم (رقم:٢٥٨٥).

(٢) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٨/ ١٨٦)، وقال الهيثمي: ((رجاله رجال الصحيح))، ورواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٨٥)، وقال: ((صحيح الإسناد))، وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ٤٣٨): ((رجاله ثقات))، وللحديث شاهد من حديث أنس رواه أبو يعلى في مسنده (٧/ ٢٥١).

١٠٠ ـ الاستغفار للمسلمين

تقدَّم بيانُ أهميَّةِ دعاء المسلم لغيره من إخوانه المسلمين بالمغفرة والتوفيقِ والهداية والسدادِ ونحوِ ذلك، وتقدَّم الإشارةُ إلى أنَّ حاجةَ الجميعِ إلى ذلك مشتَرَكَةٌ، فكما أنَّ المسلمَ بحاجةٍ إلى دعوات إخوانه المسلمين، فكذلك إخوانه المسلمون بحاجة إلى ذلك، قال العلاَّمةُ ابنُ القيِّم رحمه الله: « والجميعُ مشتركون في الحاجة بل في الضرورة إلى مغفرةِ الله وعفوِه ورحمتِه، فكما يُحبُّ [أي المسلم] أن يَستغفرَ له أخوه المسلمُ، كذلك هو أيضاً ينبغي أن يستغفرَ لأخيه المسلم، فيصير هِجِّيراه: ربِّ اغفر لي ولوالديَّ وللمسلمين والمسلمات وللمؤمنين والمؤمنات، وقد كان بعضُ السلف يستحبُّ لكلِّ أحدٍ أن يُداوم على هذا الدعاء كلَّ يوم سبعين مرَّة، فيجعل له منه وِرداً لا يُخلُّ به.

وسمعتُ شيخَنا ـ أي ابن تيمية ـ يذكرُه، وذكر فيه فضلاً عظيماً لا أحفظه، وربَّما كان مِن جملة أوراده التي لا يُخلُّ بها، وسمعتُه يقول: إنَّ جعلَه بين السجدتين جائزٌ، فإذا شهدَ العبدُ أنَّ إخوانه مصابون بمثل ما أُصيب به، محتاجون إلى ما هو محتاجٌ إليه لَم يمتنع من مساعدتهم إلاَّ لفرطِ جهله بمغفرة الله وفضلِه، وحقيقٌ بهذا أن لا يُساعَد، فإنَّ الجزاءَ من جنس العمل »[١].

ومِن الأجور الواردةِ في هذا الدعاء العظيم ما ثبت في المعجم الكبير

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٩٨).

للطبراني بإسناد حسن عن عُبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « مَن استغفر للمؤمنين والمؤمنات، كتب الله له بكلِّ مؤمنٍ ومؤمنَة حسنةً »[١].

فتأمَّل ـ رحِمكَ الله ـ عِظمَ هذا الأجر المترتِّب على هذا الدعاء وكثرته، فالمسلمُ عندما يقول في دعائه: اللَّهمَّ اغفر للمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأموات، يكون له بكلِّ واحد من المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات المتقدِّمين منهم والمتأخرين حسنة، فهي حسنات لا تُحصى، فأعداد المسلمين المتقدِّمين والمتأخرين لا يُحصيهم إلاَّ الله جلَّ وعلا، ولهذا كان هذا الدعاءُ العظيم في جملة أدعية النبيِّين، وأَمَرَ الله به خاتَمهم محمداً ﷺ، وذكره في جملة ما امتدح به عباده المؤمنين، قال الله تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام: **{رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}**[٢]، وقال تعالى إخباراً عن إبراهيم عليه السلام: **{رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ}**[٣]، وقال تعالى آمراً نبيَّه محمداً ﷺ: **{فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}**[٤]، وقال تعالى عن عباده المؤمنين الذين جاؤوا مِن بعد الصحابة: **{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا**

---

(١) مجمع الزوائد (١٠/ ٢١٠)، وصحيح الجامع (رقم:٥٩٠٦)، وانظر تعليق الشوكاني على هذا الحديث في تحفة الذاكرين (ص:٣٢٠).

(٢) سورة نوح، الآية: (٢٨).

(٣) سورة إبراهيم، الآية: (٤١).

(٤) سورة محمد، الآية: (١٩).

بِالإِيمَانِ}[١].

وكلُّ ذلك دالٌّ على عِظم شأن هذا الدعاء، وجلالةِ قدرِه، وكثرةِ ثوابِه عند الله، ولهذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يعظم شأنَ هذا الدعاء، وكان من جملة أورادِه التي لا يُخلُّ بها، كما سبق نقلُ ذلك عن الإمام ابن القيم رحمه الله.

وقد روى عبد الرزاق في مصنفه عن ابن جريج قال: قلتُ لعطاء: أَستَغفرُ للمؤمنين والمؤمنات؟ قال: نعم، قد أُمر النبيُّ ﷺ بذلك، فإنَّ ذلك الواجبَ على الناس، قال الله لنبيِّه ﷺ: {**اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**}، قلتُ: أفتدع ذلك في المكتوبة أبداً؟ قال: لا، قلت: فبِمَن تبدأ، بنفسك أم بالمؤمنين؟ قال: بل بنفسي، كما قال الله {**وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**} »[٢].

وروى البيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن المبارك رحمه الله: « أنَّه كان إذا ختم القرآنَ أكثَرَ دعاءَه للمؤمنين والمؤمنات »[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « فالأمرُ الذي كان معروفاً بين المسلمين في القرون المفضَّلةِ أنَّهم كانوا يعبدون اللهَ بأنواع العبادات المشروعة فرضها ونفلها من الصلاة والصيام والقراءةِ والذِّكر وغيرِ ذلك، وكانوا يدعون للمؤمنين والمؤمنات كما أمر الله بذلك لأحيائهم وأمواتهم في صلاة

---

(١) سورة الحشر، الآية: (١٠).

(٢) مصنف عبد الرزاق (٢/ ٢١٧).

(٣) شعب الإيمان (٢/ ٤١١).

الجنازة وعند زيارة القبور وغير ذلك، وروي عن طائفة من السلف: عند كلِّ ختمة دعوةٌ مستجابة، فإذا دعا الرجلُ عُقيب الختم لنفسه ولوالديه ولمشائخه وغيرِهم من المؤمنين والمؤمنات كان هذا من جنس المشروع، وكذلك دعاؤه لهم في قيام الليل وغير ذلك من مواطن الإجابة »[١].

ثمَّ إنَّ دعوةَ المسلمِ لأخيه أو إخوانه المسلمين بظهر الغيب مستجابةٌ، بل إنَّ الله جلَّ وعلا وكَّل ملَكاً عند رأس الداعي كلَّما دعا لأخيه بخير قال الملَك: « آمين ولك بمثلِه ».

روى مسلم في صحيحه عن أبي الدرداء رضي الله عنه: أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: « ما مِن عبدٍ مسلمٍ يدعو لأخيه بظهر الغيب إلاَّ قال الملَكُ: ولك بمثل »[٢]، وفي رواية أخرى في صحيح مسلم عن أبي الدرداء: أنَّ رسول الله ﷺ قال: « دعوةُ المرءِ المسلمِ لأخيه بظهرِ الغيب مستجابةٌ، عند رأسِه مَلَكٌ موكَّلٌ كلَّما دعا لأخيه بخير قال الملَكُ المُوَكَّلُ به: آمين ولك بمثلِه »[٣].

قال النووي رحمه الله في شرحه لهذا الحديث: « وفي هذا فضلُ الدعاء لأخيه المسلم بظهر الغيب، ولو دعا لجماعةٍ من المسلمين حصلت هذه الفضيلةُ، ولو دعا لجملة المسلمين فالظاهر حصولها أيضاً، وكان بعض السلف إذا أراد أن يدعو لنفسه يدعو لأخيه المسلم بتلك الدعوةِ؛ لأنَّها

(١) مجموع الفتاوى (٢٤/ ٣٢٢).
(٢) صحيح مسلم (رقم:٢٧٣٢).
(٣) صحيح مسلم (رقم:٢٧٣٢).

تُستجابُ ويحصُلُ له مثلُها »[(١)].

إنَّ جميعَ ما تقدَّم فيه أبلغُ دلالةٍ على أهميَّة الدعاء للمسلمين بالمغفرة والرحمة ونحو ذلك، فحريٌّ بكلِّ مسلمٍ أن يُكثرَ من الدعاء لإخوانه لينال تلك الأجورَ الكريمةَ والفضائل العظيمة، ومِن لطيف ما يُستأنسُ به في هذا المقام ما رواه أبو نعيم في حلية الأولياء عن أحمد بن الضحاك الخشاب قال: « رأيتُ فيما يرى النائمُ شُريحَ بنَ يونس، فقلتُ: ما فعل بكَ ربُّكَ يا أبا الحارث؟ قال: غفر لي، ومع ذلك جعل قصري إلى جنب قصر محمد بن بشير بن عطاء الكندي، فقلتُ: يا أبا الحارث أنتَ عندنا أكبرُ من محمد بن بشير، فقال: لا تقُل ذاك، فإنَّ الله تعالى جعل لمحمد بن بشير حظًّا في عمل كلِّ مؤمن ومؤمنة؛ لأنَّه كان إذا دعا قال: اللَّهمَّ اغفر لي وللمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات »[(٢)].

فنسأل الله الكريم أن يغفرَ لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأموات.

❊ ❊ ❊

(١) شرح صحيح مسلم (١٧/ ٤٩).
(٢) حلية الأولياء (١٠/ ١١٣).

١٠١ ـ فضلُ الدعاء للمؤمنين والإمساك عن الطعن فيهم

لقد مرَّ الكلامُ على أهميَّة الدعاء للمسلمين بالمغفرةِ والرحمةِ والتوفيقِ، ونحوِ ذلك، وبيانُ ما يترتَّبُ على ذلك من فوائد عظيمة وأجورٍ كريمة، وخيراتٍ متواليةٍ في الدنيا والآخرة، وما مِن شكٍّ أنَّ وجودَ مثل ذلك بين المسلمين دليلٌ على قوَّةِ اللُّحمة، وشدَّة الرابطةِ، ووثوق الصلةِ، وهو دليلٌ أيضاً على كمال العقلِ وسلامة الصَّدر ورجاحةِ الفهم، والمسلمُ الموفَّقُ يكون دائماً محبًّا الخيرَ لإخوانه المسلمين، عطوفاً عليهم، رحيماً بهم، راجياً صلاحَهم وفلاحَهم وهدايتَهم، متمنِّياً تحقُّق الخير لهم، مكثراً من دعاء الله وسؤاله لهم، ومَن كان كذلك فهو حريٌّ بأن يكون من الشهداء والشفعاء للناس يوم القيامة، ثبت في الحديث عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: « لا يكون الطعَّانون واللَّعانون شفعاءَ ولا شهداءَ يوم القيامة »، رواه مسلم، وأحمد، وأبو داود[1].

قال ابن القيم رحمه الله في معنى هذا الحديث: « إنَّ الشهادةَ من باب الخبر، والشفاعةَ من باب الطلبِ، ومَن يكون كثيرَ الطعن على الناس، وهو الشهادةُ عليهم بالسوء، وكثيرَ اللعن لهم، وهو طلب السوء لهم لا يكون شهيداً عليهم ولا شفيعاً لهم؛ لأنَّ الشهادةَ مبناها على الصِدق، وذلك لا يكون فيمَن يُكثر الطعنَ فيهم، ولا سيما فيمَن هو أولى بالله ورسوله منه،

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٢٥٩٨)، وسنن أبي داود (رقم:٤٩٠٧)، والمسند (٦/ ٤٤٨).

والشفاعةُ مبناها على الرحمة وطلب الخير، وذلك لا يكون ممَّن يُكثر اللَّعنَ لهم، ويترك الصلاة عليهم »[١].

ولهذا حريٌّ بالمسلم أن يكون مصليًّا على إخوانه المسلمين، محبًّا الخيرَ لهم، مبتعداً عن لعنهم وسبِّهم والوقيعة فيهم؛ إذ ليس ذلك من شأن المسلم ولا من خُلُقِه.

روى الحاكم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « لا ينبغي للمؤمن أن يكون لعَّاناَ »[٢].

وروى الإمام أحمد والترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: « ليس المؤمن بالطعَّان ولا اللَّعان ولا الفاحش ولا البذيء »[٣].

وثبت في صحيح البخاري ومسلم عن النبي ﷺ أنَّه قال: « المسلمُ مَن سلم المسلمون من لسانه ويده »[٤]، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

وهذه أقلُّ أحوال المسلم إن لَم يكن داعياً لإخوانه المسلمين، باذلاً الخيرَ لهم، ساعياً في حاجتهم ومصالحهم، فلا أقلَّ من أن يكون كافاً عن أذيَّتهم وإيصال الشرِّ لهم.

---

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٥٠٥).

(٢) المستدرك (١/ ٤٧)، وانظر: سنن الترمذي (رقم:٢٠١٩)، ورواه مسلم (رقم:٢٥٩٧) بلفظ: ((لا ينبغي لصديِّق أن يكون لعَّاناً)).

(٣) المسند (١/ ٤٠٤)، وسنن الترمذي (رقم:١٩٧٧)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (رقم:٣٢٠).

(٤) صحيح البخاري (رقم:١٠)، وصحيح مسلم (رقم:٤١).

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: « على كلِّ مسلمٍ صدقة، قالوا: فإن لَم يجِد؟ قال: فيعمل بيده فينفع نفسه ويتصدَّق، قالوا: فإن لَم يستطع أو لَم يفعل؟ قال: فيُعينُ ذا الحاجة الملهوف، قالوا: فإن لَم يفعل؟ قال: فليأمر بالخير أو قال بالمعروف، قالوا: فإن لَم يفعل؟ قال: فليُمسك عن الشرِّ فإنَّه له صدقة »[١].

ففي هذا دليلٌ على أنَّه لا أقلَّ من الإمساكِ عن الشرِّ إن لَم يحصل من المسلم فعلُ الخير لإخوانه المسلمين، وتقديمه المساعدة لهم.

وليُعلَم أنَّ لعنَ المسلمين على مراتب، أخطرُها وشرُّها لعنُ خيارِهم ومقدميهم وأفاضِلهم، كالصحابةِ ومَن اتَّبعهم بإحسان من ذوي العلمِ والفضلِ والإيمان، ومثلُ ذلك لا ينشأ إلاَّ عند ذوي القلوب المريضة والأهواء البغيضةِ من أهل الأهواء والبِدع.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن النبي ﷺ أنَّه قال: « لا تسبُّوا أحداً من أصحابي، فلو أنَّ أحدَكم أنفق مثلَ أُحدٍ ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدِهم ولا نصيفَه »[٢].

وروى ابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّه كان يقول: « لا تسبُّوا أصحابَ محمدٍ ﷺ، فلَمقامُ أحدهم ساعة خيرٌ من عمل أحدِكم عمره »[٣]،

---

(١) صحيح البخاري (رقم:١٤٤٥)، وصحيح مسلم (رقم:١٠٠٨).
(٢) صحيح البخاري (رقم:٣٦٧٣)، وصحيح مسلم (رقم:٢٥٤٠).
(٣) سنن ابن ماجه (رقم:١٦٢)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح سنن ابن ماجه (رقم:١٣٣).

فمَن أضلُّ مِمَّن يكون في قلبه غِلٌّ لخيار المؤمنين وساداتِ أولياء الله تعالى بعد النبيِّين، أصحاب النبيِّ ﷺ.

وهكذا الشأن أيضاً فيمَن يتناول بالطعن علماءَ الأمة وخيارَهم من ذوي العلم والفقه والنصح للمسلمين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « ومن الكلام السائر: لحومُ العلماء مسمومة »[1].

وهكذا الشأنُ في لعن أموات المسلمين الذين أَفضوا إلى ما قدَّموا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « الكلام في لعنة الأموات أعظمُ من لعنة الحيِّ، فإنَّه قد ثبت في الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: « لا تسبُّوا الأمواتَ فإنَّهم أَفضوا إلى ما قدَّموا »[2]، حتى إنَّه قال: « لا تسبُّوا أمواتَنا فتُؤذوا أحياءَنا »[3]، لما كان قومٌ يسبُّون أبا جهلٍ ونحوَه من الكفار الذين أسلموا أقاربَهم فإذا سبُّوا ذلك آذوا قرابَتَه »[4].

وأما ما يتعلَّق بلعن العُصاة والفساق وذوي الفجور من أهل الملَّة، فإنَّ السنَّةَ لَم تأتِ بالأمر بلعن الفاسق المعيَّن، وإنَّما جاءت السُنَّةُ بلعنة الأنواع، كقول النبيِّ ﷺ: « لعن الله السارقَ يسرق البَيْضَةَ فتُقطعُ يدُه »[5]، وقوله: « لعن اللهُ مَن أحدثَ حدَثاً أو آوى مُحدثاً »[1]، وقوله: «

---

(١) الصارم المسلول (ص:١٤٣).

(٢) صحيح البخاري (رقم:١٣٩٣).

(٣) المسند (٤/ ٢٥٢)، وسنن الترمذي (١٩٨٢)، بلفظ مقارب، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (رقم:٧٣١٢).

(٤) منهاج السنة (٤/ ٥٧٢ ـ ٥٧٣).

(٥) صحيح البخاري (رقم:٦٧٨٣)، وصحيح مسلم (رقم:١٦٨٧).

لعن اللهُ آكِلَ الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه »[٢]،

وقوله: « لعن الله المُحَلِّلَ والمُحَلَّلَ له »[٣]، وقوله: « لعن اللهُ الخمرَ، وعاصرَها، ومُعتصِرَها، وحامِلَها، والمحمولةَ إليه، وساقيَها، وشاربَها، وآكلَ ثمنها »[٤].

وقد تنازع العلماءُ في لعنة الفاسقِ المعيَّن، فقيل: إنَّه جائزٌ، وقيل: إنَّه لا يجوز، والمعروف عن الإمام أحمد رحمه الله كراهةُ لعن المعيَّن، وأن يقول كما قال الله تعالى: {أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}[٥]، وقد ثبت في صحيح البخاري: « أنَّ رجلاً كان يُدعى حماراً، وكان يشربُ الخمرَ، وكان يُؤتى به إلى النبيِّ ﷺ فيضربُه، فأُتي به إليه مرَّة، فقال رجل: لعنه الله، ما أكثر ما يُؤتى به إلى النبي ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ: لا تلعنه، فإنَّه يُحبُّ اللهَ ورسولَه »[٦].

فقد نهى النبيُّ ﷺ عن لعنةِ هذا المعيَّن الذي كان يُكثر شرب الخمر مُعلِّلاً ذلك بأنَّه يحبُّ اللهَ ورسولَه، مع أنَّه ﷺ لعنَ شاربَ الخمر مطلقاً، فدلَّ ذلك على أنَّه يجوز أن يُلعن المطلق، ولا يجوز أن يُلعن المعيَّن الذي يحبُّ اللهَ

---

(١) انظر: صحيح البخاري (رقم:١٨٧٠)، وصحيح مسلم (رقم:١٣٧٠).

(٢) صحيح مسلم (رقم:١٥٩٨).

(٣) سنن أبي داود (رقم:٢٠٧٦)، وسنن الترمذي (رقم:١١٢٠)، وسنن ابن ماجه (رقم:١٩٣٦)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الإرواء (رقم:١٨٩٧).

(٤) المسند (١/ ٣١٦)، (٢/ ٧١)، وسنن أبي داود (رقم:٣٦٧٣)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الإرواء (رقم:٢٣٨٥).

(٥) سورة هود، الآية: (١٨).

(٦) انظر: صحيح البخاري (رقم:٦٧٨٠).

ورسولَه[1]، وعلى كلٍّ فاللعن وعيدٌ، والوعيدُ لا يستلزم ثبوته في حقِّ المعيَّن إلاَّ إذا وُجدت شروطُه وانتفت موانعُه، والله أعلم.

* * *

(١) منهاج السنة (٤/ ٥٦٧ ـ ٥٧٤).

١٠٢ ـ الدعاء للوالدين ولذوي القربى

سبق أن مرَّ معنا بيانُ فضل الدعاء للمسلمين بالخير والرحمة والمغفرة، وما يترتَّبُ على ذلك من أجورٍ عظيمةٍ، وخيراتٍ عميمة، وإذا كان الدعاءُ مطلوباً من المسلم لعموم المسلمين فإنَّه متأكِّدٌ ومطلوبٌ بشكل أخصّ لقرابة الإنسان؛ إذ الأقربون أولَى بالمعروف وأحقُّ بالإحسان، ولا سيما الوالدان.

ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: « جاء رجلٌ فقال: يا رسول الله! مَن أحقُّ الناس بحسن صحابَتي؟ قال: أمُّك، قال: ثمَّ مَن؟ قال: أمُّكَ، قال: ثمَّ مَن؟ قال: أمُّك، قال: ثمَّ مَن؟ قال: ثمَّ أبوك »، وزاد مسلم: « ثمَّ أدناك أدناك »[1].

وروى الترمذي والبخاري في الأدب المفرد عن بَهْز بن حكيم، عن أبيه، عن جدِّه قلت: يا رسول الله مَن أبَرُّ؟ قال: أمَّك، قلتُ: مَن أَبَرُّ؟ قال: أمَّك، قلتُ: مَن أَبَرُّ؟ قال: أمَّك، قلتُ: مَن أَبَرُّ؟ قال: أباك، ثمَّ الأقربَ فالأقرب »[2].

ومن أعظمِ البرِّ الدعاءُ، قال الله تعالى: {**وَقَضَى رَبُّكَ أن لاَ تَعْبُدُوا إلاَّ إِيَّاهُ وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ**

(١) صحيح البخاري (رقم:٥٩٧١)، وصحيح مسلم (رقم:٢٥٤٨).
(٢) سنن الترمذي (رقم:١٨٩٧)، والأدب المفرد (رقم:٣)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الأدب المفرد (رقم:٣).

الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}[١]، فأمر جلَّ وعلاَ بالإحسان إليهما بجميع وجوه الإحسان القوليِّ والفعليِّ؛ لأنَّهما سببُ وجود العبد، ولهما من المحبة والحقوق والإحسان والقرب ما يقتضي تأكُّدَ الحق ووجوبَ التقديم في البرِّ، وخصَّ بالذِّكر من ذلك الدعاء لهما بالرحمة أحياء وأمواتاً، جزاء على إحسانهما.

والدعاءُ للوالدين بالرحمة خاصٌّ فيما إذا كانا مسلمين، أما المشركُ فلا يُدعى له بالرحمة والمغفرة، قال ابنُ عباس رضي الله عنه في قوله عزَّ وجلَّ: **{وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}** : « فنسختها[٢] الآيةُ التي في براءة: **{مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الجَحِيمِ}**[٣] »[٤].

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « استأذنتُ ربِّي أن أستغفرَ لأُمِّي فلَم يأذَنْ لي، واستأذنتُه أن أزورَ قبرَها فأَذِنَ لي »[٥].

لكن لا بأس، بل يَحسُن أن يدعو لهما بالهداية والتوفيق لقبول الحقِّ، كما في الصحيح أنَّ النبيَّ ﷺ قال: « اللَّهمَّ اهْدِ دوساً وَأْتِ

---

(١) سورة الإسراء، الآيات: (٢٣ ، ٢٤).

(٢) أي: قيَّدتها.

(٣) سورة التوبة، الآية: (١١٣).

(٤) الأدب المفرد (رقم:٢٣)، وتفسير الطبري (٨/ ٦٣)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الأدب المفرد (رقم:٣).

(٥) صحيح مسلم (رقم:٦٧١).

بهم »[١]، وروى مسلمٌ في صحيحه عن يزيد بن عبد الرحمن قال: حدَّثني أبو هريرة رضي الله عنه قال: « كنتُ أدعو أمي إلى الإسلام، وهي مشركةٌ، فدعوتُها يوماً فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيتُ رسول الله ﷺ وأنا أبكي، قلتُ: يا رسول الله، إنِّي كنتُ أدعو أمِّي إلى الإسلام فتأبى عليَّ، فدعوتُها اليومَ فأسمعتني فيك ما أكره، فادعُ اللهَ أن يهديَ أمَّ أبي هريرة، فقال رسول الله ﷺ: اللَّهمَّ اهدِ أمَّ أبي هريرة، فخرجتُ مستبشراً بدعاءِ نبيِّ الله، فلمَّا جئتُ فصِرتُ إلى الباب، فإذا هو مجافٍ، فسمعَتْ أمِّي خشفَ قدمَيَّ، فقالت: مكانك يا أبا هريرة، وسمعتُ خضخضةَ الماء، قال: فاغتسلتْ، ولبِسَتْ درعَها، وعجلتْ عن خمارها، ففتحتِ الباب، ثمَّ قالت: يا أبا هريرة، أشهدُ أن لا إله إلاَّ الله، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، قال: فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ فأتيتُه وأنا أبكي من الفرح، قال: قلتُ: يا رسول الله أَبشِر، قد استجاب اللهُ دعوتَك وهدى أمَّ أبي هريرة، فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه وقال خيراً، قال: قلتُ: يا رسول الله ادعُ اللهَ أن يحبِّبَني أنا وأمِّي إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا، قال: قال رسول الله ﷺ: اللَّهمَّ حبِّب عُبيْدَك هذا ـ يعني أبا هريرة ـ وأمَّه إلى عبادك المؤمنين، فما خُلِق مؤمنٌ يسمع بي ولا يراني إلاَّ أحبَّني »[٢].

فهذه القصَّةُ العظيمةُ الرائعةُ دالةٌ على جواز الدعاءِ للوالدين إذا كانا مشركَيْن بالهدايةِ، وأهميَّةِ ذلك وعِظمِ فائدته، وينبغي له أن يجمع لهما بين الدعاء والدعوة، كما فعل أبو هريرة رضي الله عنه مع أمِّه رضي الله عنها،

(١) صحيح البخاري (رقم:٢٩٣٧)

(٢) صحيح مسلم (رقم:٢٤٩١).

فقد كان يُكثر من دعوتها إلى الإسلام، والدعاءِ لها بالهداية والتوفيق، ثمَّ إنَّه رضي الله عنه كان يُكثر من الدعاءِ لَها ـ بعد هدايتها ـ بالرحمة والمغفرة.

روى البخاري في الأدب المفرد عن أبي مرَّة مولى أمِّ هانئ بنت أبي طالب: أنَّه ركب مع أبي هريرة إلى أرضه بالعقيق، فإذا دخل أرضَه صاح بأعلى صوتِه: عليكِ السلامُ ورحمةُ الله وبركاتُه يا أمَّتاه، تقول: وعليكَ السلام ورحمة الله وبركاته، يقول: رَحِمَكِ الله كما ربَّيتِنِي صغيراً، فتقول: يا بُني، وأنت جزاك الله خيراً ورضي عنك كما بررتني كبيراً »[1].

وروى أيضاً عن محمد بن سيرين قال: « كنَّا عند أبي هريرة ليلة فقال: اللَّهمَّ اغفر لأبي هريرة ولأمِّي، ولِمَن استغفر لهما، قال محمد بن سيرين: فنحن نستغفر لهما حتى ندخل في دعوة أبي هريرة »[2].

ودعاء الولدِ لوالديه ينفعهما بعد موتهما حيث ينقطع عملُهما في هذه الحياة، فقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: « إذا مات الإنسانُ انقطع عملُه إلاَّ من ثلاث: صدقة جارية، أو علمٍ يُنتفع به، أو وَلَدٍ صالح يدعو له »[3].

وروى البخاري في الأدب المفرد بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله

(١) الأدب المفرد (رقم:١٤)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الأدب المفرد (رقم:١١).
(٢) الأدب المفرد (رقم:٣٧)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الأدب المفرد (رقم:٢٨).
(٣) صحيح مسلم (رقم:١٦٣١).

عنه قال: « تُرفع للميِّت بعد موته درجتُه، فيقول: أيْ ربِّ، أيُّ شيءٍ هذه؟ فيُقال: ولدُك استغفرَ لك »[١].

وإذا كان الدعاءُ للوالدين بالرحمة والمغفرَة بِرًّا وإحساناً وحقًّا ينبغي على الابن أن يعتني به، فإنَّ مِن أعظمِ الإثمِ ومِن كبائرِ الذنوب أن يَسُبَّ ـ والعياذ بالله ـ الولدُ والديه، سواء ابتداء ـ وهو أشدُّ ـ أو تسبُّباً، ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال النبيُّ ﷺ: « إنَّ مِن أكبرِ الكبائرِ أن يلعنَ الرَّجلُ والديه. قيل: يا رسول الله، وكيف يَلعنُ الرَّجلُ والِدَيه؟ قال: يسبُّ الرَّجلُ أبا الرَّجلِ، فيسُبُّ أباه ويسُبُّ أُمَّه »[٢].

وفي الأدب المفرد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: « من الكبائر عند الله أن يستسبَّ الرجل لوالده »[٣].

وثبت في صحيح مسلم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: « لعن اللهُ مَن لعن والديه »[٤].

ومثلُ هذا لا يكون إلاَّ مِن ذوي النفوس الدنيئة والأخلاق الرديئة، نسأل الله الحفظ والعافية، ونسأله سبحانه أن يغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات إنَّه غفور رحيم.

---

(١) الأدب المفرد (رقم:٣٦)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الأدب المفرد (رقم:٢٧).

(٢) صحيح البخاري (رقم:٥٩٧٣)، وصحيح مسلم (رقم:٩٠).

(٣) الأدب المفرد (رقم:٢٨)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الأدب المفرد (رقم:٢٢).

(٤) صحيح مسلم (رقم:١٩٧٨).

* * *

١٠٣ ـ الدعاء لولاة أمر المسلمين

إنَّ الدعاءَ بالخيرِ والمغفرةِ لعموم المسلمين له شأنٌ عظيمٌ، ويترتَّبُ عليه أجورٌ كثيرة، وخيرات متنوِّعة في الدنيا والآخرة، وهو من مقتضيات أخوَّة الإيمان التي تجمعهم وتربطهم، وقد سبق ذكرُ بعضِ الأدلَّة على ذلك، أمَّا الحديث هنا فسيكون خاصًّا بالدعاء لولاة أمر المسلمين الذين بهم ـ بتوفيقٍ من الله ـ تنتظم مصالحهم، وتجتمع كلمتهم، وتؤمن سبلهم، وتُقام صلاتُهم، ويُجاهد عدوهم، وبدونهم تتعطَّل الأحكام، وتعمُّ الفوضى، ويختلُّ الأمنُ، ويكثر السلبُ والنهبُ وأنواع الاعتداء، وينثلمُ صرحُ الإسلام، ولا يأمن الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « يجب أن يُعرف أنَّ ولايةَ أمر الناسِ من أعظمِ واجبات الدِّينِ، بل لا قيام للدِّين إلاَّ بها، فإنَّ بني آدم لا تتمُّ مصلحتُهم إلاَّ بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بدَّ لهم عند الاجتماع من رأس ... ـ إلى أن قال ـ: ولأنَّ اللهَ تعالى أوجب الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكرِ، ولا يتمُّ ذلك إلاَّ بقوَّةٍ وإمارةٍ، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحجِّ والجُمَع والأعيادِ ونصر المظلومِ وإقامة الحدود لا تتمُّ إلاَّ بالقوَّة والإمارة ...
ـ إلى أن قال ـ: فالواجبُ اتِّخاذُ الإمارةِ ديناً وقُربةً يُتقرَّبُ بها إلى الله، فإنَّ التقرُّبَ إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات »[1].

ومِن هنا فإنَّه يتأكَّد على كلِّ مسلم أن يكون ناصحاً لِمَن وليَ أمرَه،

(١) السياسة الشرعية (ص:١٦١ ـ ١٦٢).

مطيعاً له بالمعروف، غير مبطنٍ لشرٍّ أو غِشٍّ أو خديعة؛ لمنافاة ذلك لهدي الإسلام، وما دعا إليه الرسول عليه الصلاة والسلام، قال الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ}**[(١)].

روى مسلم في صحيحه عن تميم بن أوس الداريِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « الدِّينُ النصيحةُ، قالوا: لِمَن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمَّةِ المسلمين وعامَّتهم »[(٢)].

وثبت في صحيح مسلم أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: « إنَّ اللهَ يرضى لكم ثلاثاً: أن تعبدوه لا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا، وأن تُناصِحوا مَن ولاَّه اللهُ أمرَكم »[(٣)].

وفي السنن من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وزيد بن ثابت رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: « نضَّر الله امرأً سمع منَّا حديثاً فبلَّغه إلى مَن لَم يسمعه، فرُبَّ حامل فقه إلى مَن هو أفقه منه، ورُبَّ حامل فقه غير فقيه، ثلاثٌ لا يغلُّ عليهنَّ قلبُ مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين، فإنَّ دعوتَهم تحيط من ورائهم »[(٤)].

---

(١) سورة النساء، الآية: (٥٩).

(٢) صحيح مسلم (رقم:٥٥).

(٣) صحيح مسلم (رقم:١٧١٥)، ورواه أحمد (٢/ ٣٢٧، ٣٦٠)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم:٤٤٢)، وابن حبان في صحيحه (رقم:٤٥٦٠)، وسقط من أصل مسلم الخصلة الثالثة المأمور بها.

(٤) سنن الترمذي (رقم:٢٦٥٨)، وسنن ابن ماجه (رقم:٢٣٠)، وصححه العلامة =

وما مِن ريبٍ أنَّ من النصحِ لولاةِ أمر المسلمين الدعاءَ لهم بالتوفيق والسدادِ والصلاحِ والمعافاةِ، فهُم أوْلَى مَن يُدعى له بذلك؛ لأنَّ صلاحَهم صلاحٌ للأمَّة، وسدادَهم نفعُه عائدٌ عليهم وعلى المسلمين، فالدعاءُ لهم من أهمِّ الدعاءِ وأكثرِه عائدة ونفعاً، ولهذا قال الإمام الفُضيلُ بنُ عياض رحمه الله: « لو كانت لي دعوةٌ مستجابةٌ لَم أجعلها إلاَّ في إمام؛ لأنَّه إذا صلح الإمامُ أمن البلاد والعباد »[1].

وهذا من تمام فقهه وحسنِ فهمِه، ولهذا قال عبد الله بن المبارك رحمه الله معلِّقاً على كلمته هذه: « يا معلِّم الخير من يجتري على هذا غيرُك ».

يقصِد أنَّ الفضيلَ لَم يُرِد أن يخصَّ نفسَه بالدعوة المستجابة لو كانت له، بل أراد أن يجعلها لِمَن يعمُّ نفعُه إذا صلُح وهو السلطان.

وقد نُقل أيضاً عن الإمام أحمد رحمه الله نحوُ كلمة الفضيل المتقدِّمة، قال أبو بكر المروزي: سمعتُ أبا عبد الله ـ يعني أحمدَ بنَ حنبل ـ وذَكَر المتوكِّلَ رحمه الله فقال: إنِّي لأدعو له بالصلاحِ والعافية »[2].

ولهذا تكاثرت النقول عن أهلِ السنة والجماعة في تقرير هذا في ضمن ما كتبوه في بيان المنهج الحقّ والمعتقَدِ السليم الذي ينبغي أن يكون عليه كلُّ مسلم، ومِن ذلك قولُ الإمام أبي جعفر الطحاوي رحمه الله: « ولا نرى الخروجَ على أئمَّتِنا وولاةِ أمورِنا وإن جاروا، ولا ندعوا عليهم ولا ننزعُ يداً

الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (رقم:٦٧٦٦).

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٩١)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١/ ١٩٧).

(٢) رواه الخلال في السنة (رقم:١٦).

من طاعتهم، ونرى طاعتَهم من طاعة الله عزَّ وجلَّ فريضة، ما لَم يأمروا بمعصية، وندعوا لهم بالصلاح والمعافاة »[١].

وقال شيخ الإسلام أبو عثمان الصابوني رحمه الله: « ويرى أصحابُ الحديث الجمعةَ والعيدين وغيرَهما من الصلوات خلف كلّ إمام، برًّا كان أو فاجراً، ويرون جهادَ الكفرةِ معهم، وإن كانوا جوَرة فجَرة، ويرون الدعاءَ لهم بالإصلاح والتوفيق والصلاح وبسط العدل في الرعيَّة »[٢].

وقال الإمام الحافظ أبو بكر الإسماعيلي: « ويرون ـ أي أهل السنة ـ الصلاةَ، والجمعة وغيرها خلف كلِّ إمام مسلم بَرًّا كان أو فاجراً ... ويرون الدعاءَ لهم بالصلاح والعطفِ إلى العدل »[٣]. والنقول عن السلف في هذا المعنى كثيرة.

ويجب على المسلم أن يحذرَ أشدَّ الحذر من سبِّ الولاةِ والوقيعة فيهم وعدم الدعاء لهم بالخير، والدعاءِ عليهم بالشرِّ، روى ابن أبي عاصم في السنة ـ وصححه الألباني ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: « نهانا كبراؤنا من أصحاب محمد ﷺ قالوا: قال رسول الله ﷺ: لا تسبُّوا أمراءَكم ولا تغشُّوهم ولا تبغضوهم، واتَّقوا اللهَ واصبروا فإنَّ الأمرَ قريبٌ »[٤].

وقال ابن عبد البر رحمه الله في كتابه التمهيد: « إن لَم يكن يتمكن نصحُ السلطان، فالصبر والدعاء، فإنَّهم كانوا ـ أي الصحابة ـ ينهون عن سبِّ

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص:٤٢٨).
(٢) عقيدة السلف (ص:١٠٦).
(٣) اعتقاد أهل السنة (ص:٥٥ ـ ٥٦).
(٤) السنة (ص:٤٨٨).

الأمراء »، ثمَّ ساق بسنده حديث أنس المتقدِّم[1].

وكان السلف رحمهم الله يعدُّون الاشتغال بسبِّ الولاةِ والدعاءِ عليهم مِن الأمور المحدَثة، وفي ذلك يقول الإمام الحسن بن علي البربهاري رحمه الله: « إذا رأيت الرجلَ يدعو على السلطان فاعلم أنَّه صاحبُ هوى، وإذا سمعتَ الرجلَ يدعو للسلطان بالصلاح فاعلم أنَّه صاحبُ سنَّة إن شاء الله تعالى »[2].

وقد سئل سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله عمَّن يمتنع عن الدعاء لولاة الأمر فقال: « هذا مِن جهله وعدم بصيرتِه، الدعاءُ لوليِّ الأمر من أعظم القُربات وأفضل الطاعات، ومن النصيحة لله ولعباده ... »، إلى آخر كلامه رحمه الله وغفر له وجعل منزلته في الجنَّة الفردوس الأعلى، كما نسأله سبحانه أن يُصلح لنا شأننا كلَّه، وأن يُوفِّقنا لكلِّ خير يُحبُّه في الدنيا والآخرة، وأن يُصلح ولاةَ أمرِنا، وأن يهديَنا وإيَّاهم إليه صراطاً مستقيماً.

---

(١) التمهيد (٢١/ ٢٨٧).

(٢) شرح السنة (ص:١١٣).

١٠٤ ـ أقسام الدعاء باعتبار المدعو له

لا يزال الحديثُ موصولاً في بيان فضل دعاء المسلم لإخوانه المسلمين الذي هو من مقتضيات أخوة الإسلام التي تجمعهم، ورابطة الدين التي تربطهم، كما قال الله تعالى: {**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**}[1]، وقال تعالى: {**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**}[2]، وما من ريبٍ أنَّ من متطلَّبات هذه الأخوة ومقتضياتها الدعاءَ من كلِّ فردٍ من أفراد المسلمين لعموم المسلمين بالخير والعافية والمغفرة والرحمة ونحو ذلك؛ إذ المسلمُ يُحبُّ لإخوانه ما يُحبُّه لنفسه من الخير، كما قال ﷺ: « لا يؤمن أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه »[3]، وقد سبق أن مرَّ معنا جملةٌ من الأدلَّة الدَّالةِ على فضل الدعاءِ للغيرِ، وعظم ما يترتب على ذلك من الأجر والثواب والخير.

وممَّا يحسن أن يُعلم في هذا المقامِ أنَّ كلَّ دعاءٍ يدعو به المسلمُ لا يخلو من أقسامٍ أربعة، وذلك باعتبار المدعو له:

أحدها: أن يدعوَ المسلمُ لنفسه بما يشاء من خيري الدنيا والآخرة، كأن يقول: « اللَّهمَّ إنِّي أسألكَ الهدى والسداد »، أو يقول: « اللَّهمَّ إنِّي أسألك الهدى والتُّقى والعفافَ والغنى »، أو يقول: « اللَّهمَّ اغفر لي ذنبي »، ونحو ذلك من الأدعية، فيأتي بها بلفظ الإفراد، حتى الإمام في الصلاة في الأدعية التي يدعو بها لنفسه في السجود أو في الجلسة بين السجدتين، أو في آخر

(١) سورة التوبة، الآية: (٧١).
(٢) سورة الحجرات، الآية: (١٠).
(٣) صحيح البخاري (رقم:١٣)، وصحيح مسلم (رقم:٤٥).

الصلاة قبل السلام.

قال ابن القيم رحمه الله: « والمحفوظ في أدعيته كلِّها بلفظ الإفراد، كقوله: « ربِّ اغفر لي وارحمني واهدني »[١]، وسائر الأدعية المحفوظة عنه، ومنها قوله في دعاء الاستفتاح: « اللَّهمَّ اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبَرَد، اللَّهمَّ باعِد بيني وبين خطاياي كما باعدتَ بين المشرق والمغرب »، الحديث[٢]، وروى الإمام أحمد وأهل السنن من حديث ثوبان عن النبيِّ ﷺ: « لا يؤُمُّ عبدٌ قوماً فيخصُّ نفسَه بدعوةٍ دونهم، فإن فعل فقد خانهم »[٣] ... ثمَّ قال ابن القيم رحمه الله: سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: هذا الحديث عندي في الدعاء الذي يدعو به الإمام لنفسه وللمأمومين، ويشتركون فيه، كدعاء القنوت ونحوه »[٤].

ثمَّ إنَّه إذا كان الدعاءُ الذي دعا به في صلاته من أدعية القرآن الكريم فإنَّه يأتي به على الصيغة التي وردت في القرآن الكريم، كقوله تعالى: {**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**}، فهذا دعاءٌ عظيمٌ يدعو به المسلم في صلاته، بل في كلِّ ركعة من ركعات الصلاة، ووجهُ الإتيان بصيغة ضمير الجمع في هذا الدعاء ـ كما بيَّن ذلك ابن القيم رحمه الله ـ ليكون مطابقاً لقوله تعالى: {**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**

(١) صحيح مسلم (رقم:٢٦٩٦).
(٢) صحيح البخاري (رقم:٧٤٤)، وصحيح مسلم (رقم:٥٩٥).
(٣) المسند (٥/ ٢٨٠)، وسنن أبي داود (رقم:٩٠)، وسنن الترمذي (رقم:٣٥٧)، وسنن ابن ماجه (رقم:٩٢٣)،وذكره العلامة الألباني رحمه الله في ضعيف سنن أبي داود (رقم:١٥).
(٤) زاد المعاد لابن القيم (١/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤).

{وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، « والإتيان بضمير الجمع في الموضعين أحسن وأفخم، فإنَّ المقامَ مقامُ عبودية وافتقار إلى الربِّ تعالى وإقرار بالفاقة إلى عبوديته واستعانته وهدايته، فأتى به بصيغة ضمير الجمع، أي: نحن معاشر عبيدك مُقرُّون لك بالعبودية »[١].

وأما القسم الثاني من أقسام الدعاء باعتبار المدعو له، فهو أن يدعو المسلم لغيره بالهداية أو المغفرة أو نحو ذلك، كقوله ﷺ في دعائه لأنس بنِ مالك رضي الله عنه: « اللَّهمَّ أَكْثِر مالَه وولدَه، وبارك له فيما رزقته »[٢]، وكقوله ﷺ في دعائه لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما: « اللَّهمَّ اجعله هادياً مهدياً، واهده واهدِ به »[٣]، وهذه تُعدُّ منقبةٌ عظيمةٌ لهذا الصحابيِّ الجليل، الذي هو خال المؤمنين، وكاتب وحي ربِّ العالمين، وأحد خلفاء المسلمين، وأول ملوكهم، وخير ملوكهم رضي الله عنه وأرضاه، ومن ذلك أيضاً قول النبيِّ ﷺ في دعائه له: « اللَّهمَّ علِّم معاويةَ الكتاب والحساب وَقِهِ العذاب »[٤].

القسم الثالث: أن يدعو لنفسه ولغيره، فيبدأ بالدعاء لنفسه أولاً ثمَّ يدعو لغيره؛ لحديث أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه: « أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا ذكر أحداً

---

(١) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٣٩).
(٢) صحيح البخاري (رقم:٦٣٧٨)، وصحيح مسلم (رقم:٢٤٨٠).
(٣) المسند (٤/ ٢١٦)، وسنن الترمذي (رقم:٣٨٤٢)، والطبقات الكبرى لابن سعد (٧/ ٢٩٢)، واللفظ له، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (رقم:١٩٦٩).
(٤) المسند (٤/ ١٢٧).

فدعا له بدأ بنفسه »، رواه الترمذي[١].

وفي القرآن الكريم من هذا النوع أمثلةٌ عديدةٌ، كقوله تعالى: {وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}[٢]، وقوله: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}[٣]، وقوله: {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ}[٤]، وهذا يقوله الداعي عندما يريد الدعاءَ لنفسه ولغيره، وأمَّا إن أراد الدعاءَ لغيره فقط، فلا يلزمه في هذه الحالة أن يدعو لنفسه، كما ورد مثلُ ذلك في كثير من أدعية النبي ﷺ كما تقدَّم معنا في دعائه ﷺ لأنسٍ، ودعائه لمعاوية رضي الله عنهما.

القسم الرابع: أن يدعو لنفسه ولغيره بضمير الجمع، كما في دعاء القنوت، ودعاء الاستسقاء، ودعاء الخطيب يوم الجمعة.

ومن ذلك ما رواه الترمذي وغيرُه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قلَّما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: « اللَّهمَّ اقسِم لنا من خشيتِك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتِك ما تبلِّغنا به جنَّتك، ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصائب الدنيا، اللَّهمَّ متِّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوَّتنا ما أحييتنا، واجعله الوارثَ منَّا، واجعل ثأرنا على مَن ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مُصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبرَ همِّنا، ولا مبلغَ علمِنا، ولا تسلِّط علينا من لا

---

(١) سنن الترمذي (رقم:٣٣٨٥).

(٢) سورة محمد، الآية: (١٩).

(٣) سورة نوح، الآية: (٢٨).

(٤) سورة إبراهيم، الآية: (٤١).

يرحمنا »[١]، فهذه أقسامٌ أربعة للدعاء باعتبار المدعو له.

ويُستحبُّ للمسلم أن يدعوَ لِمَن أحسن إليه، ولا سيما قولُ جزاك الله خيراً، فإنَّها أبلغ ما يكون في الدعاء، لِما ثبت في المسند عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: « مَن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لَم تجدوا ما تكافؤونه به فادعو له حتَّى تروا أنَّكم قد كافأتموه »[٢]، وفي الترمذي عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « مَن صُنع إليه معروفٌ فقال لفاعلِه: جزاك الله خيراً فقد أبلغَ في الثناء »[٣]، والحمد لله ربِّ العالَمين.

* * *

(١) سنن الترمذي (رقم:٣٥٠٢).

(٢) المسند (٢/ ٦٨، ٩٩)، والأدب المفرد (رقم:٢١٦)، وصححه الألباني رحمه الله في الصحيحة (رقم:٢٥٤).

(٣) سنن الترمذي (رقم:٢٠٣٥)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (رقم:٦٣٦٨).

١٠٥ ـ خطورة الدعاء على النفس أو الغير

إنَّ من الأمور المهمة التي ينبغي أن يراعيها المسلم في دعائه أن يكون متبصِّراً بما يدعو به ويطلبُه من ربِّه سبحانه وتعالى، غيرَ مستعجل ولا متسرِّع فيما يطلب ويسأل، بل ينبغي أن يتدبَّر في أموره حقَّ التدبُّر؛ ليتحقق ما هو خير حقيقٌ بالدعاء به، وما هو شرٌّ جدير بالاستعاذة منه، وذلك أنَّ كثيراً من الناس عند غضبه وتضجُّره وحصولِ الأمور المزعجة له قد يدعو على نفسه أو ولده أو ماله بما لا يسرُّه تحقُّقُه وحصولُه، وهذا ناشىء عن تسرُّع الإنسان وعجلتِه وعدم نظره في العواقب، يقول الله تعالى: {**وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً**}[١]، أي: يُسارعُ إلى طلبِ ما يخطرُ بباله، متعامياً عن ضرره وسوء عواقبه، وإنَّما يَحمِلُ الإنسانَ على ذلك عجَلتُه وقَلقُه، ولهذا قال تعالى: {**وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً**}.

وإنَّ من أبلغ ما يكون خطراً وأشدّ ما يكون ضرراً في هذا المقام الدعاءَ على النفس بالهلاك أو العذاب أو دخول النار أو الحرمان من دخول الجنة أو نحو ذلك، وهذا لا يفعله إلاَّ مَن بلغ الغايةَ في السَّفَهِ والنهايةَ في الغيِّ، كما حكى الله ذلك عن الكفار المعرضين عن دعوة الرسُل المعارضين لدعوتهم، كقولهم: {**اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**}[٢]، وقولهم: {**فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**}[٣]، إلى غير ذلك مِمَّا حكى الله عنهم، مما يدلُّ على تمام جهلهم،

(١) سورة الإسراء، الآية: (١١).
(٢) سورة الأنفال، الآية: (٣٢).
(٣) سورة الأعراف، الآية: (٧٠).

وعِظم غيِّهم وسَفَهِهم، وشدَّةِ إعراضِهم وصدودهم.

وقوله تعالى: {**وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً**}[١] يحتَمل أنَّ المرادَ بالإنسان القائل هذه المقالة هو الكافرُ، أي: يدعو على نفسه بالشرِّ والهلاك واستعجالِ العقوبة والعذاب دعاءَه بالخير، كما تقدَّمت الأمثلة على ذلك.

ويَحتمل أنَّ المرادَ بالإنسان هنا الجنس؛ لوقوع هذا الدعاء من بعض أفراده، وهو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر والغضب بما لا يحبُّ أن يُستجاب له فيه[٢].

قال ابن كثير رحمه الله في معنى الآية: « يخبر تعالى عن عجلةِ الإنسانِ ودعائِه في بعض الأحيان على نفسه أو ولدِه أو ماله بالشرِّ، أي بالموت أو الهلاك أو الدَّمار أو اللعنة أو نحوِ ذلك، فلو استجاب له ربُّه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: {**وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ**}[٣] ... »[٤].

وقد جاء في هذا المعنى آثار عديدة عن السلف، منها ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « قوله: {**وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً**}[٥] يعني قول الإنسان: اللَّهم الْعَنه واغضب عليه، فلو

---

(١) سورة الإسراء، الآية: (١١).
(٢) انظر: فتح القدير للشوكاني (٣/ ٢١١).
(٣) سورة يونس، الآية: (١١).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٥ ـ ٤٦).
(٥) سورة الإسراء، الآية: (١١).

يُعجِّل له ذلك كما يُعجِّل له الخيرَ لَهلك ».

وقال قتادة في معنى الآية: « أي: يدعو على ماله فيلعن مالَه وولدَه، ولو استجاب الله له لأهلكه ».

وقال مجاهد: « ذلك دعاءُ الإنسانِ بالشرِّ على ولده وعلى امرأته، فيَعْجَل فيدعو عليه، ولا يُحبُّ أن يصيبَه ». أخرج هذه الآثار ابنُ جرير في تفسيره[(١)].

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن الحسن قال: « ذلك دعاءُ الإنسان بالشرِّ على ولدِه وعلى امرأتِه، يغضب أحدهم فيدعو عليه، فيسبُّ نفسَه ويسبُّ زوجتَه ومالَه وولدَه، فإن أعطاه الله ذلك شقَّ عليه، فيمنعُه ذلك، ثمَّ يدعو بالخير فيعطيه »[(٢)].

ومِن رحمة الله بعباده أنَّه لا يستجيب لهم في دعائهم بالشرِّ حال غضبهم وضجرِهم كاستجابته لهم في دعائهم بالخير؛ رحمة منه وإحساناً، كما قال تعالى: **{وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}**[(٣)].

قال ابن كثير رحمه الله: « يُخبر تعالى عن حلمِه ولُطفِه بعباده أنَّه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو لأموالهم أو أولادهم في حال ضجرهم وغضبهم، وأنَّه يعلم منهم عدمَ القصد إلى إرادة ذلك، فلهذا لا

---

(١) جامع البيان (٩/ ٤٧ ـ ٤٨).

(٢) انظر: الدر المنثور (٥/ ٢٤٦).

(٣) سورة يونس، الآية: (١١).

يستجيب لهم والحالة هذه لطفاً ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو أموالهم وأولادهم بالخير والبركة والنماء، ولهذا قال: {**وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ**}، أي: لو استجاب لهم كلَّما دعوه به في ذلك لأهلَكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك »[1].

فالواجب على المسلم أن يحذرَ تمام الحَذَر ولا سيما حال غضبه وتضجره من أن يدعو على نفسه أو ماله أو ولده باللعنة أو العذاب أو النار أو نحو ذلك مما لا يسرُّه تحقُّقُه، وذلك أنَّ مقصودَ الدعاء جلبُ النفع ودفعُ الضرِّ، وأما الدعاءُ على النفس أو المال أو الولد فليس فيه أيُّ منفعة، بل هو ضررٌ محضٌ ووبالٌ وهلاكٌ.

روى مسلم في صحيحه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه في حديث طويل عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: « سِرنا مع رسول الله ﷺ في غزوة بَطْن بُواطٍ، وهو يطلب المَجْدِيَّ بنَ عمرو الجُهنيَّ، وكان الناضحُ [وهو البعير الذي يُستقى عليه] يعقُبُه منَّا الخمسةُ والستةُ والسبعةُ، فدارت عُقبةُ رجل من الأنصار على ناضحٍ له [أي جاءت نوبتُه في الركوب]، فأناخه فركبه ثمَّ بعثه، فتَلَدَّن عليه بعض التلدن [أي تلكأ وتوقَّف] فقال له: شَأْ لعنَك الله، فقال رسول الله ﷺ: مَن هذا اللاَّعِن بعيرَه؟ قال: أنا يا رسول الله، قال: انزل عنه، فلا تصحبنا بملعونٍ، لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم،

ولا تدعوا على أموالكم، لا تُوافقوا من الله ساعةً يُسألُ فيها عطاءٌ فيستجيبُ

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٨٨).

لكم »[١].

وفي هذا الحديث دلالةٌ على أنَّ ذلك قد يُستجاب، لقوله ﷺ: « لا تُوافقوا من الله ساعةً يُسألُ فيها عطاءٌ فيستجيبُ لكم »، وثبت في الحديث عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: « ثلاث دعوات مستجابات: دعوةُ المظلوم، ودعوةُ المسافر، ودعوة الوالد على ولدِه »، رواه أبو داود، والترمذي، وغيرُهما بإسناد صحيح[٢].

ولهذا ينبغي على المسلم أن يُعوِّدَ نفسَه الدعاءَ لنفسه وولدِه ومالِه بالخير والنماءِ والبركةِ والصلاحِ ونحوِ ذلك، وأن يملكَ نفسه ولا سيما عند غضبه من أن يدعو على نفسه أو ولده أو ماله بالهلاك أو الشرِّ أو الفساد، فقد يُستجاب له في ذلك فيندمُ ويتحسَّرُ، مع أنَّه هو الذي دعا بذلك وطلبَه، وإنَّا لنرجو اللهَ أن يهدينا جميعاً سواء السبيل، وأن يوفِّقَنا لكلِّ خيرٍ يُحبُّه ويرضاه في الدينا والآخرة.

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٣٠٠٤).

(٢) سنن أبي داود (رقم:١٥٣٦)، وسنن ابن ماجه (رقم:٣٨٦٢)، وسنن الترمذي (رقم:١٩٠٥)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (رقم:٥٩٦).

١٠٦ ـ التوبةُ من الذنوب بين يدي الدعاء

سبقت الإشارةُ إلى أنَّ من آداب الدعاء العظيمة أن يُقدِّم الداعي بين يدي دعائه التوبةَ إلى الله عزَّ وجلَّ من كلِّ ذنبٍ وخطيئةٍ، فإنَّ تراكمَ الذنوب واجتماعها قد يكون سبباً من أسباب عدم إجابة الدعاء، كما أنَّ التوبةَ والإقبالَ على الله والصدقَ معه سببٌ من أسباب القبول والإجابة؛ ولهذا قال يحيى بنُ معاذ الرازيُّ رحمه الله: « لا تستبطئ الأجابةَ إذا دعوت وقد سَدَدتَ طرقَها بالذنوب »[١].

فالذنوب لها عواقب وخيمة ونتائجُ أليمة في الدنيا والآخرة، فهي تُزيل النِّعم وتحلُّ النِّقم، فما زالت عن العبد نعمةٌ إلاَّ بذنب، ولا حلَّت به نقمة إلاَّ بذنب، كما قال عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه: « ما نزل بلاءٌ إلاَّ بذنب، ولا رُفع إلاَّ بتوبة »[٢]، وقد قال الله تعالى: {**وَمَا أَصَابَكُمْ مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**}[٣]، وقال تعالى: {**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**}[٤]، فأخبر سبحانه أنَّه لا يُغيِّر نعمه التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يُغيِّر ما بنفسه، فيُغيِّر طاعةَ الله بمعصيته، وشكرَه بكفره، وأسبابَ رضاه بأسباب سخطه، فإذا غيَّرَ غُيِّر عليه جزاء وفاقاً.

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٥٤).
(٢) ذكره ابن القيم في الجواب الكافي (ص:٨٥).
(٣) سورة الشورى، الآية: (٣٠).
(٤) سورة الأنفال، الآية: (٥٣).

ثمَّ إنَّ الذنوبَ سببٌ لهوانِ العبد على ربِّه، وإذا هان العبدُ على الله لَم يكرمه أحد، كما قال تعالى: {**وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُكْرِمٍ**}[1]، وأكرمُ الخلق عند الله أتقاهم له، وأقربُهم منه منزلة أطوعُهم له، وعلى قدر طاعة العبدِ تكون منزلته عنده، فإذا عصاه هان عنده، وأوجب ذلك القطيعةَ بين العبد وبين مولاه، وإذا وقعت القطيعةُ انقطعت عن العبد أسبابُ الخير واتصلت به أسبابُ الشرِّ، فأيُّ فلاح، وأيُّ رجاء، وأيُّ عيش لِمَن انقطعت عنه أسبابُ الخير وقُطع ما بينه وبين وليِّه ومولاه الذي لا غنى له عنه طرفةَ عين ولا أقل من ذلك.

ثمَّ إنَّ الذنوبَ تستدعي نسيانَ الله لعبدِه وتركَه وتخليتَه بينه وبين نفسه وشيطانه، وهناك الهلاكُ الذي لا يُرجى معه نجاة، قال الله تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ**}[2]، فأمر سبحانه بتقواه ونهى أن يتشبَّه عبادُه المؤمنون بِمَن نسيَه بتركِ تقواه، وأخبر أنَّه عاقب مَن ترك التقوى بأن أنساه نفسه، أي: أنساه مصالحَها وما يُنجيها من عذابه، فترى العاصي مهمِلاً مصالح نفسه، مضيِّعاً لها، قد انفرطت عليه مصالحُ دينه ودنياه، بل إنَّ أمورَه تتعسَّرُ عليه، فلا يتوجَّه لأمرٍ إلاَّ يجده مُغلَقاً دونَه أو متعسِّراً عليه، وهذا كما أنَّ مَن اتَّقى اللهَ جعلَ له من أمرِه يُسراً، فمَن عطَّل التقوى جعل له من أمرِه عُسراً، فالخيرُ

(١) سورة الحج، الآية: (١٨).
(٢) سورة الحشر، الآيات: (١٨ ، ١٩).

والراحةُ والسعادةُ والطمأنينةُ في الطاعةِ، والشرُّ والشقاوةُ والتعسيرُ في المعصية.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: « إنَّ للحسنة ضياءً في الوجه، ونوراً في القلبِ، وسعةً في الرزق، وقوةً في البَدن، ومحبةً في قلوب الخلق، وإنَّ للسيِّئةِ سواداً في الوجه، وظُلمةً في القلب، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضةً في قلوب الخَلق »[١].

وعلى كلٍّ فالذنوبُ تُحدِثُ للعبدِ أضراراً كثيرةً في قلبه وبدنه ومالِه وحياته كلِّها، فليس في الدنيا شرٌّ وداءٌ إلاَّ سببُه الذنوبُ والمعاصي، ولها من الآثار القبيحة والنتائج المذمومةِ والمضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلاَّ الله[٢].

ولهذا فإنَّ الواجبَ على كلِّ مسلمٍ أن يحذرَ أشدَّ الحذَر من الذنوب والمعاصي، وأن يتوبَ إلى الله عزَّ وجلَّ من كلِّ ذنبٍ وخطيئة، وأن ينيبَ إلى ربِّه ومولاه لينالَ السعادةَ والطمأنينةَ وليتحقق له الفلاحُ في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: {**وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**}[٣]، فلا سبيل إلى الفلاح إلاَّ بالتوبة، وهي الرجوعُ ممَّا يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبُّه ظاهراً وباطناً، ولهذا فإنَّ التوبةَ واجبةٌ ومتعيِّنةٌ على كلِّ مسلم ومسلمة، والأدلةُ على وجوبها متظاهرة في الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة.

قال الله تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى**

---

(١) ذكره ابن القيم في الجواب الكافي (ص:٦٢).
(٢) انظر: الجواب الكافي لابن القيم (ص:٤٦ ـ ١٠٥).
(٣) سورة النور، الآية: (٣١).

رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ}[١].

وروى مسلم في صحيحه عن الأغر بن يَسَار المُزنيِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « يا أيُّها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنِّي أتوب في اليوم مائة مرَّة »[٢].

قال النووي رحمه الله في كتابه العظيم رياض الصالحين: « قال العلماءُ: التوبةُ واجبةٌ مِن كلِّ ذنبٍ، فإن كانت المعصيةُ بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلَّق بحقِّ آدميٍّ فلها ثلاثةُ شروط: أحدها: أن يُقلعَ عن المعصية، والثاني: أن يندم على فعلِها، والثالث: أن يعزمَ أن لا يعودَ إليها أبداً، فإن فُقدَ أحدُ الثلاثة لَم تصحَّ توبتُه.

وإن كانت المعصيةُ تتعلَّق بآدميٍّ فشروطُها أربعةٌ: هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حقِّ صاحبِها، فإن كانت مالاً أو نحوَه ردَّه إليه، وإن كان حدّ قذف ونحوه مكّنه منه أو طلب عفوه، وإن كانت غيبةً استحلَّه منها، ويجب أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضِها صحَّت توبتُه عند أهل الحقِّ من ذلك الذنب، وبقيَ عليه الباقي، وقد تظاهرت دلائلُ الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة »[٣]، ثمَّ ساق رحمه الله جملةً من أدلَّةِ الكتاب والسنة الدَّالَّةِ على ذلك.

---

(١) سورة التحريم، الآية: (٨).

(٢) صحيح مسلم (٤/ ٢٠٧٦).

(٣) رياض الصالحين (ص:٧).

فحريٌّ بالمسلم أن يكون تائباً إلى ربِّه، منيباً إليه؛ لترتفعَ درجاتُه، وتُقال عثراتُه، وتُقبل دعواتُه، وتعلو منزلتُه عند ربِّه، وإنَّا لنرجو اللهَ أن يكتبَ لنا توبةً نصوحاً، وأن يوفِّقنا لكلِّ خيرٍ يُحبُّه ويرضاه.

❋ ❋ ❋

١٠٧ ـ المبادرة إلى التوبة والنصح فيها

تقدَّم الحديثُ عن التوبةِ إلى الله عزَّ وجلَّ وأهميَّتِها، وشدَّةِ حاجة العبد إليها ليتحقَّقَ فلاحُه، وليظفرَ بسعادة الدنيا والآخرة، وحقيقةُ التوبة الرجوعُ إلى الله بالتزام ما يُحبُّ وتركِ ما يكره، فهي رجوعٌ من مكروه إلى محبوبٍ، فهي تتضمَّنُ أمرين: تركٌ للذنوب وندمٌ على فعلها وعزمٌ على عدم العودة إليها، وإقبالٌ على الطاعة، والتزامٌ بها، وعزمٌ على الاستقامة عليها، ولهذا علَّق الله سبحانه الفلاحَ المطلقَ على فعل ذلك بقوله: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[١]، فكلُّ تائبٍ مفلحٌ، ولا يكون مفلحاً إلاَّ إذا أتى بالأمرين معاً، فإن أخَلَّ بذلك بأن ارتكب المحظور أو ترَكَ المأمور نقص حظُّه ونصيبُه من الفلاح بحسب ذلك، وكان بتركِه للمأمور وفعلِه للمحظور ظالماً لنفسه بحسب ذلك، والله يقول: ﴿**وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[٢]، فتاركُ المأمور ظالمٌ لنفسه، كما أنَّ فاعلَ المحظورِ ظالمٌ لها، وزوال اسم الظلمِ عنه إنَّما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين.

ولهذا فإنَّ التوبةَ جامعةٌ لشرائعِ الإسلام وحقائقِ الإيمان، والدِّينُ كلُّه داخلٌ في مسمَّاها، وبهذا استحقَّ التائبُ أن يكون حبيبَ الله، فإنَّ اللهَ يُحبُّ التوَّابين ويُحبُّ المتطَّهرين[٣]، بل لقد ثبت في الحديث عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: « لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلتِه بأرضِ

(١) سورة النور، الآية: (٣١).

(٢) سورة الحجرات، الآية: (١١).

(٣) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٣٠٥ ـ ٣٠٧).

فلاةٍ، فانفلتت منه، وعليها طعامُه وشرابُه، فأيس منها، فأتى شجرةً، فاضطجع في ظلِّها، قد أيسَ من راحلتِه، فبينما هو كذلك، إذ هو بها قائمةً عنده، فأخذ بِخِطامها، ثمَّ قال ـ من شدَّةِ الفرَح ـ: اللَّهمَّ أنت عبدي وأنا ربُّك، أخطأ من شدَّةِ الفرح »، رواه مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه[1].

ولا ينبغي للمسلم أن يُؤخِّرَ التوبةَ ويُؤجِّلَها ويسوِّف فيها، بل الواجبُ المبادرةُ والمسارعةُ، فإنَّ المرءَ لا يدري ما يَعرِضُ له في هذه الحياة، ولا يزالُ بابُ التوبةِ مفتوحاً للعبدِ ما لَم يُغرْغِر، قال الله تعالى: {**وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ**}[2]، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما يقول رسول الله ﷺ: « إنَّ اللهَ تعالى يقبلُ توبةَ العبدِ ما لَم يُغَرْغِر »[3]، أي: ما لَم تبلغ روحُه حلقومَه.

وكذلك لا يقبل الله توبةَ العبد إذا طلعت الشمس من مغربِها، ففي المسند للإمام أحمد وسنن أبي داود عن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تنقطعُ الهجرةُ حتى تنقطعَ التوبةُ، ولا تنقطعُ التوبةُ حتى تطلعَ الشمسُ من مغربِها »[4].

وروى الطبراني عن صفوان بن عسَّال رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «

(١) صحيح مسلم (رقم:٢٧٤٧).
(٢) سورة النساء، الآية: (١٨).
(٣) المسند (٢/ ١٣٢، ١٥٣).
(٤) المسند (٤/ ٩٩)، وسنن أبي داود (رقم:٢٤٧٩).

إنَّ للتوبةِ باباً عرضُ ما بين مِصراعَيْه ما بين المشرق والمغرب، لا يُغلقُ حتى تطلعَ الشمسُ من مغربِها »، حسَّنه الألباني رحمه الله[١].

ولهذا فإنَّ الواجبَ على الإنسانِ أن يُبادر إلى التوبةِ قبل فواتِ أوانها، وقبل أن يُحال بينه وبينها، ولا يجوز له تأخيرُها في أيِّ حال من الأحوال، بل إنَّ تأخيرها يُعدُّ معصيةً ينبغي أن يُتاب منها.

قال العلاَّمةُ ابنُ القيِّم رحمه الله: « إنَّ المبادرةَ إلى التوبةِ من الذنب فرضٌ على الفَور، ولا يجوز تأخيرُها، فمتى أخَّرَها عصى اللهَ بالتأخيرِ، فإذا تاب من الذنب بقيَ عليه توبةٌ أخرى، وهي توبتُه من تأخير التوبةِ، وقلَّ أن تخطُرَ هذه ببالِ التائبِ، بل عنده أنَّه إذا تاب من الذنب لَم يبق عليه شيءٌ آخر، وقد بقيَ عليه التوبةُ من تأخير التوبةِ، ولا يُنجي مِن هذا إلاَّ توبةٌ عامة، مِمَّا يَعلَمُ من ذنوبه ومِمَّا لا يَعلَم، فإنَّ ما لا يَعلمه العبدُ من ذنوبه أكثرُ مِمَّا يعلمه، ولا ينفعه في عدم المؤاخذة بها جهلُه إذا كان مُتمكِّناً من العلمِ، فإنَّه عاصٍ بترك العلمِ والعمل، فالمعصيةُ في حقِّه أشدُّ، وفي المسند للإمام أحمد، والأدب المفرد للبخاري أنَّ النبيَّ ﷺ قال: « الشركُ في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل، فقال أبو بكر: فكيف الخلاصُ منه يا رسول الله؟ قال: أن تقول: اللَّهمَّ إنِّي أعوذ
بك أن أُشركَ بك وأنا أعلمُ، وأستغفرُك لِما لا أعلم »[٢]، فهذا طلب الاستغفار مِمَّا يعلمه الله أنَّه ذنبٌ، ولا يعلمه العبدُ.

(١) المعجم الكبير (٨/ ٦٥) (رقم:٧٣٨٣)، وصحيح الجامع (رقم:٢١٧٧).
(٢) المسند (٤/٤٠٣)، والأدب المفرد (٧١٦)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الأدب (رقم:٥٥١).

وفي الصحيح عنه ﷺ: « أنَّه كان يدعو في صلاته: اللَّهمَّ اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به منّي، اللَّهمَّ اغفر لي جدِّي وهزلِي، وخطئي وعمدي، وكلُّ ذلك عندي، اللَّهمَّ اغفر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، وما أنت أعلمُ به منِّي، أنتَ إلهي لا إله إلاَّ أنتَ »[(١)].

وفي الحديث الآخر: « اللَّهمَّ اغفر لي ذنبي كلَّه، دِقَّه وجلَّه، خطأَه وعمدَه، سِرَّه وعلانيتَه، أولَه وآخرَه »[(٢)].

فهذا التعميم وهذا الشمولُ؛ لتأتي التوبةُ على ما علمَه العبدُ مِن ذنوبِه وما لَم يعلمه »[(٣)]. اهـ.

ولا ريبَ أنَّ هذا من النصحِ في التوبة المأمورِ به في قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾[(٤)]، وقد بيَّن ابن القيم رحمه الله أنَّ النصحَ في التوبةِ يتضمَّن ثلاثةَ أشياء:

الأول: تعميمُ جميعَ الذنوب واستغراقُها بها، بحيث لا تَدَعُ ذنباً إلاَّ تناولتْه.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليَّته عليها، بحيث لا يبقى عنده تردُّدٌ

(١) صحيح مسلم (رقم:٢٧١٩).
(٢) صحيح مسلم (رقم:٤٨٣)، وليس فيه: ((خطأ وعمده)).
(٣) مدارج السالكين (١/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣).
(٤) سورة التحريم، الآية: (٨).

ولا تلوُّمٌ ولا انتظارٌ، بل يجمع عليها كلَّ إرادته وعزيمتِه مبادراً بها.

الثالث: تخليصُها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصِها، ووقوعُها لمحضِ الخوفِ من الله وخشيتِه والرغبة فيما لديه والرهبة ممَّا عنده، لا كمَن يتوب لحِفظ جاهه وحُرمتِه ومنصِبه ورياستِه، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوَّته وماله، أو استدعاء حمدِ الناس، أو الهربِ من ذمِّهم، أو لئلاَّ يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسِه وعجزه، ونحوِ ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصِها لله عزَّ وجلَّ.

فالأول يتعلَّق بما يتوب منه، والثالث يتعلَّق بمَن يتوب إليه، والأوسطُ يتعلَّق بذات التائبِ ونفسِه[1]، وبهذه الأمورِ الثلاثة يكون العبدُ قد أتى بأكمل ما يكون من التوبةِ، والتوفيق بيد الله وحده، فنسأله أن يَمُنَّ علينا بالتوبة النصوح، وأن يهدينا سواء السبيل.

* * *

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ٣١٠).

١٠٨ ـ قرن التوبة بالاستغفار، وقرن الاستغفار بالتوحيد

لقد كان حديثُنا السابق عن التوبةِ وبيانِ فضلِها وعِظمِ شأنِها وشدَّةِ احتياجِ العبد إليها، وعن بعضِ الأحكام المتعلِّقةِ بها، وكثيراً ما تأتي التوبةُ في النصوصِ مقرونةً بالاستغفار، كقوله تعالى: {**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ**}[(١)]، وقول هود لقومه: {**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا**}[(٢)]، وقول صالح لقومه: {**هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ**}[(٣)]، وقول شعيب: {**وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ**}[(٤)].

وفي هذا دلالةٌ على عِظم التلازم بين الاستغفار والتوبة، وشدَّةِ احتياج العبد إليهما للوقاية من شرور الذنوب وغوائلها، والذنوب نوعان:

« ذنبٌ قد مضى، فالاستغفار منه: طلبُ وقايةِ شرِّه، وذنبٌ يُخاف وقوعُه، فالتوبة: العزمُ على أن لا يفعله، والرجوعُ إلى الله يتناول النوعين، رجوعٌ إليه ليقيَه شرَّ ما مضى، ورجوعٌ إليه ليقيَه شرَّ ما يستقبل من نفسه وسيِّئات أعماله.

وأيضاً فإنَّ المذنبَ بمنزلةِ مَن ركب طريقاً تؤدِّيه إلى هلاكه، ولا توصله

---

(١) سورة هود، الآية: (٣).

(٢) سورة هود، الآية: (٥٢).

(٣) سورة هود، الآية: (٦١).

(٤) سورة هود، الآية: (٩٠).

إلى المقصود، فهو مأمور أن يولِّيها ظهره، ويرجع إلى الطريقِ التي فيها نجاته، والتي توصله إلى مقصوده، وفيها فلاحه، فههنا أمران لا بدَّ منهما: مفارقة شيء والرجوع إلى غيره، فخُصَّت التوبةُ بالرجوعِ، والاستغفارُ بالمفارقةِ ... »[1].

أمَّا إذا أُفردت التوبةُ بالذِّكر أو أُفرد الاستغفار، فإنَّ كلَّ واحدٍ منهما يتناول معنى الآخر.

والاستغفار له شأنٌ عظيم ومكانةٌ عاليةٌ، فهو كما بيَّن شيخ الإسلام « يُخرج العبدَ من الفعلِ المكروه إلى الفِعلِ المحبوبِ، ومن العمل الناقصِ إلى العمل التامِّ، ويرفعُ العبدَ من المقام الأدنى إلى الأعلى منه والأكمل، فإنَّ العابدَ لله، والعارفَ بالله في كلِّ يوم، بل في كلِّ ساعة، بل في كلِّ لحظة يزدادُ علماً بالله وبصيرةً في دينه وعبوديَّتِه، بحيث يجدُ ذلك في طعامه وشرابه ونومِه ويَقَظتِه وقولِه وفعلِه، ويرى تقصيرَه في حضورِ قلبِه في المقامات العالية وإعطائِها حقّها، فهو يحتاج إلى الاستغفار آناء الليل وأطراف النهار، بل هو مضطَّرٌ إليه دائماً في الأقوال والأحوال، في الغوائب والمشاهد؛ لِما فيه من المصالحِ وجلب الخيرات ودفعِ المضرَّات، وطلب الزيادة في القوة في الأعمال القلبية والبدنية اليقينية الإيمانية »[2].

وممَّا يُبيِّن عِظَمَ شأن الاستغفار ورفيع مكانته أنَّه كثيراً ما يأتي في النصوص مقروناً مع كلمة التوحيد لا إله إلاَّ الله التي هي خيرُ الكلمات وأفضلُها وأجلُّها على الإطلاق، كقوله تعالى: {**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ**

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٣٠٨).
(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١١/ ٦٩٦).

وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}[١]، وقوله: {أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ}[٢]، وقوله: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ}[٣]، وقوله: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} إلى قوله: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ}[٤]، وكقوله ﷺ في كفَّارة المجلس:

« سبحانك اللَّهمَّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلاَّ أنت أستغفرك وأتوب إليك »[٥]، وكقوله ﷺ عقِب الانتهاء من الوضوء: « أشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، اللَّهمَّ اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين »[٦]، وكقوله ﷺ في دعائه الذي كان يختم به الصلاةَ: « اللَّهمَّ اغفر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، وما أنت أعلم به منِّي، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر
لا إله إلاَّ أنت »[٧]، والنصوصُ في هذا المعنى كثيرة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « وقد ثبتت دائرة الاستغفار بين

---

(١) سورة محمد، الآية: (١٩).

(٢) سورة هود، الآية: (٣).

(٣) سورة فصلت، الآية: (٦).

(٤) سورة هود، الآيات: (٥٠ ـ ٥٢).

(٥) سنن أبي داود (رقم:٤٨٥٧)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٤٤٨٧).

(٦) سنن الترمذي (رقم:٥٥)، وصححه الألباني رحمه الله في الإرواء (١/ ١٣٤).

(٧) صحيح مسلم (رقم:٧٧١).

أهل التوحيد، واقترانها بشهادة أن لا إله إلاَّ الله، مِن أولِّهم إلى آخرهم، ومن آخرهم إلى أوَّلِهم، ومن الأعلى إلى الأدنى، وشمول دائرة التوحيد والاستغفار للخلق كلِّهم، وهم فيها درجات عند الله، ولكلِّ عاملٍ مقامٌ معلوم، فشهادةُ أن لا إله إلاَّ الله بصِدق ويقين تُذهبُ الشركَ كلَّه، دقَّه وجلَّه خطأه وعمده، أوَّلَه وآخرَه، سِرَّه وعلانيتَه، وتأتي على جميع صفاتِه وخفاياه ودقائِقه، والاستغفار يمحو ما بقي من عثراته، ويَمحو الذنبَ الذي هو من شُعب الشرك،

فإنَّ الذنوبَ كلَّها من شعب الشرك، فالتوحيد يُذهبُ أصلَ الشرك، والاستغفار يمحو فروعَه، فأبلغ الثناء قولُ لا إله إلاَّ الله، وأبلغُ الدعاء قول أستغفر الله »[1].

وقد جمع النبيُّ ﷺ بين التوحيد والاستغفار في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه المخرَّج في سنن الترمذي يقول ﷺ: « قال الله تعالى: يا ابن آدم إنَّك ما دعوتَني ورَجوتَني غفرتُ لك ما كان منك ولا أُبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبُك عنانَ السماء ثمَّ استغفرتني غفرتُ لك، يا ابن آدم إنَّك لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا ثمَّ لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتُك بقُرابِها مغفرة »[2].

وهو حديث عظيمٌ جامعٌ لأهمِّ وأعظم أسباب مغفرة الذنوب، حيث تضمَّن الحديثُ ثلاثةَ أسباب عظيمةٍ يحصُلُ بها مغفرةُ الذنوب:

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٩٦ ـ ٦٩٧).
(٢) سنن الترمذي (رقم:٣٥٤٠)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (رقم:١٢٧).

أحدها: دعاءُ الله مع رجائه، فمِن أعظم أسباب المغفرة أنَّ العبدَ إذا أذنبَ ذنباً لَم يرج مغفرته من غير ربِّه، ويعلم أنَّه لا يغفر الذنوب إلاَّ الله.

الثاني: الاستغفار، فإنَّ الذنوبَ ولو عظُمت وبلغت من الكثرةِ عنانَ السماء، فإنَّ اللهَ يغفرُها إذا طلبَ العبدُ من ربِّه المغفرةَ.

الثالث: التوحيد، وهو السببُ الأعظمُ للمغفرة، فمَن فقده فقد المغفرة، ومَن جاء به فقد أتى بأعظمِ أسباب المغفرة، ولهذا قال الله تعالى: {**إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**}(١)، فمَن جاء يوم القيامة موحِّداً فقد أتى بأعظمِ أسباب المغفرةِ(٢).

فهذه أبوابُ الخير مفتوحةٌ، ومداخلُه مشرعةٌ، ومناراته ظاهرةٌ، فنسأله سبحانه الهداية إليها والتوفيق لتحقيقها.

* * *

(١) سورة النساء، الآية: (٤٨ ، ١١٦).
(٢) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص:٣٦٧ ـ ٣٧٥).

١٠٩ ـ مكانة الاستغفار وحال المستغفرين

إنَّ للاستغفار مكانةً في الدِّين عظيمة، وللمستغفرين عند الله أجوراً كريمة، وثمارُ الاستغفار ونتائجُه الحميدةُ في الدنيا والآخرة لا يحصيها إلاَّ الله، ولهذا كثرت النصوصُ القرآنية والأحاديثُ النبويةُ المرشدةُ إلى الاستغفار، والحاثَّةُ عليه، والمبيِّنةُ لفضله وعظيمِ أجرِه.

يقول الله تعالى: {وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا}[1]، ويقول تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ}[2]، ويقول تعالى: {وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}[3]، ويقول تعالى عن نوح عليه السلام: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَكُمْ أَنْهَارًا}[4]، والآياتُ في هذا المعنى كثيرة، وهي دالَّةٌ على عظيم شأن الاستغفار وتنوُّع فوائده وثمراته.

جاء في الأثر عن الحسن البصري رحمه الله: « أنَّ رجلاً شكى إليه الجدبَ، فقال: استَغْفِرِ الله، وشكى إليه آخر الفقرَ، فقال: استَغْفِرِ الله، وشكى إليه آخر جفاف بُستانه، فقال: استَغْفِرِ الله، وشكى إليه آخر عدم

---

(١) سورة النساء، الآية: (١١٠).

(٢) سورة آل عمران، الآية: (١٣٥).

(٣) سورة الأنفال، الآية: (٣٣).

(٤) سورة نوح، الآيات: (١٠ ـ ١٢).

الولد، فقال: اسْتَغْفِرِ الله، ثمَّ تلا عليهم قول الله تعالى عن نوح عليه السلام: **{فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَكُمْ أَنْهَارًا}** »[1]، « أي إذا تُبتُم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه، كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدر لكم الضرع، وأمدَّكم بأموال وبنين، أي: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنَّات فيها أنواع الثمار، وخللها بالأنهار الجارية بينها »[2]، وفي هذا دلالةٌ على عِظم فوائد الاستغفار وكثرة خيراته وتعدُّد ثمراته.

وهذه الثمرات المذكورة هنا هي مِمَّا يناله العبدُ في دنياه من الخيرات العميمة والعطايا الكريمة والثمرات المتنوِّعة، وأمَّا ما يناله المستغفرون يوم القيامة من الثواب الجزيلِ والأجرِ العظيمِ والرحمةِ والمغفرةِ والعِتقِ من النار والسلامة من العذاب، فأمرٌ لا يُحصيه إلاَّ الله تعالى.

روى ابن ماجه في سننه عن عبد الله بن بُسر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « طوبى لِمَن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً »، وسنده صحيح[3].

وروى الطبراني في الأوسط والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة عن الزبير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « مَن أحبَّ أن تسرَّه صحيفتُه

(١) ذكره الحافظ في الفتح (١١/ ٩٨).
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٨/ ٢٦٠).
(٣) سنن ابن ماجه (رقم:٣٨١٨)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (رقم:٣٩٣٠).

فليُكثر فيها من الاستغفار »[١].

وروى أبو داود والترمذي وغيرُهما عن بلال بن يسار بن زيد، عن أبيه، عن جدِّه: أنَّه سمع النبي ﷺ يقول: « مَن قال: أستغفر الله الذي لا إله إلاَّ هو الحيُّ القيوم وأتوب إليه، غفر له، وإن كان فرَّ من الزحفِ »[٢].

وفي هذا الحديث دلالةٌ على أنَّ الاستغفارَ يمحو الذنوبَ سواء كانت كبائر أو صغائرَ، فإنَّ الفرارَ من الزحفِ من الكبائر.

لكن ممَّا ينبغي أن يُعلم هنا أنَّ المرادَ بالاستغفار ما اقترن به ترك الإصرار، فهو حينئذ يُعدُّ توبةً نصوحاً تجُبُّ ما قبلَها، أما إن قال المرءُ بلسانه: أستغفر الله، وهو غير مقلعٍ عن ذنب، فهو داعٍ لله بالمغفرة، كما يقول: اللَّهمَّ اغفر لي، وهذا طلبٌ من الله المغفرةَ ودعاءٌ بها، فيكون حكمُه حكمَ سائر الدعاء لله، ويُرجى له الإجابة.

وقد ذكر أهلُ العلم أنَّ القائلَ: أستغفر الله وأتوب إليه له حالتان:

الأولى: أن يقول ذلك وهو مصِرٌّ بقلبه على الذنب، فهذا كاذبٌ في قوله: وأتوب إليه؛ لأنَّه غير تائب، فإنَّ التوبةَ لا تكون مع الإصرار من العبدِ على الذنب.

والحالة الثانية: أن يقول ذلك وهو مقلعٌ بقلبه وعزمه ونيَّته عن المعصية،

---

(١) الأوسط (رقم:٨٣٩)، والأحاديث المختارة (رقم:٨٩٢)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (رقم:٢٢٩٩).

(٢) سنن أبي داود (رقم:١٥١٧)، وسنن الترمذي (رقم:٣٥٧٧).

وجمهور أهل العلم على جواز قول التائب: أتوب إلى الله، وعلى جواز أن يُعاهد العبدُ ربَّه على أن لا يعود إلى المعصية أبداً، فإنَّ العزمَ على ذلك واجبٌ عليه، فهو مخبرٌ بما عزم عليه في الحال، وقد تقدَّم أنَّ من شروط قبول التوبة العزمَ من العبد على عدم العودةِ إلى الذنب، فإن صحَّ منه العزمُ على ذلك قُبلت توبتُه، فإن عاد إلى الذنب مرَّة ثانية احتاج إلى توبةٍ أخرى ليغفر له ذنبه، ولهذا فإنَّ العبدَ ما دام كذلك كلَّما أذنب تاب وكلَّما أخطأ استغفر فهو حريٌّ بالمغفرة وإن تكرَّر الذنب والتوبة.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ فيما يحكي عن ربِّه عزَّ وجلَّ: قال: « أذنب عبدٌ ذنباً، فقال: اللَّهمَّ اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أنَّ له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثمَّ عاد فأذنب، فقال: أي ربِّ اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنباً فعلِمَ أنَّ له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثمَّ عاد فأذنب، فقال: أي ربِّ اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلِمَ أنَّ له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئتَ فقد غفرتُ لك »[١]. أي: ما دُمتَ تائباً أوَّاهاً منيباً.

فهذه توبةٌ مقبولةٌ وإن تكرَّر الذنبُ، فإنَّه كلَّما كرَّر العبدُ التوبةَ مستوفياً شروطها قُبلت منه، أما الاستغفار بدون توبة فلا يستلزم المغفرةَ، بل هو سببٌ من الأسباب التي ترجى بها المغفرة.

ولا ينبغي للعبدِ أن يقنَطَ من رحمة الله وإن عظُمت ذنوبُه وكثرت

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٧٥٠٧)، وصحيح مسلم (رقم:٢٧٥٨).

وتنوَّعت، فإنَّ بابَ التوبةِ والمغفرَةِ والرحمةِ واسعٌ، فالله يقول: {**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**}[١].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: « مَنْ آيس عبادَ الله من التوبة بعد هذا فقد جَحَدَ كتاب الله عزَّ وجلَّ »[٢].

ويقول سبحانه: {**أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ**}[٣]، ويقول: {**وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا**}[٤]، وقال الله تعالى في حقِّ المنافقين: {**إِنَّ المُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا**}[٥]، وقال في شأن النصارى: {**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وإِن لَمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**}[٦]، وقال في شأن الكُفَّار: {**إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا**}[٧].

قال الحسن البصري: « انظروا هذا الكرمَ والجودَ، قتلوا أولياءَه وهو

---

(١) سورة الزمر، الآية: (٥٣).
(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٩).
(٣) سورة التوبة، الآية: (١٠٤).
(٤) سورة النساء، الآية: (١١٠).
(٥) سورة التوبة، الآية: (١٤٥).
(٦) سورة المائدة، الآيتان: (٧٣ ، ٧٤).
(٧) سورة البروج، الآية: (١٠).

يدعوهم إلى التوبة والمغفرة »[١].

فما أعظم فضل الله وما أوسع عطاءَه ومغفرتَه، فنسأله سبحانه أن يشملنا بعفوه وأن يَمنَّ علينا بمغفرته إنَّه هو الغفور الرحيم.

❊ ❊ ❊

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٨).

١١٠ ـ مُلازمة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم للاستغفار

لقد كان إمامُ المرسَلين، وقدوةُ الموحِّدين، وقائدُ الغُرِّ المُحجَّلين الرسولُ الكريم ﷺ كثيرَ الاستغفار والتوبةِ إلى الله، مع أنَّه ﷺ قد غفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، كما قال تعالى: {**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا**}(١)، وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنه قالت: « كان رسول الله ﷺ إذا صلَّى قام حتى تتفطَّر رجلاه، فقلت له يا رسول الله: أتصنَعُ هذا وقد غفر لك الله ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ فقال: يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً »(٢).

قال ابن كثير رحمه الله: « هذا من خصائصه صلواتُ الله وسلامه عليه التي لا يشاركه فيها غيرُه، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غُفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر، وهذا فيه تشريفٌ عظيمٌ للرسول ﷺ، وهو صلوات الله وسلامه عليه في جميع أموره على الطاعةِ والبِرِّ والاستقامة التي لَم ينلها بشرٌ سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو أكملُ البشر على الإطلاق، وسيِّدُهم في الدنيا والآخرة »(٣).

ومع ذلك كلِّه فقد كان صلواتُ الله وسلامه عليه يُكثر في جميع أوقاته

---

(١) سورة الفتح، الآيتان: (١ ، ٢).

(٢) صحيح البخاري (رقم:٤٨٣٧)، وصحيح مسلم (رقم:٢٨٢٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣١٠).

من الاستغفارِ، وكان الصحابةُ رضي الله عنهم يُحصون له في مجالسه الاستغفارَ الكثيرَ.

روى مسلم في صحيحه عن الأغر المزنيّ رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: « إنَّه ليُغان على قلبي، وإنِّي لأستغفر الله في اليوم مائة مرَّة »[(١)].

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « والله إنِّي لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة »[(٢)].

وروى أبو داود والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: « كنَّا نعُدُّ لرسول الله ﷺ في المجلسِ الواحدِ مائةَ مرة: ربِّ اغفر لي، وتُب عليَّ، إنَّك أنت التواب الرحيم »[(٣)].

وأخرج النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه: « أنَّ رسول الله ﷺ جمع الناسَ فقال: يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإنِّي أتوب إليه في اليوم مائة مرة »[(٤)].

وقد ثبت عنه ﷺ في الاستغفار صيغٌ عديدة، منها قوله: « أستغفر الله

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٢٧٠٢).
(٢) صحيح البخاري (رقم:٦٣٠٨).
(٣) سنن أبي داود (رقم:١٥١٦)، وسنن الترمذي (رقم:٣٤٣٤)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (رقم:٥٥٦).
(٤) النسائي في الكبرى (١٠٢٦٥)، وهو عند مسلم من حديث الأغر (٤/٢٠٧٦) بلفظ مقارب.

وأتوب إليه »، قال أبو هريرة رضي الله عنه: « ما رأيتُ أحداً أكثر من أن يقول: أستغفر الله وأتوب إليه مِن رسول الله ﷺ »[١].

ومنها قوله: « ربِّ اغفر لي، وتُب عليَّ إنَّك أنت التواب الرحيم »، وقد تقدَّم في حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ومنها ما ثبت في الصحيحين: أنَّ أبا بكر قال للنبيِّ ﷺ: « عَلِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي؟ قال: قل: اللَّهمَّ إنِّي ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلاَّ أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك وارحمني، إنَّك أنت الغفور الرحيم »[٢].

ومنها ما في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنَّه كان يدعو بهذا الدعاء: « اللَّهمَّ اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به منِّي، اللَّهمَّ اغفر لي جدِّي وهزلِي، وخطأي وعمدي، وكلُّ ذلك عندي، اللَّهمَّ اغفر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، وما أنت أعلمُ به منِّي، أنتَ المقدِّم وأنت المُؤخِّر، وأنتَ على كلِّ شيء قدير »[٣].

ومنها ما ثبت في صحيح مسلم أنَّه كان من آخر ما يقوله ﷺ بين التشهد والتسليم: « اللَّهم اغفر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أَسررتُ وما أعلنتُ، وما أسرفتُ، وما أنتَ أعلم به منِّي، أنتَ المقدِّم وأنت المُؤخِّر، لا إله إلاَّ أنت

(١) السنن الكبرى للنسائي (رقم:١٠٢٨٨)، وصحيح ابن حبان (رقم:٩٢٨).
(٢) صحيح البخاري (رقم:٨٣٤)، وصحيح مسلم (رقم:٢٧٠٥).
(٣) صحيح مسلم (رقم:٢٧١٩).

».[1]

ومنها، وهو أتمُّها وأكملُها ما ثبت في صحيح البخاري عن شدَّاد ابن أوس رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: « سيِّدُ الاستغفار أن يقول العبدُ: اللَّهمَّ أنت ربِّي لا إله إلاَّ أنت، خلقتني وأنا عبدُك، وأنا على عهدِك ووعدِكَ ما استطعتُ، أعوذُ بك من شرِّ ما صنعتُ، أبوء لك بنعمَتِك عليَّ، وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنَّه لا يغفرُ الذنوبَ إلاَّ أنتَ »[2].

فهذا الحديث لَمَّا كان جامعاً لمعاني التوبة، مشتملاً على حقائقِ الإيمان، مُتضمِّناً لمحضِ العبودية، وتمام الذُّلِّ والافتقار فاق سائرَ صِيَغِ الاستغفار في الفضيلة وارتفع عليها.

قال ابن القيم رحمه الله: « فتضمَّن هذا الاستغفار الاعترافَ من العبد بربوبيَّة الله وإلهيَّته وتوحيده، والاعتراف بأنَّه خالقُه، العالمُ به؛ إذ أنشأه نشأةً تستلزمُ عجزَه عن أداء حقِّه وتقصيره فيه، والاعتراف بأنَّه عبدُه الذي ناصيتُه بيده وفي قبضتِه، لا مهربَ له منه، ولا وليَّ له سواه، ثمَّ التزامُ الدخول تحت عهده ـ وهو أمره ونهيه ـ الذي عَهِدَه إليه على لسان رسوله، وأنَّ ذلك بحسب استطاعتي، لا بحسب أداء حقِّك، فإنَّه غير مقدور للبشر، وإنَّما هو جهد المقلِّ، وقدر الطاقة، ومع ذلك فأنا مصدِّقٌ بوعدك الذي وعدته لأهل طاعتك بالثواب، ولأهلِ معصيتك بالعقاب، فأنا مقيمٌ على عهدِك مُصدِّقٌ بوعدِك، ثمَّ أفزع إلى الاستعاذة والاعتصام بك من شرِّ ما فرطتُ فيه من أمركَ ونهيكَ، فإنَّك إن لَم تعِذْني من شرِّه، وإلاَّ أحاطت بي الهلكة، فإنَّ

(١) صحيح مسلم (رقم:٧٧١).
(٢) صحيح البخاري (رقم:٦٣٠٦).

إضاعةَ حقِّك سببُ الهلاكِ، وأنا أُقرُّ لك وألتزم بنعمتك عليَّ، وأقِرُّ وألتزم وأنجع بذنبي، فمنك النعمةُ والإحسانُ والفضلُ، ومنِّي الذنبُ والإساءةُ، فأسألكَ أن تغفر لي بمحوِ ذنبي، وأن تُعفيني من شرِّه، إنَّه لا يغفر الذنوبَ إلاَّ أنتَ، فلهذا كان هذا الدعاءُ سيِّدَ الاستغفار »[1].

ومِن صِيَغ الاستغفار التي وردت عنه ﷺ ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنه: أنَّها سمعت رسول الله ﷺ وأصْغَت إليه قبل أن يموت وهو مسنِدٌ إليها ظهرَه يقول: اللَّهمَّ اغفر لي وارحمني وألحِقني بالرفيق الأعلى »[2].

وفي هذا إشارةٌ إلى ملازمتِه ﷺ للاستغفار في كلِّ أوقاته وجميع أحيانه إلى آخر لحظات حياته الكريمة صلواتُ الله وسلامه عليه، وكما أنَّه ﷺ كان يختم أعماله الصالحة، كالصلاة والحج وقيام الليل وسائر مجالسِه بالاستغفار فقد ختم حياتَه كلَّها به، رزقنا الله حسنَ الاقتداء به والاتِّباع لنهجه، ونسأله سبحانه أن يرزقنا الخاتمة الحسنة، إنَّه سميع مُجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

ويليه القسم الثالث إن شاء الله، وهو في شرح الأذكار المتعلقة بعمل اليوم والليلة.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٢١ ـ ٢٢٢).
(٢) صحيح البخاري (رقم:٤٤٤٠).

فهرس الموضوعات

❊ ❊ ❊

❊